د. محمد شيخاني

التيارات الفكرية المعاصرة

والحملة على الإسلام



إن الإنسانية تعيش حالة من الصراع الفكري الذي يتولد فيه تيارات فكرية نتاج التراكم المعرفي ، و عبر الصراع المستمر بين المادية و الروحانيات ، وقد لعبت الفلسفة الدور الرئيس في إيجاد منظومات إيديولوجية بدءاً من الفلاسفة الإغريقيين أمثال أرسطو و أفلوطين ، و عبر الترجمة ظهرت فلسفة عربية إسلامية تأثر بعض رجالها أمثال ابن سينا والكندي و الفارابي وابن رشد بأولئك الفلاسفة .

التيّارات الفكريّة المعاصرة
والحملة على الإسلام

الطبعة الأولى
1429هـ - 2008 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف : 30 24 224 11 963+
فاكس : 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان
ص.ب : 14/6364
خليوي : 833 814 3 961+
تلفاكس : 135 541 1 961+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

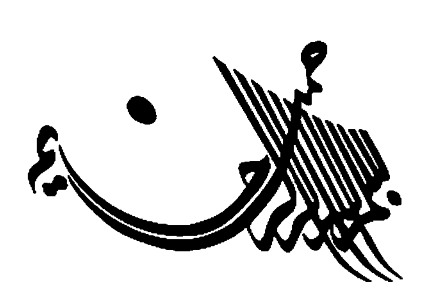
التيّارات الفكريّة المعاصرة

والحملة على الإسلام



د. محمد شيخاني





الإهداء

إلى الأخ الشيخ الدكتور صلاح الدين كفتارو الذي تـألق في كـل محفـل ومؤتمر وندوة مستلهماً من قلب شيخه ووالـده سـماحة العلامـة الـشيخ أحمـد كفتارو رحمه الله والذي أرسى قواعد مدرسته الروحيـة والفكريـة والوسـطية وعمل جاهداً لإتمام هذا الصرح الإسلامي الكبير مجمع الـشيخ أحمـد كفتـارو فصار موئلاً لكبار الزائرين والعلماء والندوات والحوار الجاد للتعايش بين كل أطياف المجتمع

وعمل جاهداً للتعاون والشورى والتآلف بـين كـل المـدارس الفكريـة والروحية والفقهية في سورية الحبيبة..

إلى أخي الذي أرجـو أن يوفقـه الله ليـزداد علـماً ونـوراً وتألقـاً وتأسـياً بالمصطفى ﷺ..

مع كل المحبة والتقدير..

د. محمد

المقدمة

إن الإنسانية تعيش حالة من الصراع الفكري الذي يتولد فيه تيارات فكرية نتاج التراكم المعرفي، وعبر الصراع المستمر بين المادية والروحانيات، وقد لعبت الفلسفة الدور الرئيس في إيجاد منظومات إيديولوجية بدءاً من الفلاسفة الإغريقيين أمثال أرسطو وأفلوطين، وعبر الترجمة ظهرت فلسفة عربية إسلامية تأثر بعض رجالها أمثال ابن سينا والكندي والفارابي وابن رشد بأولئك الفلاسفة، حتى الغزالي في بدايته الذي قام لاحقاً بالرد عبر تهافت الفلاسفة وجابهه ابن رشد بتهافت التهافت، ونشأ من خلاله تيار عقلاني يتمثل بالمعتزلة، وتوقف الدعم لهذا التيار عندما انتصر السلفيون بدعم من الدولة العباسية بعد المأمون.

ولو أن التيار العقلاني الذي اعتمده ابن رشد وأثر في الفلسفة الغربية ودرست كتبه في جامعات أوروبا استمر بتصاعد متلائم مع مقاصد الشريعة وبدون التأثر بفكر أرسطو لأتيح للفكر الإسلامي العقلاني أن يأخذ دوراً إيجابياً متصاعداً ومستمراً في إيجاد مناهج قرآنية إسلامية عقلانية، ولكن الهجوم الكبير على الرشدية وعلى الفلاسفة العرب والمسلمين من قبل السلفية، أضعف هذا التيار وساهم في إيقاف التقدم والنهضة بعد القرنين السادس والسابع الهجريين مع استمرار الهجوم الصليبي والمغولي على العالم الإسلامي. كل هذا أدى إلى ركود وجمود هائل في الفكر الإسلامي ولم يظهر على الساحة العربية والإسلامية عمالقة في الفكر والفلسفة، ساهم في هذا الركود شخصيات أمثال ابن تيمية وابن القيم بالهجوم على المنطق والفلسفة حتى وصلوا إلى التكفير لمن يخوض في هذه العلوم واعتبروها علوماً وافدة وغريبة وبذلك حجموا التيار العقلاني الإسلامي.

ونقلت العلوم العربية والإسلامية إلى الغرب بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي، حيث ظهرت تيارات فلسفية غربية استمدت الكثير من العلوم في الأندلس التي كانت محطة ومكاناً للمعرفة حتى نهايتها.

وأقرت زيغريد هونكه عبر كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) وكتابها العقيدة والمعرفة بأن الحضارة الغربية عالة على نتاج الحضارة العربية الإسلامية، كما اعترف جوستاف لوبون، وأرنولد توينبي، بأثر الحضارة العربية الإسلامية في نهضة أوروبا الحديثة.

ومن جراء الصراع بين الكنيسة والعلماء والفلاسفة وإيجاد محاكم التفتيش وجدت القطيعة بين الفلاسفة والكنيسة، ولكن الفلاسفة استمروا بالصمود حتى أنتجوا فلسفة مثالية ومادية، وظهر ديكارت وكانت وهيجل وماركس وإنجلز وفولتير ولوك وهوبس وجون ديوي وفورباخ وجان جاك روسو وجان بول سارتر، وظهرت تيارات المادية الجدلية والديالكتيك الهيجلي الذي اعتمد عليه ماركس في إيجاد الماركسية. وظهر تيار الفلسفة التحليلية والواقعية والتشكيكية. وتنامت الأفكار الشيوعية، والليبرالية، والوجودية، واللامنتمي، والفوضوية، وأفرزت حضارة غربية اعتمدت على الفيزياء الحديثة والرياضيات، والنسبية، بظهور علماء كأنشتين ولافوازيه وبسكال، والميكافيلية السياسية والبراغماتية النفعية.

وعبر تصاعد التراكمات الفكرية الحديثة تسارعت النهضة الصناعية والمعلوماتية والالكترونيات وظهرت نظريات اقتصادية ساهمت في صعود الحضارة الغربية وبعد أن استلبت المواد الخام من الدول التي استعمرتها أوروبا من آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية.

ولا بد لنا من دراسة كل أو بعض هذه التيارات الفكرية لمعرفة أسباب وازدهار الحضارة الغربية، وتتسارع هذه الحضارة بالصعود للعديد من مراكز البحث العلمي، وانتشار الجامعات والمراكز الإستراتيجية العلمية في أوروبا وأمريكا واليابان حتى الصين.

وأدى تصاعد الحركات الإسلامية في نهاية القرن العشرين إلى تشكيل حوارات للعمل الجاد وعبر المؤامرات لإيقاف هذا المد الإسلامي، والعمل إلى تمزيقه والإيحاء للدول التي تسير في ركب الغرب لإيجاد العوائق المادية والمعنوية لإيقاف أي مبادرة للنهضة والتقدم في العالم العربي والإسلامي.

ولكن دول شرق آسيا كسرت هذه العوائق واستمرت في العمل والبحث والاستفادة من تمويل الشركات المتعددة الجنسية للنهضة في ماليزيا وسنغافورة وإندونيسيا وتايوان.

ولا ننسى أن الغرب أوقف النهضة المصرية في عصر محمد علي باشا ومنعته من التقدم وحاصرته بكل قواها لتستمر هذه الدولة ومع جيرانها بأن تكون أسواقاً استهلاكية لمنتوجات الغرب.

وإن زرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي ساهم في إشغال العالم العربي بحروب كثيرة ولتمويل ميزانيتها للدفاع، وإيقاف مشاريع التنمية والنهضة والتقدم.

وظهرت أفكار خطيرة بعد أحداث 11 أيلول وقبلها وأهمها صراع الحضارات وصدامات هذه الحضارة، والخوف من تشكيل دول المركز للعالم الإسلامي ويراهنون على تركيا في حال القطيعة مع العلمانية والانفكاك من أسر العسكريين المراقبين للتيار العلماني لأتاتورك.

فصدام الحضارات لصموئيل هنتنغتون ونهاية التاريخ لفوكوياما أظهر خوف الغرب من تعاون الحضارة الإسلامية مع الصين لأنهم يمثلون نصف سكان العالم تقريباً.

وخلال القرنين الماضيين حاولوا نشر تيارات فكرية وجماعات إسلامية كالقاديانية التي تطورت إلى الأحمدية، والبهائية، والبابية، وتيارات أصولية جهادية تكفيرية وتنامى حزب الإخوان المسلمين وحزب التحرير، والحركة السلفية الوهابية وما أنتجته الحروب في أفغانستان من الأفغان العرب، والقاعدة التي يقودها ابن لادن وتحويل الفصائل الفلسطينية إلى جماعات تحمل شعارات إسلامية كحماس والجهاد وكتائب الأقصى، كل هذا أدى إلى آثار كبيرة على القضية الفلسطينية وعلى العالم العربي والإسلامي.

وإن الثورة الإسلامية في إيران أدت إلى تنامي الفكر الشيعي في العالم العربي والإسلامي ولم يساهم في جمع الصف وتوحيد الكلمة، إلا أن حزب الله في لبنان أدى دوراً هاماً في انتصاره الكبير على الكيان الصهيوني، وإجباره على الانسحاب من جنوب لبنان وكسب تأييد الشارع العربي وبعض الحكومات العربية والإسلامية كما ساهم في إيجاد اللحمة بين الشيعة والسنة عبر هذا الانتصار الرائع. ولكن ما تقوم به أمريكا لإيجاد الشرق الأوسط الجديد عبر التقسيم الجغرافي، والتقزيم وإيجاد كيانات صغيرة تخدم مصالحها في المنطقة. كما أن احتلال العراق وأفغانستان أدى دوراً كبيراً عكسياً لدى المفكرين والفلاسفة العرب والمسلمين لإيجاد الأساليب والأفكار التي تحاول أن تجمع الكيان العربي والإسلامي لإنهاء هذا الاحتلال، وإعاقة مقاصده الاقتصادية التي أهمها الهيمنة على النفط في الخليج العربي وحول بحر قزوين، تيارات

فكرية وفلسفية وعقدية تنامت عبر القرن التاسع عشر والعشرين ستؤدي إلى نتائج خطيرة إذا لم تجتمع كلمة العرب والمسلمين بتشكيل اتحاد عربي قوي، وسوق اقتصادية عربية وإسلامية، وتحالفات إستراتيجية مع الصين وروسيا والهند وتبادل التجارة البينية، والتصدي للإعلام المتصاعد المؤثر في الشارع العربي والإسلامي.

وآمل في عرض بعض هذه التيارات أن يسهم في الوعي، والرغبة والأمل المستقبلي لهذه الأمة راجياً من العلي القدير أن يكون لبنة في السلام العالمي والتعاون المستمر الجاد، ونشر الثقافة الإسلامية والإنسانية الراشدة لتحقيق العدل والسلام والبلوغ إلى الحق المطلق الذي يسهم في إيقاف الحرب التدميرية الشاملة لكرتنا الأرضية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

الصراع بين الدين والعلم في أوروبا

تطورت الأفكار في القرن 14 وبدأ الانشقاق الكبير وبدأ الاتهام الكبير بين الكنيسة والعلم وبدأ التشظي حتى جاء توماس الأكويني بتوليفة كبيرة بين العلم والكنيسة ولكن الصراع بين العلماء ورجال الكنيسة صار بشكل جاد وأعظم موضوع تم الصراع حوله دوران الأرض وأزلية العالم وبدأ غيوم الأوكامي محاربة السلطة البابوية في مؤلفه (عقائد البابا يوحنا الثاني والعشرين) لعام 1333 حيث اتهم الباب بالهرطقة. ونادى بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وزعم بأن الإيمان والعقل ليس لهما أي شيء مشترك وعليهما أن يحترما استقلالهما الداخلي المتبادل وطرح أفكاراً بأن علم الله وعلم الطبيعة لا يسعهما الالتقاء.

وبدأ التأكيد على أن الحقائق الدينية عصية على البرهنة.

وأكدت الكنيسة بأن أي قضية يجب أن تكون متوافقة مع معطيات الوحي (أي الكتاب المقدس).

وبدأ الصراع بين الكنيسة والعلم في قدرة تحول الذرات إلى جوهر آخر؛ كأن يتحول الخبز إلى جسد المسيح وأصحاب هذه النظرية بدأوا يحولون إلى المحاكم البابوية للارتداد عن أفكارهم مثال نيكولا.

وجان لوريدان قال: لامني بعض الأساتذة لأنني أخلط بعض الاعتبارات اللاهوتية في مسائلي الفيزيائية.

وهنا بدأت حالة الصراع بين العلم والكنيسة وأحرقت الكنيسة سيكو الأنسكوني.

وبدأت الكنيسة تطالب بالإشراف الكامل على العلوم والوصاية عليه ثم إن الطلاق ما بين العقل والإيمان الذي أعلن الأوكاميون لعله كان عاملاً

لتحرر الفكر العلمي وبدأ بعض الموالين لمذهب الاسمية يهاجمون اللاهـوتيين حتى وصلوا إلى الهجوم على الذات الإلهية.

ثم بدأت تقييدات دينية حيال العلم

قال عميد جامعة باريس جان جيرسون في بداية القرن 15 ما يلي: (يجهد كثيرون ويقدمون أنفسهم لكي يكتسبوا العلم ورأيت كما يقول الحكيم أن كل هذا باطل وكذلك العمل ومرارة الروح وبلواها وما هي جدوى معرفة أشـياء العالم وأموره، عندما سيكون هذا العالم قـد انقـضى؟ ففـي اليـوم الأخـير لـن تسألوا عما عرفتم بل عما فعلتم ولن يكون من بعد علم في جهنم التي تهرعـون إليها فكفوا عن هذا الجهد الباطل)[1]. وهذا عمل لتقييد العلم والعلـماء. ومـن ثم شهد القرن (15) احتقاراً كبيراً للمعرفة الإنـسانية ولا سـيما العلـوم حتـى قالوا لنكن (قديسين وجهلة).

وبدأ الصراع بين الأطباء واللاهوتيين المعتقدين بـالمس الـشيطاني وبـدأ عالم العلوم ينزلق خفية خارج التحكم الكنسي وأفلت البحث في الطبيعـة مـن رقابة الكنيسة وبدأت الـروابط بـين الـدين والعلـم تنفـصم ووهـن احتكـار الكنيسة وعلم اللاهوت لدراسة الطبيعة، وكثـرت كليـة اللاهـوت العراقيـل ضد هذه المدارس الجديدة المهتمة بشكل العلوم ثـم تقاسـم المعرفـة والبحـث العلمي مع تشجيع السلطات المدنية وحتى الدينية.

ورغم ذلك استمرت محاكم التفتيش، وحكم على فيزال وأحرق سيرفيه حياً على يد الكلفانيين سنة 1553.

ورغم ذلك أظهر بعض رجـال الكهنـوت اهـتمامهم بـالعلوم حتـى أن بعض البابوات كونوا مكتبة الفاتيكان العلمية.

---

(1) ص 388 الكنيسة والعلم.

وظهر العديد من الملا حدة وبعضهم أنكر تجسد المسيح وألوهيته مثل جان بودان جوهن هيليون الذي يعتبر الكتاب المقدس كله بمثابة (نسيج من الأساطير) أما ماثيوهاموند فيصف العهد الجديد بأنه (اختلاق بحت).

ثم وضعت إجراءات تهدف إلى التحكم ومراقبة المطبعة والناشرين والمؤلفين.

بعد مجمع ترانت تراجعت الكنيسة تراجعاً رهيباً في مضمار العلوم واستمر التحكم بالعلم من قبل الكنيسة حتى القرن 17 وإن قضية غاليلية كانت رمزاً للقطيعة بين الكنيسة والعلم وكذلك بين الإيمان والعقل ومحاكمته علنياً لأنه قال بدوران الأرض حول الشمس. ومن ثم لعن الهرطقة وأنكر دوران الأرض ثم ضرب بقدمه عند خروجه قائلاً: ورغم ذلك فالأرض تدور، ثم حكم عليه بالإقامة الجبرية.

وبعد نظرية الذرات كادت الكنيسة أن تمنع كل كتب الفيزياء وبعد القرن السابع عشر بدأت ثورة ثقافية وتمت القطيعة بين الكنيسة والعلم.

وقد وضحت فكرة محاكم التفتيش في قصة الحضارة الجزء 16 ص 90 وجاء فيها (إذا شهد ثلاثة شهود عدول عن أشخاص (ذهبوا وراء آلهة أخرى) أخرج المارقون من المدينة ورجموا بالحجارة حتى الموت).

قال بيير دبوري (إن القساوسة يكذبون حين يدعون أنهم يصنعون جسد المسيح وهم يصنعون القربان المقدس) ومن ثم أحرق كومة من الصلبان في يوم الجمعة الحزينة فقتله العامة في مكانه وأحرقوه لساعته وجاء في قصة الحضارة ج16 ـ ص 90 أن جريجوري التاسع وكان على عرش البابوية عام (1227) وقد وجد أن الضلال في ازدياد رغم المحاكمات الشعبية والحكومية والأسقفية. وشكل أول محكمة للتحقيق البابوي في عام (1227) وذكر ديورانت: (أرسل

روبرت الدفتيكي (180) شخصاً ليحرقوا أحياء ومن بينهم أسقف منح الضالين حرية أكثر مما يستحقون حتى بذل جهداً لتحويل اليهود إلى المسيحية).

برنار جوى وهو محقق في محاكم التفتيش حكم على (930) ضالاً في مدى سبعة عشر عاماً[1].

وقال ديورانت: (فلا بد أن نضع محاكم التحقيق في مستوى الحروب في هذه الأيام واضطهاداتها ونحكم عليها بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كلها وبأنها تكشف عن وحشيته ولا نعرف لها نظيراً عند أي وحشي من الوحوش[2].

بدأت الجامعات تظهر عدم مبالاتها بالدين فقال أحدهم (إذا اجتمع ثلاثة في (جامعة بولونيا) يكون اثنان فيهم كافرين)[3] وقد تأثر الكثير بآراء ابن رشد (القانون الطبيعي يحكم العالم) ووجد نومس أكانوس بعد انتقاله إلى باريس أن فلسفة ابن رشد تنتشر في شباب الجامعة.

وإن سينجر بعد أن درس فلسفة ابن رشد توصل إلى آراء ملحدة وأدين وسجن في إيطاليا ثم اغتيل.

وبدأ الصراع بين الفلسفة والدين في الجامعات الأوروبية فبدأ بعضهم يفضل أفلاطون على أرسطو ثم بدأت مرحلة التوفيق بين الفلسفة والدين على يد ألبرت اللوثري.

واللوثرية بدأت عملية إصلاح للكنيسة وهجوماً على الكاثوليكية والبابوية.

---

(1) قصة الحضارة ص 103 جـ 16.

(2) ديورانت ـ قصة الحضارة ص 106 جـ 17.

(3) ديورانت ـ قصة الحضارة ص 106 جـ 17.

وظهرت مادية هوبز وكانت سابقة لمادية لافري بقرن، وقامت رسالة هيوم في الطبيعة البشرية بهجوم كبير على أفكار الكنيسة وهي قد بدأت قبل هجوم فولتير. وبدأ الهجوم على المسيحية وقد أطلق توماس وولستن ثورته التي خلت من التوفير للمسيحية في شن أحاديث عن معجزات مخلصنا. قال فولتير (لم يهاجم المسيحية قط مسيحي بمثل هذه الجرأة).

وزعم وولستن (أن بعض المعجزات لا تصدق وبعضها غير معقول).

واتهم وليم روبرتين بأن فولتير (قد يتمرغ في أقذر بالوعات التفكر الحر)[1].

ظهر جون هيوم عام (1711م) وقد تأثر جون هيوم بكل من لوك وكلارك[2].

وكتب هيوم (رسالة في الطبيعة البشرية) بجزأين توصل فيهما إلى ضرب المادة وفلسفة الروح والخلود ثم توصل إلى أن العلم تراكمات للاحتمالات المعرضة للتغير دون إنذار، والميتافيزيقيا مستحيلة إذا زعمت أنها نسق من الخصائص حول واقع مطلق فهو فيلسوف الشك.. وفي العقل اعتبره أنه عبد للعواطف.

وأكد على أن قانون التجاذب الاجتماعي هو عام ومنبر في العالم الأخلاقي شأن قانون الجاذبية في الكون المادي. وكتب في السياسة والاقتصاد والتاريخ وغاليلو ولد عام 1564 ـ 1642 في بيزا. ويعتبر أعظم الفلكيين في عصره. وأكد عام (1615)م أن الأرض تدور على محورها كما تدور حول

(1) قصة الحضارة ج35 ص 179.

(2) قصة الحضارة ج 35 ص 201.

الشمس مما أدى إلى أن أصدرت المحكمة الكنسية في 5 مارس عام (1615) قائلة (إن الفكرة التي تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة وهي من الناحية الفلسفية فكرة زائفة، وهي كذلك هرطقة لا جدال فيها لأنها تناقض النصوص المقدسة، والفكرة التي تقول بأن الأرض ليست مركزاً للكون بل حتى أنها لها دورة يومية زائفة من الناحية الفلسفية، وأنها على الأقل اعتقاد خاطئ وأصدرت تعاليم بهرطقة هذه المقولات[1].

ثم أصدرت لجنة التحقيق في كتاب جاليليو (أن نظرياته أشد خطراً على الكنيسة من هرطقات لوثر وكلفن) وحظرت الكنيسة والمحكمة بيع كتاب المحاورات لجاليليو وأحضر إلى المحكمة ثم اعترف بأن الأرض لا تدور وأن الشمس هي التي تدور على رأي بطليموس.

ولكن المحكمة أصدرت قراراً بإدانته بالهرطقة والتمرد والعصيان وعزمت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علناً أمام الجمهور بالتخلي عن آرائه وأعلن (بقلب مخلص، وإيمان صادق ألعن وأبغض وأعلن التخلي عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إليَّ) وعند مغادرته المحكمة غمغم متحدياً وضرب بقدمه وقال (ومع ذلك فهي تدور فعلاً).

وبدأ الشكاكون بمناقشة فكرة وجود الله وليس الكاثوليكية وبدا عصر العقل ينهي عصر الإيمان في أوروبا. وتكون في باريس مجموعة (المفكرون الأحرار) 50 ألف ملحد في باريس. وهذا ما قاله أوزبوش تابيرو في كتابه (المحاورات) وصرخ فرانسوا قائلاً: (إن معرفتنا هراء في هراء، وإن حقائقنا خيالات وأوهام لاهوت، وإن دنيانا بأسرها.. مهزلة متصلة).

---

(1) قصة الحضارة ج30 ص 875.

صرح فولتير قائلاً: (إذا كان الناس فلاسفة يتعشقون الحكمة ويمارسونها فلن تعود ثمة حاجة إلى الديانة ويمكن أن تعيش المجتمعات بمقتضى علم أخلاقي طبيعي مستقل عن اللاهوت أو الدين وقال (بين جدران المعبد صنعت المعاول التي حطم بها المعبد) علماً أن ديكارت وفولتير ورينان وأناتول فرانس قد درسوا في بواتييه القانون المدني والقانون الكنسي وتابع ديكارت دراسته في تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة. قال ديكارت في رسالة إلى مرسين (حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتي، ولكنني لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تغضب الكنيسة).

كلمات كلها خوف من محاكم التفتيش واتهامه بالهرطقة ثم قال وكان شعاره (يعيش سعيداً من يتوارى عن الأنظار ويتكلم كثيراً) وفي عام 1663 أدرجت كل كتبه في قائمة الممنوعات التي تصدرها الكنيسة.

ثم ظهر توماس الأكويني (توماس أكوناس).

حاول التوفيق بين أرسطو والمسيحيين واعترف أنه يريد مقاومة فلسفة ابن رشد (العقلانية) ويعترف صراحة بما يأخذه من غيره فهو يقتبس من ابن سينا والغزالي وابن رشد وإسحق الإسرائيلي وابن جبرول وابن ميمون للتوفيق بين العقل والدين وأخذ عن ابن ميمون من كتاب دلالة الحائرين.

وكان يشارك الصوفيين في الشوق إلى الاتحاد مع الله وتنبأ بأن أوروبا مقبلة على عصر العقل وألف كتاباً عن الطبيعة والكائن والجوهر (خلاصة المذهب الكاثوليكي ضد الوثنيين) في أربعة مجلدات وكتاب (خلاصة اللاهوت) وتوصل إلى وصف الله عز وجل متأثراً بابن رشد وبالفلسفة الإسلامية قال (إن أرقى ما نستطيع تحصيله من معرفة عنه (الله) في هذه الحياة أنه فوق كل ما يمكن أن يدور بخلدنا عنه).

ثم اعتبرت عام 1921 مؤلفات توماس الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية واعتبر ابن سينا وابن رشد وأرسطو أنهم هم الذين بثوا جراثيم النزعة العقلية في أوروبا المسيحية"[1].

لقد أوصلت النزعة العقلية لبعض الفلاسفة مثال الدنزي في انجلترا الذي لا يستطيع إثبات المسيح كله ويطلق عليه (الأبله البليد، المعنى وسجن ثم أطلق سراحه ودفن في أكسفورد) في عام 1488 أصدر حكم في هرطقة تسعمائة وثمانين وأحرق منهم مائة وتقديرات الذين احرقوا حتى عام 1889 ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا لأنهم اتهموا بالهرطقة وكانت الغاية تخلص أسبانيا خاصة من الهرطقة الصريحة.

وقد أكرهوا (235) ألفاً من اليهود على المسيحية أو النفي. وأحرق الكاردينال ريشيليد (3) ملايين من المسلمين في أسبانيا والبرتغال (أكبر حدث همجي في التاريخ)"[2].

---

(1) قصة الحضارة ج17 ص 156.

(2) قصة الحضارة ج 17 ص 97.

النهضة الأوروبية الحديثة وأثرها في العلم

بدأت باكورة النهضة العلمية منذ القرن السادس عشر بترجمة الكتب القديمة اليونانية والعربية. والنهضة الدينية بدأت بثورة اللوثرية والكالفينية وهي ثورة إصلاح حاولت إيجاد مذهب جديد وهي البروتستانتية حيث قيدت هذه الثورة سلطة الكنيسة، وجرت حروب مدمرة ومن ثم بدأت الثورة الفرنسية على الإمبراطور وحولت البلاد إلى جمهورية.

وانتشرت العلوم الإنسانية كالطب والهندسة والطبيعيات والفلسفة والجيولوجيا، وكان الصراع بين المادية الجدلية التي يقودها ماركس والمثالية التي يقودها هيكل وانتشرت الجامعات، وكثر الطلبة في كل أنحاء أوروبا.

ومن ثم بدأت الثورة الصناعية التي تبنت النظام والاقتصاد الرأسمالي الليبرالي، وكان هجوم الأتراك عام 1693 على فيينا وإخفاق الدولة العثمانية في تلك المعركة قد أوجد هواجس عند الغربيين أدت إلى تحرك سياسي كبير واتفاقات وظهرت قوة لويس الرابع عشر، حتى أنه قد أثار مخاوف إعادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبدأ صعود روسيا ببطء إلى الارتقاء إلى صف الدولة العظمى.

وظهرت نظريات لوك حول حقوق الأفراد وواجباتهم السياسية، وظهور فولتير ومونتسيكو وظهور النقد العقلاني بدأ يزعزع بشكل جذري اليقين التقليدي الموروث حول قداسة الكتاب المقدس.

كما بدأت حصة الاستعمار تزداد من البرتغال والأسبان إلى انكلترا وفرنسا وإيطاليا وكانت الكتلة الاجتماعية الأهم هم الفلاحون، وكانت الارستقراطية ومالكو الأرض (الإقطاعيون) لهم نفوذ كبير في بريطانيا

وظهرت البرجوازية في فرنسا، بامتلاك التجارة الاستعمارية وصناعة النسيج وصناعة الحديد وكل هذا نجد طبقة النبلاء وطبقات البرجوازية تزداد.. وبدأ النمو الاقتصادي يظهر مع الثورة الصناعية كما تناقلت التجارة البحرية وهي تجارة دولية وبدأت مرحلة البرلمانات ومجلس العموم ومجلس الشيوخ والنقابات في فرنسا منذ عام 1760 ولم يكن فصل بين السلطات القضائية والدولة/ وكانت الدولة راعية للدين (الاستبداد المستنير) أي بزوغ جديد للروح العسكرية والجيوش والجنود المرتزقة (المجرمون المعفو عنهم) وازدادت أساطيل الحروب. وبدأ التقدم التقني.

وأفضى بطرس الأول إلى إلغاء البطريركية..

بدأت الحروب بين الدول ـ أي استيلاء على مناطق كثيرة في العالم ـ وأفلت الإمبراطورية العثمانية على أيدي الاستعماريين الإنكليزي والفرنسي فدام من 1689 إلى 1815 وكذا حرب الاستقلال الأمريكية ـ والحروب بين فرنسا وبريطانيا.

فبدأ التعليم في هذه المرحلة ينتشر بشكل كبير في القرى والمدن وتشييد المدارس التعليمية مع ظهور نظريات علمية لنيوتن وهيوم ولافوازيه وفولتير.

وجرى الصراع بين الإكليروس وبين العلماء.. وظهر لابلاس يعطي لأول مرة وصفاً للكون لم يجعل فيه أي مكان لله، وقام لوكريس يضع مفهوماً لكون ناجم عن اتحاد طارئ للذرات، مفهوماً يحذف ضرورة وجود إله خالق..

والحاصل أنه بدأ الهجوم على الاستبداد المستنير وشاعت أفكار الديمقراطية وانتشرت بحوث فلسفية في حق الملكية منها فلسفة جان جاك روسو الذي ألف كتاباً في العقد الاجتماعي، وآميل في التربية فكان لهذه

الفلسفة على صعيد الأفكار السياسية أن تدعو إلى تأسيس مجتمع مثالي أكثر بساطة وأكثر بدائية وأقل زيفاً.

كما ظهرت نظريات الميكافيلية (الغاية تبرر الوسيلة) ولمونتسكيو في روح القوانين، وظهرت نظريات كوبرنيك المتعلقة بمركز الشمس فكانت بداية العودة إلى الدين الطبيعي مع بداية الصراع بين الفلاسفة والإكليروس بل معظم المفكرين في هذه النهضة. والدعوة للعودة إلى العقائد البسيطة محررة من الاستعلاء الاكليريكيين وكل المذاهب التي اخترعوها.. فظهر في بريطانيا صاموئيل كلارك وتوماس ووليستون وماثيو تيندال يدعون إلى هذا المذهب والدين الطبيعي منهم جوزيف بريستلي عضو فرقة الموحدين الذي ألف كتاب تاريخ فساد المسيحية مع ظهور الماسونية التي كانت على وفاق مع تيارات الفكر العلماني الكبرى.

كما جاءت الحفريات الأثرية بإنسان نياتدال وإنسان هومبورغ وظهرت نظريات دارون «البقاء للأصلح».

ظهرت الأصولية في بريطانيا والحركات الصوفية الجانسنية وظهر عدم التسامح الديني بين البروتستانتية والكاثوليكية (البابا) وتمّ إلغاء الجمعية اليسوعية بعد تنامي ثورات الكاثوليك وعداواتهم للبروتستانت، إذ إنهم طُرِدُوا من البرتغال مع بداية العداء الشعبي حيال الجمعية فاضطر البابا للقيام بتنازلات هامة للسلطة الزمنية في أوروبا الكاثوليكية وجرى تحجيم للسلطات الكنسية في كل أوروبا.

كما قامت نزاعات مع الأرثوذكسية في بلاد الصرب والبلغار واضْطُهِدَ اليهودُ وحُرِمُوا من مدن كثيرة منها فيينا والعديد من مدن ألمانيا.

وانتشرت البعثات التبشيرية في الولايات المتحدة.

وانتشرت الحركة البرجوازية التي تريد أن تبقي الشعب في ظلمات الجهل دون تعليم وجرى الصراع حول العقائد الدينية والعلوم والعقلانية.

ويعتبر عصر التغيير والتطور فلسفة التنوير.

وظهرت النظريات الاقتصادية والتنظيم المصرفي وتوسع الفكر الاقتصادي للبنوك وظهر آدم سميث (ثروة الأمم).

وسجلت سنة 1780 بداية التاريخ الحديث لأوروبا.

ثم ظهرت المبادئ الماركسية التي كانت تنظم ثورة البروليتاريا في بريطانيا فظهرت في روسيا على يد لينين وستالين.

كما ظهرت مبادئ الاقتصاد الليبرالي الرأسمالي في كل أوروبا.

وظهرت الوجودية على يد سارتر وبعد ذلك ظهرت الروتاري نوادي اجتماعية والليونز والهبيين، وشهود يهوا، وعباد الشيطان.

وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية بدأت مرحلة الاكتشافات العلمية والثورة التقنية، ثم المعلوماتية في القرن العشرين وظن الكثير من العرب الذين درسوا في أوروبا أن سبب نهضتهم عندما فصلوا بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية لأن الدين كان يتعارض مع العلم والعقل والنهضة خوفاً من تناقص سلطة الكنيسة وانتهت محاكم التفتيش التي كانت تحاكم العلماء الذين يأتون بنظرية يعتقد البابا والإكليروس أنها هرطقة، وتعادي الدين المسيحي بنظرياته المعتمدة على التوراة والعهد الجديد.

وإن نظريات دارون والأفلاطونية الحديثة كونت أعداداً هائلة من الملحدين الذين رفضوا الكنيسة نهائياً. بينما لا نجد أي عداء بين الدين الإسلامي والعلم.

وهنتنغتون يعتبر الحضارة الغربية بدأت من القرن الثامن الميلادي ويخالف العديد ممن اعتبروا صعود الحضارة الغربية عندما توقف الزحف العثماني نحو فيينا عام 1693.

أثر الحضارة العربية والإسلامية في الحضارة الغربية

لما بلغ الصراع بين الدين والعلم في أوروبا مبلغاً كاد يطيح العلم بالدين ورجاله ويصرف وجوه الناس عنهم، قامت الكنيسة بالعمل على استمرار سيطرتها على المؤسسات العلمية وكبح جماح العلماء وملاحقتهم فأقامت محاكم التفتيش لإنهاء الهرطقة العلمية المخالفة للكنيسة حيث كانت أوروبا تعاني من الاستبداد والحروب الأهلية والجهل ومظاهر التخلف.

أما الحضارة العربية والإسلامية فقد كانت في أوجها وبعد محمد ﷺ بقرن ونصف ترجم أحفاد القبائل العربية وتمثلوا جميع الأعمال العلمية الكبرى للعصور القديمة وصنعوا لغة علمية دولية تكيفت بوجه خاص مع الرياضيات وأنشأوا في بغداد مكتبة ومركزاً للبحوث كان الوحيد في العالم، وأنتجوا علماء في الفلك، وعلماء في شؤون الطبيعة، وأطباء ورياضيين من الطراز الأول (سر تأقلم العرب)[1].

وبعد ألف عام من التردد استطاع المسيحيون أن يكتشفوا ويترجموا ما كان لدى هؤلاء العرب من العلم القديم الذي كانوا قد احتقروه ولم يأبهوا به، فصدرت كتب حول النضوج المبكر للتطور العلمي لدى المسلمين ككتاب «موجز تاريخ العرب»[2] وكتاب العلم العربي، بينما يتنازع العلماء في الغرب حول أهمية العلم فيقول أوغسطينوس مستمداً من كلمة القديس بولس الشهيرة «العلم ينفخ صاحبه»، والعالم الإسلامي ورث العلم اليوناني وراثة أسرع.

---

(1) كتاب الكنيسة والعلم لجورج مينوا ص 109-110. أيضاً انظر (الإسلام في فجرعظمته) د. فلاماريون 1973.

(2) قام بترجمته أرنولد وهيوم.

وقد ذكر جورج مينوا فقال: تمت ترجمة الآثار اليونانية عن اللغة العربية إلى اللاتينية مع تعاون أعداء المسلمين"[1].

ورغم كل ذلك نجد حقدهم يظهر وفي ذلك يقول جورج مينوا: لابد لنا أن نستذكر الأحقاد التي أثارها الإسلام في الغرب لكي ندرك مدى النفور والاشمئزاز الذي ما كان المسيحيون يترددون في كبحه وهم يذهبون ليتلقوا العلوم لدى العرب. فقد روي أن جيربرت كان يقيم في مدينة قرطبة، فأغرى فتاة مسلمة لكي يستحوذ بفضلها على كتاب (العلم الملعون) الذي كان يشتمل على جميع ما يقدر المرء أن يعرفه.

وفي بداية رحلات الرهبان إلى إسبانيا (الأندلس) التقوا بالمترجم لكتاب عربي حول الاسطرلاب وهو سيونيفر دلونيت أحد رجال كاتدرائية برشلونة وقد قال بيير المبجّل: من الهام ألا نتهاون ليسبقنا العرب على الصعيد العلمي، ويترتب علينا أن نعرفهم ونعرف عقيدتهم من الداخل لكي نحاربها بالمزيد من الفاعلية وقد قاموا بترجمة ونقل بعض الكتب العربية للفارابي وتهافت الفلاسفة للغزالي وكتب عن النفس لابن سينا وغيرها...

وكان همهم أن يُخفوا عن الأعداء كنوز الفكر القديم الذي استحوذوا عليه، وبدأوا يأخذون المخطوطات لكي يصلوا إلى تجريد الوثنيين العرب من قسط الحقيقة الذي يحوزونه"[2].

وقد ألّف لينور وبنري كتاباً في عمليات حسابية، أسهم هذا الكتاب في دخول الحساب العربي ربوع أوروبا. وكانوا يعتبرونه مخجلاً أن يكون الوثنيون

---

(1) كتاب الكنيسة والعلم لجورج مينوا ص 194.

(2) جورج مينوا، ص 217.

والعرب أوسع علماً من المسيحيين الذين يلبثون عاجزين عن شرح الظواهر الطبيعية.

وقاموا بالتوفيق بين النظرية البطليموسية حول مبادرة الاعتدالين (الربيع والخريف) وبين النظرية العربية حول الولوج والانسحاب.

قال أفلاطون التريفولي: على نقيض ذلك ليس لرجالنا أي مؤلف وبمثابة كتب، ليس لديهم سوى صنوف من الجنون والأحلام وأساطير نسوة هرمان[1].

وقال بير المبجل: يجب أن نحترم الدين الإسلامي ونعترف بصفات مسلمي العرب وفضائلهم وبرغبتهم المخلصة في الإقناع بدل الإبادة التي أعلنها برنارد، وقد صرح اليكسندرو كويري: أن العرب هم الذين كانوا معلمي الغرب اللاتيني ومربيه، وقال: إن الحضارة الإسلامية سوف تتطور بسرعة شديدة تحت تأثير ردة فعل عنيفة من النزعة الإسلامية الأرثوذوكسية وهي التي كانت تلوم بحق الفلسفة على مواقفها المناهضة للدين وأيضاً من جراء صدمة الاجتياحات التركية والمغولية التي صيرت الإسلام ديناً متعصباً.

قالت زيغريد هونكه في كتابها العقيدة والمعرفة[2]: إن العرب كانوا هم الوسطاء للتراث اليوناني.. إن العرب توسطوا لأوروبا في نقل التراث القديم بعد أن أنقذوا من النسيان والضياع ما تبقى من الأعمال التي تعرضت للدمار بمرور القرون وبسبب التعصب المسيحي، وترجمات من قبل أكاديميات الترجمة التي أسسها الخلفاء في بغداد بينما بيزنطة قامت بعمليات الإبادة المنتظمة المتكررة وبتحريض المتعصبين المسيحيين بينما نجد التسامح من القائد

---

(1) مقدمة ترجمته لكتاب التباني عن عالم النجوم.

(2) دار قتيبة للطباعة والنشر ـ دمشق ـ ص102.

عمرو بن العاص مع المسيحيين وهذا سبب من أسباب نهضتهم ثم قالت: كان العرب بسبب مناهج العلم العربية أكثر من مجرد وسطاء للتراث اليوناني، أكثر من سعاة بريد للعالم القديم.

بل كانت بصماتهم واضحة وليس كمن أخذوا من المصريين والبابليين كمتلقين وهم اليونان وتقول وبمساندة من نظام معقد للري والتصريف والسدود والقنوات حَوَّلَ العرب الطمي (في منطقة شط العرب) إلى أكبر مخزن للحبوب والتمور في العالم.

وتكلمت هذه المستشرقة عن الكِندي وأثره في كل ما ترجم، وثابت بن قرة وابن النفيس وابن البيطار، وقد أجرى الفلكي الكبير السرقلي مشاهدة ليبرهن على تغير بُعْد الأرض والشمس التي اعتبرها اليونانيون ثابتة لتقدم نقاط تعادل الليل والنهار.

فقالت: إنّ العرب قد تفوقوا بالخطوة الحاسمة على البابليين واليونانيين والرومان فجعلوا الأرقام المستخدمة لمجرد الاطلاع بواسطة الصفر أداة طيعة ومنظمة وسهلة الاستعمال للتعداد العملي والرياضيات. إضافة إلى ما ألفه الخوارزمي في الرياضيات فأعطى للصفر دوراً حسابياً كبيراً.

إنجازات العرب الفكرية الذاتية:

تقول زيغريد: إلى جانب الابتكارات والاكتشافات الفردية التي لا حصر لها في سائر العلوم التجريبية التي أنكرها الكتّاب الأوروبيون، ونسب بعضها إلى غيرهم نذكر منها بعضها فيما يلي.

1 - النظام العددي والحسابي والبحث التجريبي في الطبيعة لجابر بن حيان، وكذا البصريات وتأسيس علم الكيمياء والمغناطيس الذي استخدم لتحديد الجهات عند البحارة.

وقد قالت زيغريد ومن الواجب على من يكن العداء للعرب أن يعترف لهم بمكانتهم رغم أنفه، وقالت: إنّ البيروني هو الذي أثبت خطأ بطليموس وأثبت دوران الأرض حول محورها في اليوم مرة ومرة تنتقل منها حول الشمس في عام. وإنّ ابن رشد هو الذي اكتشف البقع الشمسية. وكولومبوس وضع أطلس علماء العرب بدلاً من خريطة بطليموس. والإدريسي قد شبه له مؤلف جامع يقع في سبعين خريطة. والمسعودي وابن سينا وعلي بن عباس وابن زخر وغيرهم.

وتابعت تقول: إن العرب هم الذين أدخلوا النور والنظام على أعمال الأقدمين التي كان يكتنفها الغموض في وصفها المتفكك وهذه شهادة باعتراف جماعي من المتخصصين في الطب وفي ذلك يقول أجريبانيتيس هَامْ: لقد أصبح العرب مشهورين في الطب إلى درجة اعتبرهم الناس معها مبتكرين لهذا الفن.

وقالت زيغريد هونكه في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب:

في بحث خاص عن المكتبات في بغداد أكثر من مائة مكتبة. مكتبة في النجف تحوي على 40 ألف مجلد وجمع نصير الدين الطوسي المرصدة في مراغه 400000 مخطوطة .

ويوجد أمير عربي في الجنوب احتوت مكتبته 100000 مجلد.

وحوت مكتبة الخليفة العزيز في مكة على 1.600.000 مجلد.

وقد افتتح الحكم الثاني عام 965 م في قرطبة 27 مدرسة لأبناء الفقراء .

قال زيغلاريد: قدم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت للغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها.

وقد أكد العديد من علماء الغرب تـأثرهم بفلـسفة ابـن رشـد والغـزالي والكندي وابن سينا والفارابي وغيرهم.

وعندما سرق الغرب أثناء الاستعمار الغربي للدولة العربية والإسـلامية ما يزيد عن (3000000) من المخطوطات العربية والإسلامية وهي موجودة في باريس وبرلين وليدن وأكسفورد ونيويورك فإن هذا كله شاهد كبير على أثر العرب والمسلمين على الحضارة الأوروبية الحديثة.

والذي يريد المزيد فعليه الاطلاع على قصة الحضارة لديورانت.

نظرية المعرفة الإسلامية

المعرفة مرتكز فكري وفلسفي حول العلم الحقيقي واليقيني المسلم به تسليماً مطلقاً، وأول محاولة مستقلة لبحث موضوع المعرفة هي تلك المحاولة التي قام بها جون لوك في كتابه (مقالة في العقل البشري) وظهر مصطلح المعرفة عام 1832 حيث أشار إليه راينهولد في كتابه (نظرية ملكة المعرفة الإنسانية الميتافيزيقيا) والمعرفة أعلى وظيفة للإنسان في الوجود، وهل الاعتقاد والإيمان والدين إلا معرفة وأقسامها المعرفة الحسية، والمعرفة الفعلية، والمعرفة اللدنية، والمعرفة النبوية عن طريق الوحي.

وعرفها الجرجاني[1] العلم والمعرفة والإدراك عند فلاسفة المسلمين معناها واحد إذ هي (حصول صورة الشيء في العقل).

وعرفها القاضي الباقلاني (معرفة المعلوم على ما هو عليه أو على ما هو به وربما قال هو المعرفة)[2].

والغزالي عرف المعرفة بأنها (العلم الذي لا يقبل الشك إذ كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته)[3] وهو انتعاش النفس بصورة العالم حتى تصير عالماً مثله.

وأعلى هذه الدرجات هي التي تسمى المعرفة الحقيقية الواصلة إلى اليقين وتمر المعرفة عند الغزالي في مراحل ودرجات:

1 ـ مرحلة الشك.

---

(1) التعريفات ص 135.

(2) المغني، القاضي عبد الجبار ح 2 ص 18.

(3) الغزالي، ميزان العمل ص 175.

2 ـ مرحلة الظن.

3 ـ مرحلة الاعتقاد.

4 ـ مرحلة اليقين أو المعرفة الحقيقية.

وقال الرازي[1] المعرفة بأنها الاعتقاد الجازم سواءً أكان اعتقاداً تقليدياً أو كان علماً صادراً عن دليل، والمعرفة مسبوقة بجهل أو إدراك مسبوق بجهل والعلم كذلك، وكذلك يقال للحق سبحانه وتعالى: عالم ولا يقال له عارف وأبو حيان التوحيدي[2] يقول (إن المعرفة أخص بالمحسوسات والمعاني الجزئية في حين أن العلم أخص بالمقبولات والمعاني الكلية).

والشعور عند علماء النفس (إدراك المرء لذاته أو لأحواله وأفعاله، إدراكاً مباشراً وهو أساس كل معرفة[3] والشعور أنواع: التلقائي والتأملي والشعور الجمعي وقد وردت كلمة الشعور بمعنى العلم بالقرآن في ثلاثة وعشرين موضعاً قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾البقرة 154.

وقال أيضاً: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة 12.

والدراية هي المعرفة الحاصلة بضرب من الجيل فهي تقديم المقدمات واستعمال الروية، والروية هي ما كان من المعرفة بعد فكر كثير[4].

والمعرفة أطلقت في ألفاظ كثيرة منها (البديهية وهي المعرفة الحاصلة ابتداءً في النفس لا بسبب الفكر) والكياسة وهي ما يدل على تمكن النفس

---

(1) مفاتيح ص 167.

(2) المقابسات رقم 7 ص 272.

(3) المعجم الفلسفي د. جميل صليبا ج 1 ص 703.

(4) الرازي، مفاتيح الطيب ج 1 ص 283.

واستنباط ما هو أنفع. والخبرة: وهي معرفة يتوصل إليها بطريق التجربة وكذلك الرأي والفراسة. والمراد بنظرية المعرفة (هي دراسة منهجية منظمة لقضية العلم أو مسألة المعرفة بدراسة ماهية المعرفة وإمكانها وطبيعتها وطرق الوصول إليها ومهمتها وحدودها) وفي المصطلح اليوناني (الإبستمولوجيا E-epistemology) وبحث ديكارت في نظرية فطرية المعرفة.

وأبحاث المعرفة الرئيسة هي (إمكان المعرفة ـ مصادر المعرفة ـ طبيعة المعرفة ـ قيمة المعرفة وحدودها).

فنظرية المعرفة بحث يتضمن البحث عن الحقيقة أي عن الوسائل المختلفة التي يتخذها الإنسان ليصل إلى الحقيقة، وتحديد مصادرها وطبيعتها وتحديد طابعها المثالي أو الواقعي أو المادي.

القرآن ونظرية المعرفة:

القرآن منهج رباني متكامل، شامل وهو نسيج وحده، ولا يفيه حقه وصفه بالنظرية، بل نريد أن نصل إلى صياغة نظرية المعرفة في القرآن.

طرق المعرفة في القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ السجدة 9 قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل 78.

ومصدر المعرفة القرآنية هو الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق 1 ـ 5.

إذن ذكر القرآن طرق المعرفة ووسائلها من حواس وعقل أو قلب وأضاف طريقاً فريداً خاص به وهو طريق الوحي والإلهام.

دعوة القرآن للتأمل والتفكير وتوجيه النظر إلى الكون وإلى السموات العلا وإلى النفس ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾الأعراف 185.

ويقرر القرآن نسبة المعرفة عند الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يوسف 76.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء 85.

ويجعل القرآن الحق معيار المعرفة وليس الظن والشك قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾النجم 28.

وظهرت عبر تاريخ الفكر العالمي وخاصة في الفكر اليوناني فرقة سمت نفسها فرقة اللاأدريين وهي فرقة من فرق الشك في الوصول إلى المعرفة اليقينية وهي تقول بالتوقف في الحكم الصادر من الحس والعقل للوصول إلى المعرفة، وفرقة العنادية وهم يعاندون ويدعون أنهم جازمون بأن لا موجود أصلاً.

وفرقة الغيرية:

وهم القائلون بأن حقائق الأشياء تابعة للاعتقادات وأن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً فالحقيقة عندك هي ما تتراءى لك والحقيقة عندي هي ما تتراءى لي فلا يوجد مقياس كلي للحقيقة.

فهم يطعنون بالحس والبديهيات العقلية كما أن العلية ممنوعة والشك أنواع:

شك المقلدة:

وهم يشكون بكل البراهين العقلية المتولدة من الحواس ولا يملك المعرفة اليقينية إلا الإمام المعصوم.

والشك الإيماني:

وغرضه ليس الشك وإنما الإيمان ويقول القديس إنزيلم: أنا لا أعرف لا أعتقد بل أعتقد أعرف لأنني لو لم أعتقد لما أمكنني أن أعرف فقال كانت إنه قضى في قوله على المعرفة لكي يفسح المجال للاعتقاد فمثل هذا الشك دوافعه إيمانية هي بالمفهوم المسيحي أن يعرف المخلص في الكنيسة كما أن أفلاطون قدم مجموعة من الأدلة تبطل كون المحسوسات مصدراً وحيداً للمعرفة.

الشك المنهجي المعرفي عند الغزالي:

جاول عن طريق الفلسفة الوصول إلى الحقيقة المطلقة ودرس الفلسفة وألف كتاباً (مقاصد الفلاسفة) ثم ثار عليها وألف كتاباً سماه (تهافت الفلاسفة) ومن ثم توصل إلى التصوف وتوصل إلى الحقيقة بعد مسيرة من الشك والتمحيص المنهجي حتى وصل إلى العلم اليقيني وهو (العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط إلى المعرفة، ولا يتسع الوهم لتقدير ذلك).

ثم توصل إلى المعرفة عن طريق نور قذفه الله تعالى في الصدر فقيل عنه (الشك المطلق عند الغزالي قد أفضى إلى حال من الإشراق الصوفي)[1].

ديكارت والشك المنهجي:

شك ديكارت في جميع الأشياء التي تأتيه عن طريق الحواس وبواسطتها ولكنه مع شكه هذا فهو لا يشك بأنه مفكر لأن الشك فكر.

---

(1) د. عثمان أمين، ديكارت ط 6 الأنجلو ص 29.

انطلق ديكارت واستدل على المعرفة بالوجود، واليقين الفلسفي عنده أن ينطلق من الذات العارفة إلى الذات الموجودة أو من الذاتية إلى الموضوعية ومن الفكر إلى الوجود (أنا أفكر فأنا موجود).

ورتب الأفكار الإنسانية إلى ثلاث طوائف:

الأولى أفكار غريزية أو فطرية وهي الأفكار الطبيعية في الإنسان التي تبدو في غاية الوضوح والجلاء كفكرة الله والحركة والامتداد والنفس.

الثانية أفكار غامضة تحدث في الفكر بمناسبة حركات واردة على الحواس من الخارج وليست لها أصالة في الفكر الإنساني.

الثالثة أفكار مختلطة وهي الأفكار التي يصطنعها الإنسان ويركبها في أفكاره الأخرى كصورة إنسان له رأسان.

وأخذ ديكارت من الطائفة الأولى فكرة الله وقرر أنها حقيقة موضوعية تفوق الإنسان وينطلق من إثبات نفسه أو وجوده عن طريق فكره إلى الله مباشرة وبغير واسطة.

وإن طلب المعرفة مركوز في فطرة الإنسان، منذ أن خلقه الله عز وجل، وبدليل وجود وسائل أو كفايات المعرفة في نفسه وفي النظر العقلي والإدراك الحسي والتقدير الوجداني للجمال والجلال والحق والخير.

وجعل الأبيقوريون الإحساس هو المصدر الأول لكل معرفة والمعيار الأول لكل حقيقة ممكنة ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾الإسراء 36.

الماركسية تعتمد على مبدأ (إنه يمكن معرفة العالم ومعرفة قوانينه تماماً وإن معرفتنا لقوانين الطبيعة التي يبرهن على صحتها التجربة والتطبيق العلمي هي معرفة صحيحة لها معنى الحقيقة الموضوعية)[1].

---

(1) أصول الفلسفة الماركسية ص 296.

فعند الماركسيين تتولد المعرفة في الانطلاق من الواقع الخارجي إلى الذات العارفة أو أن الذهن أو الفكر هو انعكاس للواقع المادي. يقول لينين (إن جدلية الأشياء هي التي تولد جدلية الأفكار وليس العكس) وهي عكس الهيجلية التي تعكس الأفكار على الواقع المادي، والمذهب العقلي يؤكد على أن العقل الإنساني قادر بلا مساعدة خارجية على تحصيل الحقيقة الموضوعية وهو رد على فريق الشك.

وسقراط رد عليهم بأن أقام العلم والحكم بإمكانه مستنداً إلى التصور الكلي وبنى نظريته في إمكان المعرفة على أن النفس الإنسانية إن هي إلا صورة من العلم الإلهي.

وبذلك أعطى للعقل أعلى درجة من موضوعية الإدراكات الحسية وهذا يشمل التفكير اليوناني وتفكير العصور الوسطى بما فيها من شروح الإسلاميين والمسيحيين واليهود وإنما هي مثالية تقر بموضوعية الإدراكات العقلية وأنها معرفة شاملة للعالم الطبيعي وما وراء العالم الطبيعي، فالعقل له سلطان لا يقف شيء في وجهه.

وموقف القرآن من إمكانية المعرفة تبدو بتكريم الإنسان قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء 70.

وكيف بدأ الوحي القرآني بـ (اقرأ) (والإنسان يرد إلى أرذل العمر كيلا يعلم من بعد علم شيئاً) وامتحان آدم واختباره في مسألة العلم إذ علمه الله تعالى الأسماء كلها، والتكليف علم ومسؤولية وهي الأمانة مع تسخير الله الكون للإنسان، ومنها المعرفة بكل وسائلها وأدواتها ولكنها محدودة فتحتاج

إلى الوحي للاستدلال على عالم الغيب كما أن القرآن جاء بأدلة عقلية لإثبات عالم الغيب وضرب أمثلة من الطبيعة وكيف يحييها الله بعد أن تصبح جامدة كالشجر والنبات.

وعلماء الكلام حاولوا الوصول إلى الحقيقة التي هي ثمرة التوفيق بين مصدر الفلسفة اليونانية من جهة والدين من جهة أخرى، وطريق العقل من جهة وطريق الوحي من جهة أخرى فخرجوا بحقيقة الدين عن طبيعته وعقدوا مشكلة الفلسفة بما لا يتناسب ومنهجها.

وحاول علماء الكلام الدفاع عن الشريعة بمقدمات فلسفية أخذوها عن الفلسفات اليونانية وغيرها وبهذا اعتمدوا على العقل أكثر من النقل بإقامة الحجج لدفع شبهة أهل البدع.

ومهمة القرآن صياغة المعرفة الإنسانية على اليقين وتبدأ بالقراءة والعلم وتبدأ المعرفة بمعرفة الله عز وجل ثم معرفة كتابه ثم معرفة رسله ثم المعرفة الشاملة بالنظر والاستدلال والتجربة والتعلم لكل مناحي المعرفة العلمية والنظرية والمنافع الدنيوية كالطب والرياضيات والفلك.

واعتمدت المعرفة الإسلامية القرآنية على قاعدة الإخلاص في حب الحقيقة والبحث عنها والتجرد عن الأهواء مع التعامل الواقعي مع كل القضايا الإنسانية وليس التعامل الخيالي باستعمال منطق العقل، وقوانين الفطرة السليمة معتمدة على مقدمات وشواهد علمية صحيحة للبرهان والحكم والوصول إلى اليقين وقد عرف الجرجاني الإتقان (العلم بحقيقة الشيء بعد النظر والاستدلال)[1] ودرجات اليقين: علم اليقين قال تعالى:

---

(1) التعريفات، الجرجاني ص 34.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾التكاثر 5 ـ 6. وعـين اليقـين ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾التكاثر 7 ثم حـق اليقـين ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الواقعة 50 ـ 51.

الحملة على العرب والمسلمين
آلياتها - وسائلها - أسبابها - أنواعها

إنّ الإسلام عقيدة ذات ظلال في واقع الحياة الإنسانية، ومنهج حياة وفكر يتجسد في واقع اجتماعي تتمثله الأكثرية والفردية المؤمنة به، وعندما انبثقت شمس الإسلام الذي قدر له أن يهز العالم كله، انصهر في وجدان كل مؤمن ملتزم ولذلك قالت ملكة الدانمارك مارغريت الثالثة: من الضروري أخذ التحدي الذي يشكله الإسلام على محمل الجد على الصعيد المحلي في مملكتها والعالم ثم قالت: يجب التصدي للإسلام وبدأت شمس الإسلام تبزغ وحطت كل إشعاعاتها الفكرية والاجتماعية في الجزيرة العربية ثم بدأ التطلع إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين ووادي النيل وبعد معارك القادسية واليرموك فتحت الشام والعراق وبعد معارك مع الفرس فتحت المناطق واستمر الفتح في مصر والمغرب وبلاد الأندلس غرباً حتى بواتيه قرب باريس.

وامتدت الفتوحات شرقاً حتى الصين، وفتحت بلاد الهند والسند وقامت الخلافة الراشدية ثم الأموية ومن ثم الخلافة العباسية وازدهرت حضارة العالم العربي والإسلامي وصارت قوة يحسب لها كل حساب على امتداد العالم، حتى شارلمان كان يرسل الهدايا إلى هارون الرشيد، وإن انتصارات الإسلام وتألقه استمر حتى القرن الخامس الهجري الموافق للقرن العاشر ثم بدأت تتمزق هذه الأمة إلى دويلات؛ فالأدارسة في المغرب والفاطميون في مصر والسلاجقة والبويهيون في المشرق.

كانت الحملة على الإسلام قد بدأت من مكة وفي المدينة من كفار قـريش ومن اليهود وانتصر الإسلام ووحد هذه الجزيرة واستمرت الفتوحـات حتـى صارت دويـلات وبـدأت الحملـة الـشرسة والتعـاون والتحالفـات المغوليـة الصليبية[1] منذ أن تخلت الأمة الإسلامية عن وحدتها، وعن أخلاق المبادرة إلى الدعوة، تمزقت وتطبعت بروح الدفاع، فكان أن تعرضت إلى كثير مـن أعـمال العدوان كان أشدها وأطولها العدوان الصليبي، الذي ما برح قائماً عـلى درجـة عالية من الشراسة والحقد والوحشية، منذ ما يزيد على تسعة قرون من الزمن قال الله تعـــالى ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾التوبة 33. وقال أيـضاً: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾الصف 61.

ولأهمية الحروب الصليبية اهتم الأستاذ الدكتور سهيل زكار خلال أربعـة عقود من الزمن بدراسة موضوع الحروب الصليبية وخطورتها وآثارهـا الـسلبية على هذه الأمة، فقد ألقت ظلالها خلال قرنين من الزمن وكلها حـروب وتهجـير ومآسٍ وخاصة بعد تعاون المغول مع الشرق حيـث حطمـوا كـل آثـار تمـت إلى حضارة عربية إسـلامية بتـدمير بغـداد حتـى سـقطوا في عـين جـالوت وبقيـت الحروب الصليبية حتى سقطت مؤقتاً بعد معركة حطين وفتحت القدس بعـد أن شكل جيل كبير صنع النصر واستعيدت القدس من الصليبيين.

وقد قاده هذا التعمق باللاهوت المسيحي ومـن ثـم بالتـاريخ اليهـودي عبر العصور إلى إخراج الموسوعة الشامية في تـاريخ الحـروب الـصليبية بـما لا يزيد عن أربعين ألـف صـحيفة وقـد ضـمت هـذه الموسـوعة كـل مـا يتعلـق

---

(1) نزهة المقلتين في أخبار الدولتين.

بالحملات الصليبية من كل اللغات التي توصل إليها من اللغة العربية واللاتينية، والفرنسية، والإغريقية والسريانية والأرمنية، والصينية والفارسية والمغولية. وهذه الحملة لم تنته حتى الآن.

ويقول البروفسور فرانسيس بويل الأستاذ بجامعة النيوي (إن الحرب على الإرهاب هي امتداد للحروب الصليبية وغاياتها الحصول على ثروات الشعوب في النفط والغاز لإيقاف سبل نهضتها) ويقول الدكتور حسن بكر أستاذ العلوم السياسية بجامعة أسيوط (إن الحملة الصليبية الحادية عشرة المتجهة الآن إلى الشرق الأوسط قد استكملت كل معداتها وأولوياتها)[1].

والحملة الصليبية الجديدة هي انتقام لجنوده الصليبيين الذين هزموا في موقعة حطين وأخرجوا من أرض فلسطين.

وإن قيام دولة إسرائيل على أراضي فلسطين هي دراسة علمية بعد فشل أوروبا بعدة حملات صليبية للاستيلاء على القدس وبيت لحم والناصرة والتي تمثل كعبتهم فأوجدوا الكيان الصهيوني وجعلوها قاعدة عسكرية متقدمة للاستمرار في السيطرة على هذه المنطقة وتتزايد مصالحهم وتتنامى خططهم، وتكبر آمالهم للسيطرة على الشرق الأوسط الكبير.

وإن مساندة الكيان الصهيوني المستمر ـ القوة العسكرية ـ السلاح النووي ـ قرارات الأمم المتحدة المساندة، وحق الفيتو ضد كل قرار يضر بمصالح إسرائيل رغم كونها لا تنفذ قرارات للأمم المتحدة، فالمحافظون

---

(1) جريدة تشرين العدد (9231) 24 نيسان / 2005.

الجدد يدافعون عن إسرائيل حتى لا تدان أبداً وأنها هي الديمقراطية الوحيدة في المنطقة وهي التي يُمارس عليها الإرهاب.

الاستعمار والإرهاب:

بعد الثورة الفرنسية وإثر عصر التنوير صارت للدول الغربية حاجات كثيرة للوصول إلى العالم واحتلال أرضه، واستلاب خياراته والتجارة القسرية معه، واستخدام بعض الناس في المجتمعات الغربية فتم نشوء فكرة العبء العنصري الذي ساد منذ عصر التنوير والذي قام على أساسه مشروع الحداثة الغربية وهو الخطاب العنصري الذي ابتكر نظرية (**عبء الرجل الأبيض في تمدين الشعوب الغارقة في جهلها**) وهذا الشعار كان الغطاء الأيديولوجي لإضفاء الشرعية على الاستعمار، ومن ثم استعمرت البلاد العربية والإسلامية وكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح على يدي (فاسكودي غاما 1497) حيث أراد الوصول إلى جنوب شرقي آسيا للاحتلال والتبشير والاستيلاء على المواد الخام فيها من قبل البرتغال والإسبان ثم الإنكليز والإفرنسيين.

وكتبنا تمجد هذا الاكتشاف وتمدح هذا الإنجاز الذي في حقيقته هو الشروع بالاستعمار (والحقيقة هي الحرب ضد الإسلام والمسلمين).

واستمر الأمر حتى تحررت الجزائر ولم تتحرر فلسطين وها نحن نجد استعماراً جديدة تحت شعار جديد وهو (الحرب ضد الإرهاب) فاستعمرت واحتلت أفغانستان والعراق تحت غطاء إيديولوجي جديد حقوق الإنسان والديمقراطية والحقيقة هي تقسيم النفوذ والاستيلاء على النفط وحماية الدولة الربيبة لأمريكا وهي إسرائيل وإيجاد العدو الجديد الذي هو الإسلام وأقامت مجموعة كونفليلتس فورم (ملتقى النزاعات المشتعلة) في لندن مبادرة حوار

(الإسلام والغرب) لإيجاد المبررات لهذه الحروب المستمرة وإن التحليل الذي جاء به فريدها ليداي يحتوي على أسباب العداء بين الغرب والإسلام وهو:

1 ـ **العداء المتأصل بين الإسلام والغرب، والتدخل لغير مصلحة الشعوب الإسلامية والعربية وقال محمد أركون (أصبح المسلمون يشكلون في نظر الغرب خطراً لا يمكن احتماله أو القبول به)**[1].

وإنّ حقدهم وعداءهم يقود كما وضح بولكستاين في حواره مع محمد أركون قائلاً: إن معركة فيينا لم تنته إلا عام 1683 وينبغي أن لا ننسى ذلك، هذا يعني أنها اختتمت مرحلة ألف سنة كان فيها العالم الإسلامي أقوى من العالم الأوروبي ويقول (صحيح أن العالم الغربي قد انسحب من إسبانيا في نهاية المطاف ولكنه هيمن عليها مدة خمسة قرون).

والذي ينمي هذا العداء على الإسلام اليهود والمستشرقون وعلى رأسهم برنارد لويس وأرنست رينان وفوكويوما كما يؤمن اللوبي اليهودي والمحافظون الجدد وعلى رأسهم نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني واليهودي وولفويتز والكيلودي ريتشارد بيرل وفايت رامسفيلد أن الإسلام يتمتع بحصانة طبيعية ضد التطور والديمقراطية لذلك من الواجب تغييره واستبداله بمنظومة القيم الفكرية والثقافية الأمريكية وإيجاد مناهج دراسة تتخلى عن الخطاب الديني والسياسي المعادي لإسرائيل وشطب الآيات القرآنية التي تحض على الجهاد والاستشهاد ضد الاحتلال الإسرائيلي.

---

(1) ص 46 الإسلام والغرب وأوروبا.

2 - الغرب يحاول تقسيم العالم العربي الإسلامي وتجزئته والقضاء على بوادر أي وحدة:

من جراء الحقد الذي تنامى في الغرب عبر السنين الطويلة، وبعد الاستعمار الذي سيطر على كل العالم العربي والإسلامي من المشرق إلى المغرب وامتصاص خيراته وتجهيله، وسرقة كل المخطوطات، والنفائس من كل الأوابد التاريخية واللوحات الفنية واضطر لإعطاء هذه الشعوب استقلالها ضمن منظومة الأمم المتحدة ترك فيها مجموعة من الذين تتلمذوا في مدارسه، وأخذوا أفكاره، وعاشوا متوجهين إلى الغرب كأنه قبلة فكرهم، ومنهج حياتهم وأملهم المنشود وسلمهم مقاليد العالم العربي والإسلامي ليبقى هذا العالم مجزءاً، منقسماً ـ مشرذماً لا يتحدون، ولا ينتظم عقدهم في وحدة تجمع شملهم وتنهض بهم، فهؤلاء كرسوا الإقليمية البغيضة، وشددوا على استمرارية الحدود والتجزئة وربطوا مصيرهم بأسيادهم الذين تخرجوا من جامعاتهم أمثال طه حسين، أحمد أمين، وسلامة موسى وعلي عبد الرازق وأدونيس وسلامة موسى وجرجي زيدان وفيليب حتي وآلاف الذين ملكوا المناصب التربوية والثقافية والاجتماعية في بلادنا العربية والإسلامية وعندما تحرر المجتمع من أمثال هؤلاء، وتنامت الصحوة الإسلامية وتزايد عدد المؤمنين بتراث هذه الأمة، وثوابتها بدأت تزداد الحملة لتمزيق هذه الأمة وإعادة التحكم بمصير من شذ عن طريقهم واهتم بوطنه وبدأ يفكر بالتصدي للعدوان الصهيوني ويساندون القضايا العربية والإسلامية والقضية المركزية قضية فلسطين، بدأت الحملة تزداد عليهم والمحاولة لإسقاط أنظمتهم وإقامة الحصار عليهم لإيقاف أي بوادر نهضة عندهم.

3 – المعاناة المستمرة في فلسطين والشيشان والبوسنة وكشمير والعراق:

هذه المعاناة المستمرة والمتزايدة لإلهاء العالم العربي والإسلامي في هذه القضايا وإشغالهم بمساعدة أهل هذه البلاد وبهذا يعملون لإيجاد مصارف لإمكاناتهم وقدراتهم فلا يحاولون النهضة والتخطيط لشعوبهم وإنما يحاولون تنمية القدرات العسكرية وشراء الأسلحة وبهذا يبعدونهم عن الوسائل والتخطيط للتنمية الشاملة في القضايا الثقافية والاقتصادية والعمرانية والاجتماعية كما يساعدون اليهود في الأرض المحتلة للاستمرار في القهر والظلم والعدوان، وإن استمرار المعاناة في العديد من هذه البلاد وإشعال نار الفتنة كل ذلك إلهاء عن قضاياها المصيرية وتشتت طاقاتها، وكما استمرت المقابر الجماعية في الحروب العرقية في البوسنة والهرسك وكوسوفو، وما هي كما صرح كبار القادة الصليبيين إلا استمرار للحروب الصليبية ولإزالة المسلمين من دول البلقان للكراهية المتوارثة منذ تواجد الجيوش التركية في أوروبا.

فهذه العداوة متجذرة، متأصلة في مناطق كثيرة لإيجاد المؤامرة الدائمة والمستمرة وإشعالها كلما خمدت نارها من الحقد الدفين والعداء ضد كل العرب وكل المسلمين.

4 – ازدواجية المعايير الخاصة بتطبيق مبادئ حقوق الإنسان وخاصة السلوك الإسرائيلي إزاء الشعب الفلسطيني:

تزايد العداء مع الغرب لتنامي الدفاع عن استمرارية وبقاء إسرائيل والدفاع عنها وظهور القرارات الأممية المساندة لإسرائيل مما ظهر عدوانية الغرب للعالم العربي والإسلامي ليجبروا العالم العربي والإسلامي على تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بالقوة، بينما إسرائيل وغيرها ترفض قرارات الأمم

المتحدة ولا يجبرها أحد على تنفيذها وهو الأمر الذي دعا إلى تنامي العداء بين الغرب والعالم العربي والعالم الإسلامي والعالم الثالث كله.

وهذه آثار الحملة الشاملة على العالم العربي والإسلامي وهي إحدى الطرق والأساليب التي يتجلّى فيها الظلم المبرمج ضد العالم العربي والإسلامي من قبل الغرب وقد قال جون ايسبوزيتو في وثائق التدخل في الوطن العربي: إن إقامة حاجز بشري قوي وغريب يحتل الجسر الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط لتشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة.

5 - فساد القيم الغربية التي تحاول تحكم قوتها التكنولوجيا والاتصالات أن تغزو بها المجال الثقافي العربي من خلال الفضائيات:

إن القيم الغربية تختلف عن القيم العربية والإسلامية من حيث الشرف والمروءة والعرض وهي مبادئ أساسية في ثقافتنا ولذا حاول الغرب نشر قيمهم الفاضحة عبر الفضائيات والاتصالات والسيديات وإلهاء الشباب بكل أنواع الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية، ومن مظاهر الفساد الذي ينمي العداء نشر الإباحية والمثلية الجنسية والخمر والمخدرات وكل أنواع الفواحش وإبعادهم عن كل البحوث العلمية والاكتشافات والمخابر لإيجاد جيل من الشباب لا يهتمّ بفنون المعرفة وبذلك يقضون على كل أمل في نهضة هذه الأمة وكل ذلك ببرمجة علمية ودراسات معمقة لاستمرار الجهل والمرض والفقر والجمود الاقتصادي وإسقاط كل الطرق المؤدية لتزايد ثقافة ومعارف هذه الأمم التي يناصبونها العداء ـ إنها حملة شرسة مدروسة مبرمجة لإيقاف

الإصلاح والنهضة والقوة والنماء والاستقرار في كل أرجاء العالم الثالث والعربي والإسلامي بخاصة.

6 – تزايد عدد موجات السياح الغربيين الذين يتصرفون بسلوكيات غير مقبولة إسلامياً:

هذه إحدى الطرق لإضعاف أجيال بكاملها وإلهائها عن قيمها وعقائدها وأفكارها وثوابتها.

فالخمرة والنساء والقمار والمخدرات تتزايد مع موجات السياحة الغربية المدروسة لتخلف هذه الأمة وإبعادها عن قيمها وثوابتها وهي إحدى الطرق التي تؤدي إلى إبعاد أجيال عديدة عن العلوم والمعرفة بكل أشكالها الحضارية وبهذا يستمرون في إضعاف كيان الأمة العربية والإسلامية، وعدم إيجاد الكوادر القادرة على التخطيط والتنظيم والنهضة والكفاية الذاتية.

7 – إشاعة الدول الغربية الرأسمالية لأنماط الاستهلاك الغربي وخاصة مع الشباب:

إن سمات الحضارة الغربية هي الإسراف والاستهلاك السلعي، وتنمية هذه المناحي في العالم العربي والإسلامي عبر الدعايات الفضائية والإعلامية تبعد الإنسان عن أهم طاقاته في الاقتصاد، وتنامي أنواع المعامل المنتشرة عبر العالم لمكدونالد وبيبسي كولا وسيفن آب وكل أنواع المشروبات المتعددة يمارس ضغطاً اجتماعياً استهلاكياً وهذا ما يؤدي إلى العداء بين الشعوب الضعيفة وبين الغرب الرأسمالي المتنامي في السيطرة والعولمة واقتصاد السوق وإبقاء العالم العربي والإسلامي مستهلكاً لمنتجاته، وسوقاً اقتصادياً لمعامله وبذلك تزداد البطالة والانحرافات والسرقة والمخدرات في بلادنا وهناك يجدون فرص العمل لكل كوادرهم المنتجة.

8 - دعم الدول الغربية للنظم الديكتاتورية في العالم العربي والإسلامي:

وهذا الدعم ليمارس الظلم والقهر والعدوان على شعبه وعلى النخب الفكرية والأدبية والعلمية حسب مخططات ترسم له للحفاظ على استمرارية البقاء في السلطة ومثال ذلك دعمهم لنظام ماركوس في الفليبين للإبقاء على قواعدهم العسكرية. ونظام العديد من الدول العربية والإسلامية التي تسير مع الركب الأمريكي والإنكليزي وآخر مثال ما يجري في أوزباكستان حيث يمارس الرئيس كل أنواع الظلم والقهر، بديكتاتورية بائسة والسجون مليئة ولا تسلط منظمات حقوق الإنسان الضوء على ما يجري بل إنها حاولت حجب قرارات حقوق الإنسان هذا العام وحذفت كل ما يتعلق بإسرائيل والتعذيب في العراق على أيدي الجنود الأمريكيين في غوانتانامو وسجن أبي غريب ومنع التداول لهذه القرارات من منظمات حقوق الإنسان للصفحات المتعلقة بالظلم القائم والعدوان الشامل على الدستور الأمريكي والقوانين الأمريكية رغم الانتهاكات المستمرة على العرب والمسلمين حيث بلغ عدد الانتهاكات حسب الإحصاءات عبر الإنترنت وما صرح به العديد على شاشات التلفزة ما يزيد عن خمسين ألف عدوان في أمريكا وحدها.

وكل هذا يولد الحقد والعداء وتزداد الحملة على العرب والمسلمين.

بل كانت كل هذه الأمور إحدى الأسباب لتنامي الحركات الإسلامية ذات الطابع العدواني ممارسة العنف رداً على العنف والإرهاب ضد الإرهاب والظلم ضد الظالم وهكذا نجد أن أسباب الحملة على العرب والمسلمين هي أسباب حقيقية قام بها الغرب فظلم وقهر واستبد وحكم وسرق مصادر الطاقة وسير الحكام العديدين في ركبه فقام بعض الشباب يسمون

بالإسلاميين السياسيين أو الأصوليين أو القاعدة أو الجهاديين لتحرير الإرادة العربية من الهيمنة الغربية والسيطرة وامتصاص دماء الشعوب على حساب التنمية لبلادهم وحضارتهم وقيمهم.

ورغم الصيحات المعتدلة التي خرجت عبر الغرب أمثال:

- جوب كوهين عمدة أمستردام اليهودي الذي قال: الإسلام حقيقته وجدت لتبقى في هولندا. وفي هذه المدينة، علينا أن نتعامل مع الإسلام كحقيقة لا أن يكون موضوعاً نحبه أو لا نحبه لذلك فالسؤال الحقيقي هو كيف يمكن التعايش وقبول بعضنا البعض.

- المؤامرة - الحروب الصليبية.

- الحملة على بلاد الشام عندما تفككت واضطربت قبيل الحملات الصليبية وخلالها لم تفد جميع المحاولات في وقف الغزو من الخارج وامتدت آثار هذا الضعف إلى عمق العالم العربي والإسلامي.

- وعندما أعيد توحيد بلاد الشام مع مصر وأعادوا النقاء الإسلامي في الدولة الزنكية ثم الأيوبية تمت لها الانتصارات.

- رئيس أركان الجيش الإسرائيلي موشيه يعلون يبشر على الأحداث في غزة وخان الشيخ ونابلس وآفاق المستقبل.

فقيل له: ألا تحسب للعالم العربي حساباً إزاء هذا العدوان.

قال: لم يعد هناك عالم عربي/ لم نعد نتكلم عن عالم عربي/ لا يوجد شيء اسمه تحالف عربي / هناك لاعبون لكل منهم مصلحته الخاصة والجميع يعرف أن في عالمنا الأحادي القطب كل من يريد أن يعتبر جزءاً من القرية الكبيرة عليه أن يرتبط بالولايات المتحدة وليس له أي حلف آخر.

الحملة على الإسلام
تاريخ ووقائع

أشرقت شمس الإسلام فوق بطاح مكة، لتبدد ظلام الجاهلية. فعالم يعيش بين إمبراطورية الفرس والرومان، والحروب المستمرة تضع أوزارها.. بقبائل تتناحر وتتقاتل مثل داحس والغبراء - ومعارك كثيرة بين الأوس والخزرج، وكأن القدر الإلهي قد هيأ هؤلاء في معارك حقيقية وتدريبات ومناورات واقعية ليصهر هذه الأمة في بوتقة القوة وتنصهر في صوجانات الحرب لأن الدعوة الجديدة ليس عندها الوقت الكافي لتدريب أمة كاملة ستحمل راية الإسلام إلى العالم كله... فتلك الحروب كانت مناورات حقيقية لإيجاد جيل من المجاهدين القادرين على الدفاع عن هذه الرسالة التي سيحملونها بأمانة وإخلاص وينقلونها إلى كل أنحاء العالم آنذاك.

بدأت **الحملة تاريخياً من كفار مكة** وحاولوا بكل إمكاناتهم التصدي لها وتمت الهجرة الأولى إلى الحبشة ثم الهجرة الثانية إليها ثم الهجرة إلى المدينة المنورة، واستمرت **الحملة الثانية** مع كفار قريش ومع يهود المدينة. ثم **الحملة الثالثة** وهي غزوة بدر ثم أحد ثم الخندق ثم صلح الحديبية حيث منع المسلمون من العمرة ثم فتح مكة... معركة حنين (مع هوازن) وغيرها من الغزوات والمعارك إلى أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة.

- ثم توالت الحروب في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأولها حروب الردة التي تصدى لها الصديق رضي الله عنه حتى أخمد نار الفتنة، وأمضى جيش أسامة..

ـ ثم جاء موعد معركة القادسية واليرموك... وتواصلت الفتوحات حتى بواتيه غرباً وسور الصين شرقاً في عهد الخلفاء الراشدين.

وكانت قد ظهرت بذور الفتنة بعد مقتل عمر بن الخطاب ثم عند قتل عثمان رضي الله عنه وبعدها تأججت ريح المؤامرات اليهودية فقيضوا لذلك عبد الله بن سبأ الذي كان يمثل رأس الفتنة في تحريض الجموع لقتل عثمان رضي الله عنه.

وتوالت الأحداث فنتج عن ذلك الانقسامات داخل الأمة والانشقاقات وخروج مجموعة من جيش علي بعد التحكيم أطلق عليهم اسم الخوارج.. ثم قتل الحسين رضي الله عنه فكان السبب المباشر في نشأة الشيعة... ومن هنا بدأت فكرة المعارضة تتبلور كفرق قتالية ضد الأمة...

وكان هذا كله مبرراً وعاملاً مناسباً لوجود الحملات والمؤامرات اليهودية والأجنبية على البلاد الإسلامية.

فكان على أثرها انتهاء فترة العصر الأموي وانشقاق دولة المروانيين في الأندلس، ثم كان من بعدها الخلافة العباسية التي لقيت عداء شديداً من الشيعة والخوارج والقرامطة والزنادقة والأدارسة والفاطميين في مصر فكانت أسباباً كفيلة لضعف الخلافة وعدم استمراريتها فكانت النتيجة سقوط بغداد عام 1258 وسقوط غرناطة عام 1492.

الحملة الصليبية والمغول والتتر:

أوصى شارلمان جنوده بأن لا تقبلوا من المسلمين إلا السيف أو العماد... (التعميد بالماء المقدس) ـ وكان هناك تعاون مع المغول من المشرق والصليبيين من الغرب الذي دفع أوربان الثاني لإعلان الحروب الصليبية ضد الإسلام

والمسلمين وقد كلف رينو سانوتو بوضع خطة لعزل مصر عن الشام وعن العرب والمسلمين وليس مدهشاً إذا قلت إن مشروع سانوتو قد جرى تنفيذه في كامب ديفيد.

طرد المسلمون من إسبانيا بعد محاكم التفتيش وأثناء ذلك قامت الدولة العثمانية التي حمت هؤلاء الهاربين ولولا قيامها لاستمر ملاحقة المسلمين حتى القدس.

وإنّ إعلان الحروب الصليبية على الإسلام والمسلمين والمسيحيين الأرثوذكس كانت شرسة للغاية ومبيدة للمسلمين وقد بلغ عدد القتلى في دمياط بمصر 70 ألف مسلم.

محاكم التفتيش:

أعلن البابا أنوسنت الثالث أنّ أي إنسان يحاول بناء رأي شخصي عن الرب يتعارض مع عقيدة الكنيسة يحرق من دون شفقة وقد قامت محاكم التفتيش أثناء الحروب الصليبية بنهب القسطنطينية ونهب كنائسها. ومارسوا شتى أنواع التعذيب على المسلمين والمسيحيين وقد قاموا بإحراق عدة ملايين من المخطوطات في غرناطة بأمر محاكم التفتيش، وإحراق مكتبة الاسكندرية بتوجيه من البابوات...

وبعدها عادت الانتصارات على يد محمد الفاتح حتى وصل الفتح إلى فيينا وتم لهم ذلك سنة 1485م حتى 1683 حيث كانت المعارك حول فيينا واستمرت الدولة العثمانية من سنة 1517 حتى سقوط الخلافة سنة 1924.

وقد عمل الصليبيون عبر محاكم التفتيش إلى تشكيل لاهوت كامل لمحاربة تقدم الإسلام وانتشاره، وقد ألف موريس لومبار كتاباً شديد الإيحاء والدلالة بعنوان (الإسلام إبان عظمته الأولى).

ويعتقد الصليبيون أن الإسلام إذا تجمعت قواه كان خطراً عليهم، فعجلوا على هدم الدين وتجهيل الشعوب المسلمة عبر جميع الوسائل ابتداء بعمل المستشرقين والاستعمار وانتهاء بالغزو الثقافي والفكري والتكنولوجي. وكانت محاربتهم للإسلام تأخذ أشكالاً عدة منها مهاجمتهم للقرآن الكريم فكانوا يحللون الآيات ويشككون بالوحي ويدعون بأنه من تأليف محمد ﷺ.

وقد قام بعضهم بحذف سورة التوبة والأنفال وسورة محمد ﷺ من القرآن الكريم أي حذف (325) آية تتحدث عن الجهاد ومعانيه.

وفي عام 1952 أنتج شتاروس فكرة التكفير والتطهير للمجتمعات الفاسدة بعد لقائه في مدينة شيكاغو بأمريكا مع سيد قطب ولما عاد السيد قطب من أمريكا إلى بلده مصر نادى بالمجتمع التطهيري والتكفير للمجتمع.

وفي عام 1954 لعب جون فوستردالاس وزير الخارجية الأميركية آنذاك دوراً كبيراً بإقناع السعودية إرسال المجاهدين إلى جنوب الاتحاد السوفييتي وأعطاهم ملايين الكتب لتوزيعها بالدول الإسلامية التابعة للاتحاد السوفييتي ثم جاءت فكرة إحياء برجنسكي في السبعينيات مستشار الأمن القومي للرئيس جيمي كارتر بحلم إقامة حزام أخضر (إسلامي) حول الاتحاد السوفييتي وتم له ذلك بدعم آية الله الخميني في إيران ودعم المجاهدين في أفغانستان لطرد وتحجيم الامتداد الشيوعي في المنطقة.

ولم يكن الإسلاميون منذ الاستقلال يقولون بالعنف الإسلامي بل كانوا دعاة ثقافة ونهضة وعلم، وعندما وجدت قضية فلسطين والعدوان الإسرائيلي بدأت تتشكل فكرة العنف الإسلامي الذي وجّه لإخراج السوفييت من أفغانستان.

ـ واخترقوا الإسلاميين لتحريك الشارع المصري للرضوخ إلى الهيمنة الأميركية فبدأت الحملة بمجموعة تبلورت أفكارها بالعداء المستكن للإسلام والإعجاب المفرط إلى درجة الانبهار والتقليد للحضارة الغربية وزرع العلمانيون داخل البلاد الإسلامية وتم علمنة الإسلام على يد أمثال علي عبد الرازق وغيره..

وفي مؤتمر غلين أيري بولاية كولورايدو عام 1978م أكد ستانلي مونيهام رئيس المؤتمر على طموحه لتغيير مجرى التاريخ بتنصير المسلمين جميعاً واقتلاع الإسلام من جذوره.

ـ وفي عام 1993 تم توقيع معاهدة الاتفاق الأساسي بين الفاتيكان والكاثوليكية مع إسرائيل وجاء فيها بعد إعلان تبرئة اليهود من دم المسيح فإن هناك بعداً روحياً يجعل طابعاً فريداً للعلاقة بين الكنيسة والشعب اليهودي بعد المصالحة التاريخية بينهما وأنهما يتعهدان بالتعاون لمكافحة كل أشكال العداء للسامية والعنصرية والتعصب الديني وأن يبقى الفاتيكان معترفاً بالوضع الحالي بالأراضي المقدسة.

مظاهر الحملة:

1 ـ الهجوم على القرآن ـ تاريخ القرآن ـ تشكيك بالوحي ـ ادعاء بأن القرآن من عند محمد ﷺ ونفي القدسية والوحي.

تشويهات متعمدة فقد قال شيرنغر: إنه يبحث عن كتاب اسمه خلق الأولين، وأساطير الأولين وهي مصادر القرآن والتشكيك بالترتيب القرآني.

18 سورة نزلت قبل البعث.

2 ـ إسلام فوبيا ـ (فوبيا أف إسلام).

3 ـ حرب الأفكار (رامسفليد).

ـ ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾ البقرة 120.

ـ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ البقرة 217.

قال محمد محفوظ في كتابه الإسلام والغرب وحوار المستقبل: إن الغرب كنمط عقلي وحضاري لا يمكنه العيش دون عدو"[1].

قال فرنسيس فوكوياما (نهاية التاريخ) (لا يمكن للغرب أن يقبل بالإسلام) وقد قدمت جريدة ليبراسيون الفرنسية عرضاً لكتاب فوكوياما ضمنه بالقول (إذا أردنا أن نكون خبثاء فإننا نلاحظ أن فوكوياما ما هو إلا هيغل ناقص الديالكتيك وزائد ملاحظات وزارة الخارجية الأمريكية"[2].

ـ الإرهاب في الغرب: تحت هذا العنوان يقول روجيه غارودي: وبطريقة أكثر إيجابية نستطيع القول: إن تنمية الغرب كان شرطها الأساسي هو نهب القارات الثلاث واستنزاف ثرواتها لصالح أوروبا وأمريكا الشمالية بالتبادل فالغرب هو الذي أدى إلى تخلف انطلق عليه العالم الثالث (وبالتالي أدى إلى الإرهاب).

وقالت ملكة الدنمارك مارغريت الثانية: إن من الضروري أخذ التحدي الذي يشكله الإسلام على محمل الجد على الصعيد المحلي (في مملكتها وفي العالم).

4 ـ الهجوم على القرآن: ـ تاريخ القرآن لنولدكه.

5 ـ محمد مؤسس إمبراطورية الإسلام لجورج بوش الجد.

---

(1) الإسلام والغرب لمحمد محفوظ: ص 135.

(2) الإسلام والغرب لمحمد محفوظ: ص 144.

6 ـ العقيدة والشريعة لجولدزيهر.

7 ـ ألفريد هيوم أكبر مستشرق حاقد.

8 ـ مارجليوث ـ برنارد لويس.

9 ـ الهجوم على محمد ﷺ / كتاب لجد جورج بوش الجد الرابع عشر. كتاب محمد، معروف الرصافي دار الجمل.

10 ـ بيل غتس أثناء قمة للتعليم قال: أصبحت المدارس في أمريكا بالية ـ قديمة.

حرب الأفكار:

1 ـ يريدون إسلاماً ليبرالياً وإسلاميين أمريكيين بكل الكلمة من معنى.

2 ـ يقول فوكوياما: الأيديولوجية الإسلامية هي الأيديولوجية الواحدة التي تقف أمام الحضارة الأوروبية.

3 ـ إسلام بلا أسنان ـ يرفض الجهاد وحذف آيات الجهاد.

4 ـ القاديانية ـ البهائية.

5 ـ تغيير وتحويل الإسلام ـ خلق إسلام ديمقراطي ليبرالي، دور الدين في الحياة العامة وفصل الدين.

6 ـ لماذا يخاف الغرب من الإسلام.

العدل ـ الحق ـ القوة الروحية التي يملكها الإسلام في تربية الأجيال.

7 ـ بن لادن اختطف إسلامكم.

8 ـ فصل بين الدين والدنيا.

9 ـ الإسلام يحارب منذ بداية انطلاقته الأولى في مكة.

10 ـ الإسلام يحارب عندما انطلق من الجزيرة فاتحاً لبلاد الشام والرافدين وشمال أفريقيا والوصول إلى جنوب باريس.

والخلافة العثمانية توصلت إلى جنيف تريد العودة من إسبانيا..إلى شمال أفريقيا، وإن الإسلام دعوة حركية لا تقف في حد من الحدود وإنما ينتشر بالشمس.

إن الغرب الصليبي بدوافع الأحقاد التاريخية المتأصلة ضد الإسلام وأهله لن يسمح بقيام المسلمين ونهضتهم ووحدتهم ودخولهم عصر التقنيات وإن اليهودية العالمية ستبذل المستحيل للحيلولة دون قوة الأمة العربية والإسلامية ووحدتها العربية بخاصة والإسلامية بعامة...

وإن تسليط الأعداء على الأمة المسلمة ليس تسلط استئصال وإن أصابت المسلمين بعض الأضرار بهم وما هو إلا أذى وليس إنهاءً لأنهم أمة الرسالة الخالدة والخاتمة والشواهد التاريخية خلال أربعة عشر قرناً هو الدليل لذلك.

فالأمة المسلمة تمرض وتضعف لكنها تستعصي على الموت الذي لحق بالكثير من الحضارات السابقة لها واللاحقة.

إلى جانب عدم انطباق قانون الدورات الحضارية الذي انتهى إليه علماء التاريخ والحضارة والاجتماع على هذه الأمة المسلمة وهذه القضية يمكن أن نعتبرها من خصائص أمة الرسالة الخاتمة ومواثيق الله لها، مهما حاولنا الحديث على توافر أو تخلف الشروط والظروف لرفقتها أو لانهزامها.

ولقد استعصى الإسلام على أن يخترق الغرب كل المسلمين، ويجعل منهم تبعاً، ومستزلمين، وإمعة عن طريق إغراءات كثيرة للحكومات وحمايتها للاستمرار لتكوين منفذ لمخططاتها.

وإنّ للمثقفين ورجال الفكر تسييرهم في الحياة كما فعلوا في صادق جلال العظم ـ محمد أركون ـ حسن حنفي ـ ومحمد شحرور ـ نيازي عز الدين ـ العظمة ـ والعديد شراء ضمائرهم لاستلابهم عزة الإسلام.

اليهود لهم دور كبير في الحملة على الإسلام والمسلمين:

يتمثل ذلك في:

1 ـ إدخال الإسرائيليات في التفسير والحديث والتاريخ.

2 ـ دعم الإسرائيليات بتكوين بولس الرسول وانحراف العقيدة لإبعادهم عن التعاون مع من سيأتي بعدهم.

3 ـ عزم اليهود على تشكيل أمور ومخططات سرية.

الماسونية ـ الروتاري ـ الليونيز ـ شهود يهوا...

4 ـ اختراق اليهود لصفوف المسلمين بعبد الله بن سبأ والزنادقة والتشكيلات اليهودية التي حولت الكثير في المنطقة إلى الشيوعية ومحاولتهم تمزيق الفرق الإسلامية وشراء الجماعات وتمزيقهم.

وبطريقة أكثر إيجابية نستطيع القول إن تنمية الغرب كان شرطها الأساسي نهب القارات الثلاث واستنزاف ثرواتها لصالح أوروبا وأمريكا الشمالية بالتبادل، فالغرب هو الذي أدى إلى تخلف العالم الثالث مما أدى إلى وجود الجماعات الإرهابية.

فالغرب يعتبر المسلمين همجيين صنعوا القتل والحرب والدمار فيجب التصدي لهم ويجب مواجهة مخاطرهم التي لا يمكن التسامح حيالها.

وقد قالت الدنماركية مارغريت الثانية في وصفها لرسول الله محمـد ﷺ: إنّ محمداً قدم نفسه على أنه مبعوث من عند الله ولكن حياتـه تميـزت بعـدد لا يحصى من الزيجات وبفسق هائـل، وبـالانخراط في النهـب والحـرب والغـزو والمذابح التي لا ترحم في الوقت الذي ردد فيه اسم الرب المقدس لتبرير أفعاله الشريرة[1].

(1) مجلة ناشيونال ريفيو، وكتاب دليل لفصل محمد المظلم.

الحروب الصليبية

دارت رحى حروب دامية في الشرق العربي منذ القرن السابع الميلادي على يد العرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية يحملون السيف بيد لمحاربة البيزنطيين، وباليد الأخرى القرآن الكريم لينشروا مبادئ الإسلام الحنيف. وكانت السيطرة والنصر المؤزر للعرب الأمجاد على الدولة البيزنطية في الشام ومصر. وواصل المسلمون زحفهم المقدَّس حتى وصلت تهديداتهم إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية بعد أن سيطروا على آسيا الصغرى، وبهذا هددوا البيزنطيين في عقر دارهم، بل وأجبروهم على دفع الجزية لهم.

أسباب الحروب الصليبية:

جرى الحقد مجرى الدم في عروق المسيحين، ورأوا في العرب والإسلام قضاء على هيبتهم بل ووجودهم فتحينوا الفرص للانقضاض على المسلمين، وفشلت جميع محاولاتهم. حتى كان أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، فتجمعت عدة عوامل عملت على إنجاح محاولتهم الصليبية في السيطرة على بعض أجزاء من العالم العربي. من هذه العوامل تفكك وحدة العرب بعد أن ضعفت الدولة العباسية وتمزّقت إلى دويلات صغيرة، وهو عامل هام كان له الاعتبار الأول في انتصار الحملات الصليبية، وهناك عامل آخر، وهو التعصب الممقوت عند المسيحيين ضد الدين الإسلامي السمح والذي جذب كثيراً من المسيحيين إليه، وهذا أثار العالم المسيحي على رأسه البابوات ـ رؤساء الكنيسة المسيحية ومقرّهم في روما بإيطاليا ـ الذي دعوا الناس في أوروبا لإشهار حرب ضد المسلمين لاستخلاص الأراضي المقدسة المسيحية من

أيديهم، ودعوة البابوات هذه هي التي أعطت لهذه الحروب صفة الدينيـة. ثـم هناك عامل ثالث وهو سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا، وهذا شجّع الناس هناك على خوض الحروب أملاً في أن يجدوا بالـشرق مـلاذاً مـن سوء أحوالهم لما سمعوه عن غنى الشرق وثرواته.

السبب المباشر:

كان السبب المباشر لهذه الحـروب هـو اسـتنجاد (الكـسيوس) امبراطـور الدولة البيزنطية بالبابا أوربان الثاني من السلاجقة المسلمين الذين اسـتولوا عـلى أملاك الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية. فعقد البابا مـؤتمراً ضـم أشراف أوروبا وكبار رجال الدين ودعاهم لمقاتلة المـسلمين الـذين هـددوا الممتلكات البيزنطية المـسيحية، واسـتغلال هـذه الفرصـة للاسـتيلاء عـلى بيـت المقدس - حيث الأراضي المـسيحية المقدسـة التـي يحجـون إليهـا - ووعـد مـن يستشهد منهم بدخول الجنة، وعلّق على صدور الأمراء المتطوعين الـصليب، ممـا جعل هذه الحرب تسمى بالحروب الصليبية.

الإمارات اللاتينية:

استمرت الحروب الصليبية بحملاتها المتعددة نحو الشام ومصر حـوالي قـرنين منـذ 1097م. إلى 1291م. حيـث توافـدت جمـوع الـصليبيين عـلى القسطنطينية واستقبلها الإمبراطور الكسيوس استقبالاً حسناً، وتجمَّعت هناك عام 1097م. وقدّر بعض المؤرخين تعداد الحملة الصليبية الأولى بنحـو 300 ألف مقاتل وآخرون قدّروها بنحو 150 ألف جندي. واتجهت الحملة إلى شبه جزيرة آسيا الصغرى فاستردّت للدولة البيزنطية أملاكها هنـاك. واسـتطاعت أن تكوّن أربع إمارات صليبية - لاتينية - في كل من الرها (في أطراف العـراق)

وفي أنطاكية (على الساحل في شمال سورية) وفي بيت المقدس (في فلسطين) وفي طرابلس (في لبنان). وقد لعبت السفن الإيطالية دوراً رئيساً في نجاح الصليبيين حيث كانت تمدهم بالمؤن والذخيرة.

ظهور العملاق العربي:

بدأت المقاومة العربية بصفة جدية بعد ظهور الأمير عماد الدين زنكي حاكم الموصل، والذي تمكن من السيطرة على أجزاء من سورية، ولمّا أيقن من قدرته وقوة جيوشه هاجم إمارة الرها الصليبية وقضى عليها. فاستنجد الصليبيون بأوروبا، التي أرسلت حملة أخرى عام 1147م. التي حاصرت دمشق. إلا أن نور الدين بن عماد الدين زنكي هزمها وعادت الحملة إلى أوروبا تجر الهزيمة المنكرة، دخل نور الدين دمشق. وبذلك امتدّت أملاك نور الدين فأصبحت الإمارات الصليبية محاصرة بقوات نور الدين من الشمال والشرق.

ومات نور الدين ليظهر منجد الإسلام وحامي العروبة صلاح الدين الأيوبي، الذي قضى على الخلافة الفاطمية في مصر واستقل بها وضم الشام فعظمت قوّته. وهاجم الصليبيين بعنف وقسوة، فدحرهم في معركة حاسمة عام 1187م. عند حطين وكانت هزيمتهم ساحقة. وتابع صلاح الدين زحفه المقدس على الصليبيين فسقط في يده سقوط أوراق الخريف، وتوّج انتصاراته بالقضاء على أعظم الإمارات الصليبية وهي بيت المقدس. وأفزعت انتصارات صلاح الدين أوروبا كلها، فخرجت حملة صليبية جديدة تمكّنت من الاستيلاء على عكا بعد حصارها لمدة سنتين. وبقي صلاح الدين يجاهد حتى عقد صلح الرمله مع الصليبيين عام 1192م. الذي بمقتضاه انتزع المسلمون كل الأراضي التي كانت بيد الصليبيين، ولم تبق لهم سوى المدن الساحلية فقط فيما

بين صور ويافا، مع السماح للمسيحيين بزيارة بيت المقدس. ومات صلاح الدين في دمشق عام 1193م، بعد أن لقَّن الصليبيين درساً لن ينسوه وروى بدمائهم بطاح الشام العزيزة.

الصليبيون ومصر:

أراد الصليبيون تحطيم قوة مصر والقضاء عليها لأنها هي التي قادت حركة استرداد الأراضي العربية من أيديهم. وفشلت حملاتهم في تحقيق هذا الحلم البعيد المنال. وكانت آخر تلك الحملات حملة لويس التاسع ملك فرنسا عام 1249م. التي لحقتها هزيمة ساحقة عند المنصورة، ووقع لويس التاسع أسيراً في أيدي المصريين.

نهاية الصليبيين:

انقرضت الدولة الأيوبية من مصر، وقامت دولة المماليك وفي عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس استولت على حصن الكرك وقيصرية وأرسوف وصفد ويافا وأنطاكية وغيرها. ثم كانت آخر حلقة من حلقات الصراع الإسلامي ـ الصليبي على يد سلطان المماليك قلاوون الذي استولى على طرابلس ثم استولى ابنه خليل على عكا أقوى الحصون الصليبية آنذاك عام 1291م. وبسقوط عكا سلّمت بقية المدن الصليبية. وبذلك انسدل الستار على فصل هام من فصول الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، كان النصر فيه حليفنا.

وهذا في وقت كانت الدولة الإسلامية العربية في الأندلس مازالت في حرب صليبية ضروس أعلنتها أوروبا بقيادة ملوك قشتالة. وكانت الهزيمة التي لحقت قوات الصليبيين في المشرق عاملاً على زيادة الضغط الصليبي على دولة

المسلمين في الأندلس، فزاد الصراع وأحكم الصليبيون الحصار عليها حتى سقطت في أيديهم آخر مدينة إسلامية بالأندلس وهي غرناطة عام 1492م. أي بعد قرنين من هزيمتهم بالمشرق.

النتائج الهامة للحروب الصليبية:

1 ـ ضعف البيوت الإقطاعية في أوروبا بعد موت كثير من الأشراف مما أضعف النظام الإقطاعي، وظهور الطبقة الوسطى ـ التي قادت المجتمع الأوروبي وحلّت محل الأشراف ـ المشتغلة بالتجارة التي أمدّت حكّام أوروبا بالمال نظير الحصول على امتيازات خاصة.

2 ـ كانت الحروب الصليبية فرصة عظيمة لأوروبا للاستفادة من حضارة الشرق في النواحي الزراعية والصناعية وكذلك العلوم، فخرجت من ظلام الجهل الذي خيّم عليها في العصور الوسطى إلى نور النهضة في العصور الحديثة.

3 ـ جعلت العرب يحسّون بأهمية التكتل، فعملوا على تكوين جبهة إسلامية متحدة. كما عرفوا أهمية القلاع والحصون في الدفاع عن المدن.

الإمبراطورية المغولية
والهجوم على العالم الإسلامي

بدأ ظهور المغول على مسرح التاريخ في القرن الثاني عشر الميلادي، إلا أن أمرهم لم يصبح ذا خطورة وأهمية إلا بعد أن أصبح جنكيز خان إمبراطوراً عليهم في بداية القرن الثالث عشر الميلادي (1260م) وهم قبيلة من التتر. وموطنهم الأصلي حول بحيرة بيكال جنوب روسيا، وحرفتهم الرعي، وهم أناس بدائيون همج لم تلمسهم يد الحضارة، غلاظ القلب والطبع.

جنكيز خان والإمبراطورية:

بدأت إمبراطورية المغول تتكوَّن عندما دخل جنكيز خان الحرب ضد الصين وهي التي استمرت من عام 1210 إلى عام 1216 وسيطر فيها على جهات كثيرة من الصين ودخل بكين العاصمة. وقد أظهرت هذه الحرب الروح التخريبية وعدم إنسانية هؤلاء الناس.

وكان انتصار جنكيز خان على إمبراطورية الصين القوية عاملاً مشجعاً على توسيع رقعة إمبراطوريته. فاتجه إلى البلاد الإسلامية، وأخضع تركستان الشرقية، ثم أتراك خوارزم عام 1220م. فلقيت المدن الإسلامية مثل بخارى وسمرقند وغيرها أبشع ألوان الدمار والقتل والنهب، مما لم يسبق له مثيل في التاريخ. وهكذا امتدت إمبراطورية جنكيز خان من الصين شرقاً إلى حدود إيران غرباً، وهي إمبراطورية كبيرة ـ في اتساعها ـ لم يحقق مثلها فاتح من الفاتحين.

هولاكو والإمبراطورية:

مات جنكيز خان وتولى بعده هولاكو حفيده الذي ضمّ إيران إلى إمبراطورية المغول. وبعدها حارب الخلافة العباسية واستولى على بغداد في فبراير 1258م وقتل الخليفة المستعصم ومجموعة من أبناء البيت العباسي وكبار رجال الدولة والعلم. كما انساب المغول في أحياء بغداد يقتلون ويسلبون ويدمرون لمدة أربعين يوماً، وحرقوا وأغرقوا مئات الآلاف من الكتب النفيسة.

وطارت أخبار هذه الكارثة إلى الشام ومصر، وأحدثت رعباً هائلاً هناك. وبدأ هولاكو الزحف على شمال العراق، ثم أسقط مدن الشام واحدة تلو الأخرى. ولما وصل إلى حلب بلغته الأخبار بوفاة خان المغول الأعظم فاضطر إلى العودة مسرعاً إلى جوف آسيا للمشاركة في اختيار الخان الجديد؛ تاركاً قيادة جيشه في الشام إلى كتبغا. واستولى كتبغا على دمشق. ومن ثم أخذ المغول يتطرقون إلى فلسطين في طريقهم إلى مصر.

وكان هولاكو قد أرسل إلى السلطان المملوكي في مصر (قطز) خطاب تهديد يطالبه بالتسليم ويخيفه من عاقبة العناد والمقاومة. ولكن قطز قرر المقاومة، وقتل رسل المغول وعلّق رؤوسهم على أحد أبواب القاهرة، وفاجأ الجيش المصري المغول عند عين جالوت ـ قرب مدينة نيسان ـ في سبتمبر 1260 ونشبت معركة فاصلة هزم فيها المغول هزيمة ماحقة وقتل كتبغا، ثم تتبع الجيش المصري المغول حتى أخرجهم من البلاد الشامية.

ولواقعة عين جالوت أهمية خاصة في التاريخ، لأنها كانت أول هزيمة تلحق بالمغول وبذلك انهارت الخرافة القائلة بأن المغول قوم لا يغلبون،

ووضعت حدّاً لامتدادهم السرطاني. وفتحت هذه الهزيمة عيون الناس على أنه في الإمكان هزيمة المغول مهما كانت أعدادهم، مما أضاع هيبتهم.

انقسام الإمبراطورية:

بعد هزيمة عين جالوت والانسحاب من الشام، انقسمت الإمبراطورية المغولية إلى دويلات عدة. من أشهرها القبيلة الذهبية ـ اعتنقت الإسلام ـ ودويلات فارس والعراق وتركستان والصين. وهذا الانقسام أدى إلى ضعف الإمبراطورية المغولية والطمع في دويلاتها. فاستولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس على الدويلات المغولية في فارس والعراق وأرمينيا.

تيمورلنك:

بظهور تيمورلنك عادت وحدة الإمبراطورية المغولية. إذ تمكن من السيطرة على مساحة شاسعة تمتد من الهند إلى العراق والشام، بعد حروب تشيب لذكرها الأبدان. وبذلك استحق تيمورلنك عن جدارة لقب الأستاذية في التخريب والتدمير. كما حارب تيمورلنك الدولة العثمانية وانتصر عليها وأسر سلطانها بايزيد. وبمرور الزمن انفرط عقد هذه الإمبراطورية، إلا أن الأسر المغولية سيطرت على الحكم في ممالك كثيرة بآسيا من أهمها الصين، حيث بقيت تحكم أسرة مانشو الصين حتى القرن العشرين.

انتشار النفوذ الإسلامي:

نتج عن سيطرة المغول على آسيا الوسطى هجرة عدد كبير من العرب وغيرهم إلى الصين. ولما فتح المغول الصين، استعانوا بالمسلمين في تسيير شؤون البلاد هناك لمهارتهم الإدارية والتجارية. والحقيقة أن الإسلام انتشر في

البلدان الواقعة حول المحيط الهندي وبلاد الشرق الأقصى كالهند، والهند الصينية وجزر أندونيسيا وحتى الصين عن طريق التجار الذين كانوا يتعاملون مع سكان هذه المناطق، ولو أن هؤلاء التجار لم يكونوا محترفين للدعوة الإسلامية. وأصبح للمسلمين هناك نفوذ قوي، كما أن معاملتهم الحسنة حببت فيهم أهالي هذه الجهات وجعلت بعضهم يدين بالدين الإسلامي.

الدولة العثمانية

العثمانيون من أصل تركي، رحلت قبيلتهم من أواسط آسيا هاربة من وجه جنكيزخان. واستقرت في آسيا الصغرى حيث دولة السلاجقة المسلمين. وتقديراً لمساعدتهم السلاجقة في مواجهة المغول منح السلطان السلجوقي لقائد هذه القبيلة (أرطغرل) مقاطعة متاخمة لحدود الدولة البيزنطية. وهذا الموقع الجغرافي للإمارة التركية حدّد من البداية ميدان توسعّها في أملاك الدولة العثمانية.

تأسيس الدولة العثمانية:

ثم جاء عثمان الذي وّسع الإمارة التركية على حساب البيزنطيين، وأشهر إسلام قبيلته ـ كانت وثنية ـ واتخذ بروسة عاصمة له. ولذلك يعتبر مؤسس هذه الدولة، التي انتسبت إليه فأطلق عليها اسم (الدولة العثمانية) ومات عام 1326. وهكذا ظهرت الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي.

والواقع أن نجاح العثمانيين في التوسع في ممتلكات البيزنطيين لا يرجع على وجه التحديد إلى قوة العثمانيين بقدر ما يرجع إلى ضعف الدولة البيزنطية. فقد أنهكت الحروب هذه الدولة، حروب مع الدولة الإسلامية العربية منذ القرن السابع الميلادي وحروب مع الدولة البلغارية طوال القرن العاشر الميلادي.

ولم يحاول العثمانيون التوسع في آسيا الصغرى على حساب جيرانهم الأتراك غير العثمانيين. ولما جرّبوا حظهم في هذا الميدان في عهد بايزيد في

أواخر القرن 14 لحقهم الفشل الذريع الـذي أقـنعهم بـالعودة الـسريعة إلى أوروبا حتى القرن 16. ومن ثم فالدولة العثمانيـة قامـت وثبّتـت نفـسها في أرض بيزنطية سواء في آسيا الصغرى أو في البلقان، فهـي دولـة أوروبيـة في نشأتها وتكوينهـا. وهـذا يفـسر معظـم اتجاهـات تركيـا الحديثـة في الوقـت الحاضر.

أوروبا والعثمانيون:

في عهـد أورخـان (1326 ـ 1359) خليفـة عـثمان، انتقـل العثمانيـون بزحفهم إلى البلقان بعد أن استولوا على ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى. واستطاعت الدولة العثمانية في عهد أورخان أن تـستولي عـلى جـزء كبـير مـن تراقيا. وفي عهد مراد (1359 ـ 1390) تمّ للدولـة العثمانيـة الاسـتيلاء عـلى تراقيا، واحتلّت أدرنة ـ أصبحت العاصمة الجديدة ـ كما استولت على جنـوب بلغاريا ومقـدونيا وشرق الـصرب. وارتعـدت أوصـال أوروبـا لانتـصارات العثمانيين. فاتحدت القوى المسيحية لمحاربة العثمانيين إلا أنها منيت بالهزيمة في معركة (قوصوه) في عهد مراد، ثم في عهد بازيد خليفة مـراد انهزمـت القـوى المسيحية المتحالفة في معركة (نيقوبوليس). وأثبتت هذه المعركة الأخيرة حقيقة شاملة وهي أن الدولة العثمانية تستطيع أن تقف أمام أوروبا كلها مجتمعة دفاعاً عما اكتسبته من أرض أوروبية.

ثم توجت الدولة العثمانية انتـصاراتها المتلاحقـة بالاسـتيلاء عـلى أمنـع مدينة أوروبية وهي القسطنطينية عام 1453. وجعلت منها العاصمة، وذلـك في عهد محمد الفاتح. وكان لسقوط القسطنطينية أثر معنـوي بـالغ في العـالمين المسيحي والإسلامي.

العثمانيون والعالم الإسلامي:

تدّعمَت الدولة العثمانية وعظم شأنها وأصبحت قوة مرهوبة بعد أن زلزلت الأرض بانتصارها الحاسم في القسطنطينية، وقضت على الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية). ثم أخذت تحلم بالاستيلاء على العالم العربي وامتلاك الأراضي الإسلامية المقدّسة بصفتها الدولة الإسلامية القوية.

وأتيحت لها فرصة التدخل في شؤون الشرق الإسلامي بعد موت محمد الفاتح. إذ انقسم البيت العثماني على نفسه وتناحر أفراده في سبيل تولي السلطنة. وأخيراً نجح السلطان سليم الأول في اعتلاء عرش الدولة العثمانية عام 1512. وفي أثناء النزاع حرّض الشاه إسماعيل الصفوي حاكم إيران ـ كانت إيران تتبع المذهب الشيعي ـ الشيعة من سكان آسيا الصغرى على الثورة ضد العثمانيين. لهذا أعدّ سليم جيشاً كبيراً عام 1514 للقضاء على الشيعة ـ كانت الدولة العثمانية تتبع مذهب السّنّة ـ ودولتهم في إيران، وحدثت معركة (تشالديران) كان النصر فيها حليف العثمانيين.

أطلّت الدولة العثمانية بعد توسّعها في آسيا الصغرى شرقاً على أملاك الدولة المملوكية في الشام. فأغارت على بعض إماراتهم، بحجة مساعدة المماليك للصفويين، كما أن المماليك استضافوا أخا السلطان سليم المعادي له. وفي 1516. وصلت الأخبار إلى القاهرة بالاستعدادات الحربية في القسطنطينية فعرف السلطان الغوري المملوكي أن العثمانيين يستعدون للحرب ضد الدولة المملوكية. فخرج بجيشه إلى الشام وهناك حدثت معركة (مرج دابق) في أغسطس 1516 وقتل الغوري وكان النصر النهائي للعثمانيين، نتيجة خيانة حاكم حلب المملوكي وانضمامه للعثمانيين. وفي أكتوبر 1516 دخلت جيوش

السلطان سليم دمشق بعد أن كانت قد استولت على حلب. وهكذا سيطر العثمانيون على الشام.

وصلت الأخبار المشؤومة ـ بقتل الغوري والاستيلاء على الشام ـ إلى طومانباي نائب السلطان الغوري في مصر، فاستعدّ لقتال العثمانيين والخروج لمقاتلتهم قبل أن يدخلوا مصر. ولكن أمراء المماليك ضغطوا عليه وأقروا انتظار العثمانيين حتى يصلوا إلى القاهرة. وأخيراً حدثت معركة القاهرة وانهزم المماليك نتيجة لإفشاء سر الخطة العسكرية المملوكية إلى العثمانيين. وبذلك دخل العثمانيون القاهرة في يناير 1517 وبذلك انتهت الدولة المملوكية في مصر بعد أن رفعت شأن العالم الإسلامي بتحطيم الصليبيين والمغول.

وكانت مصر تحكم الحجاز، وكان استيلاء العثمانيين على مصر استيلاء كذلك على ممتلكاتها. لذلك أرسل شريف مكة إلى السلطان سليم يعلن ولاءه له، وسلمه مفاتيح الحرم المقدس وبذلك صار الحجاز ولاية عثمانية بعد الشام ومصر، وثلاثتهم كانوا تحت السيطرة المملوكية. ثم استولى العثمانيون على اليمن.

أما في شمال إفريقيا فبعد فتح مصر امتد نفوذ العثمانيين إلى تونس والجزائر بفضل أخوين من أسرة يونانية اشتهرت بالقرصنة في البحر المتوسط وهما عروج وخير الدين. ولما حلّ عام 1534 كان الشمال الإفريقي كله ـ باستثناء المغرب الأقصى ـ تحت حكم العثمانيين.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني (1520 ـ 1566) استولى العثمانيون كذلك على العراق. وهكذا امتد سلطان الدولة العثمانية على جميع الدول العربية.

ركود الحركة التجارية:

فرضت الدولة العثمانية على العالم العربي حصاراً حديدياً منعه من الاتصال بالعالم المسيحي. فقد كان العثمانيون متعصبين إلى أقصى حدود التعصب الديني، فلم يقبلوا دخول المسيحيين إلى الأراضي العربية الإسلامية. ولذلك منعوا التجار الأوروبيين من المرور إلى البحر الأحمر حتى لا يدنسوا الأراضي المقدسة بالحجاز. كما منعت سفن الأوروبيين من التعامل مع أهل الشام وبذلك قضت نهائياً على الحركة التجارية بين العالم العربي وأوروبا، والتي كانت الموانئ العربية على البحر المتوسط في مصر والشام تلعب فيها دوراً رئيساً إلى جانب الموانئ الأوروبية في حوض البحر المتوسط.

حضارة الإمبراطورية العثمانية:

علينا أن نوضح من البداية أن العثمانيين ليسوا أهل حضارة في أي فرع من فروعها. فلم يكن لهم أدب ولا فن ولا علم ولا موسيقى، ولهذا لم يتذوقوا طعم الحضارة، ولم يعرفوا أهميتها ودورها الإنساني. ونتيجة لذلك لم يشجعوا أي تقدم حضاري في إمبراطوريتهم إلا بالقدر الذي يكونون هم في حاجة إليه. ودليل ذلك الحالة التي كانت عليها البلاد الداخلة في الإمبراطورية من تأخر شائن.

كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية بالدرجة الأولى والأخيرة. وكان العثمانيون يستغلون موارد إمبراطوريتهم إلى أقصى حدود الاستغلال ليعيشوا هم في نعيم ورفاهية. لهذا شغلهم الشاغل وكان تنظيم هذه الإمبراطورية تنظيماً إدارياً يسهل لهم عمليتين، الأولى حسن الاستغلال، والثانية نشر الطمأنينة والأمن والاستقرار في البلاد التي فتحوها لتتفرغ

جيوش الدولة لمهاتها العسكرية. وعلى ذلك يمكن أن نلحظ حضارة العثمانيين في سلطات الحكم والإدارة، وفي النواحي العسكرية.

كان السلطان العثماني هو العمود الفقري في تحريك الجهاز الإداري لأن بيده جميع السلطات. ونظراً لثقل هذه المهمة اتخذ وزراء يتحملون معه مشقة الحكم، وعلى رأسهم الصدر الأعظم ـ رئيس الوزراء ـ الذي يعتبر نائباً عن السلطان. هذا بالإضافة إلى فئة من الموظفين الإداريين على رأسهم رئيس الكتاب ـ قام بها تقوم به وزارتا الداخلية والخارجية في العصر الحديث ـ والدفتردار الذي يشرف على ميزانية الدولة، وشيخ الإسلام الذي عليه مراعاة أعمال الحكومة مع الشريعة الإسلامية. ومن هؤلاء جميعاً يتكون الديوان العالي الذي كان يضم كذلك قواد الجيش والأسطول.

أما عن القوات المسلحة التركية فقد كانت ثلاثة أقسام: مشاة، فرسان، بحرية. وعماد القسم الأول فرق الانكشارية التي تكونت من أطفال المسيحيين الذين كانوا يدفعون كجزية للسلطان العثماني. وقد وجه حكام الدولة اهتماماً كبيراً لهذه الفرق في تدريبها وتثقيفها والعناية التامة بشؤونها. أما الفرسان فقد تنظمت فرقهم على أسس إقطاعية، إذ منح الجنود الممتازون قطعاً من الأرض مقابل إمداد الدولة بعدد من الفرسان بكامل عتادهم. وعن الأسطول، فقد كان لهم أسطول قوي لمساعدة جيوشهم، إلا أنه لم يبلغ درجة القوة التي بلغها الجيش.

المدرسة الوصفية المنطقية الحديثة
ممثلة في جون لوك، دايفيد هيوم
رواد المذهب الحسي والمذهب التجريبي

بعد أن كانت الفلسفة نظريةً وحواراً حول ما وراء الميتافيزيقيا وقدم العالم إجابة عن أسئلة كثيرة كانت تطرح نفسها على الفلاسفة تحولت إلى منهج علمي واعٍ ومنظم قام على أسس تجريبية.

فالحواس والتجربة هي سبيل المعرفة التي تمثل مبدأ المنفعة البراغماتية وهي المنطلق لهذا العلم لإنهاء فكرة الحق الإلهي المقدس للملوك. وإزاء هذه النظرية في بريطانيا توجد نزعة أفلاطون في الفلسفة ويمثلها الفلاسفة الذين قالوا بأن المعرفة فطرية أي حاسة فطرية تميز الخير من الشر، وهوبز من الفلاسفة البريطانيين الماديين فهو ينكر الروح ويعتبر الإنسان حيواناً متوحشاً تسوده الأنانية أي أنه مادي في تفكيره السياسي.

ولد جون لوك سنة 1632م بمدينته ريختون بإنجلترا وتوفي سنة 1704م، وهو فيلسوف إنجليزي نادى بالحرية السياسية والحرية الفكرية، حرية العقل في بحث الموضوعات المختلفة، والحرية الدينية ووضع نظرية المعرفة في الفلسفة الإنكليزية وتحليلها.

ألف كتاب مقالة في العقل البشري ضمنه نظريته في المعرفة فكانت الغاية من الكتاب البحث في طبيعة العقل وماهيته والبحث في قدرته ووظيفته، أي اكتساب الأفكار وأن العقل هو السبيل لتوحيد المعرفة الصحيحة، وتوجد أفكار فطرية في العقل البشري كالإيمان لإله طريقه في العقل ويشترك فيه كل البشر، وإنّ العقل البشري مجرد يدرك بوعيه بعض المبادئ والأفكار.

ويقول لوك: إنّ المعرفة مكتسبة وليست فطرية.

وإنّ كثيراً من الناس لا يقرون بهذه الأفكار الفطرية – وبعضهم لا يعتقد بها وإنّ مبدأ عدم التناقض لا تسلم به كل الناس.

وإنّ فكرة الألوهية أنها فطرية قال عنها لوك: إن هذه الفكرة تختلف باختلاف الشعوب وهذا يستدل أنها مكتسبة من البيئة والتجربة.

وتكون التجربة قائمة عن طريق الحواس إضافة إلى التفكير الداخلي أو التأمل الباطني.

وإنّ لوك يختلف عن الحسيين بالتجربة الحسية فيقول بالتجربة الداخلية إذ قسم الأفكار إلى أفكار بسيطة مصدرها الإحساس والتفكير الداخلي وأفكار مركبة مصدرها نشاط العقل.

فكرة اللانهائي:

ناقش فكرة اللانهائي جميع الفلاسفة وقد استنتج ديكارت وجود الله فقال: إنها فكرة فطرية الكمال اللامتناهي وهو الذي وُضِعَ في ذهني ولذا هو لا متناهٍ ألا وهو الله.

وقال لوك: إنّ التجربة الخارجية هي التي أوجدت هذه الفكرة عن طريق تأليف العقل بين الأفكار البسيطة لا عن طريق الإحساسات، ويعدّ الفكرة فطرية ويعتبر المعرفة مكتسبة.

فإن المذهب الحسّي هو جمع بين الحس والعقل ولهذا اختلف مذهبه عن المذهب الحسي الذي يردّ المعارف إلى الإحساسات فقط، فكان مذهبه وسطاً بين المذهب الحسي والمذهب العقلي، فلم ينكر وجود النفس واعتبر الفكرة عنصر المعرفة ورمزاً يمثل الواقع. والحقيقة أن له الفضل الأكبر في إظهار طريق

التأمل الباطني، وهو ما يثبت خطأ نظرية أرسطو... وإن نظريته في السياسة إنكار الحق الإلهي للملوك وإن نشأة الدولة عنده نتيجة عقد اجتماعي بين الناس.

وأما دافيد هيوم فإنه أنكر في نظريته أن الأفكار فطرية وقال هي مكتسبة لأن وجود الفكرة من حيث الأصل لا بد من أن يسبقها إحساس. فالمذهب الحسي ينكر عمل العقل في تكوين الأفكار وفي ربطها. ويختلف هيوم عن لوك وذلك أن هيوم يتابع مذهبه الحسي ويقرر أنه لا أثر للعقل. ولم يعرف هيوم بإلحاده إلا أنه كان شكاكاً وذاعت شهرته بأنه زنديق ووصف بذلك في كتاب رسالة في الطبيعة الإنسانية. وقال: إن أفكارنا كلها مستمدة من التجربة، فلا الحس ولا العقل ينتجان اعتقادنا في الأشياء المادية بل ينشأ عن الخيال.

وإنّ الإدراكات الحسية تتصل بعضها ببعض لعلاقات التتالي والتماثل والصلة وليست هناك أية رابطة واقعية بينهما.

المشكلة الأخلاقية عند هيوم:

قال: لا شيء يؤثر في العقل الإرادي غير اللذة والألم، وإنّ العقل وحده هو الحكم في التمييز بين الخير والشر الأخلاقيين فيبطل قول من قال: إن العقل وحده الذي يستطيع أن يؤثر على السلوك لأن الأحكام والأخلاق أيضاً تؤثر في السلوك أحياناً.

ولا يستطيع المجتمع أن يتماسك بدون التزامات العدالة ومن العسير أن نقول إن هيوم قد نجح في إرساء الأسس لعلم تجريبي عن الطبيعة الإنسانية.

فالعقل سببٌ في تكوين الأفكار البسيطة بل في ربط بعضها مع بعض وفي تكوين سيرها لأنّ الرابط بين الأفكار يكون بطريقة آلية صرفة تبعاً لقانون

تداعي المعاني، وقانون التشابه وقانون التلازم الزماني والمكاني (تجاوز زماني - تجاوز مكاني)، وقانون العلية. إلا أن هذا الأخير ليس قانوناً عقلياً.. بل هو نتيجة للعادة ولتحليل الحوادث مفككة في الكون ولا توجد ضرورة منطقية تحتم ثبات الشك في العلم وفي صحة قوانينه.

نتائج فلسفة هيوم:

1 ـ الشك في وجود العلم.

2 ـ الشك في وجود العالم الخارجي وإنكار المادة لأن العالم الخارجي وهم باطل لعدم وجود القدرة على إثباته.

3 ـ الشك في وجود النفس وإنكار العقل، وذلك لأن الإحساسات والأفكار يحدث تجمعها وترابطها بطريق آلي فتنتج عنها القوة التي تجمع بين الأفكار وتؤلفها وتربطها ببعض.

4 ـ الشك في وجود الله لأن فلسفته تؤدي بنا إلى إنكار قدرتنا على إثبات وجود الله بالبراهين العقلية، ولأن قولنا بوجود الله يقتضي أن نبحث عن علة وجوده، وإن علة وجوده تستلزم إثبات الوجود عن طريق البراهين العقلية وهو يؤدي بدوره إلى إشكالات عديدة مما يوجب علينا الاعتقاد بوجوده عن طريق غير عقلي وهو طريق الإيمان وطريق العاطفة والقلب على اعتبار أنّ المعتقدات الدينية تبنى عليها لا على العقل.

أما بيكون المشهور بفيلسوف التجربة فيقول: إنّ العلم لا ينهض ولا يتقدم إلا بالتجربة، وهناك قوانين وضعها الله في العالم يسير بموجبها الكون كله وهو مخالف لما قاله ديمقرطيس من أن الكون يسير بطريق الصدفة آلياً..

ويقول هيوم: إن الجوهر والديمومة واللانهاية لا يمكن أن يفسر بها وجهة النظر التجريبية المتطرفة.

وقد عمل برجون في دراسته العلمية للعالم الخارجي مستعيناً بالتحليل والتصنيف وهو يقول بالحدس على اعتبار أنه مقدمة للميتافيزيقيا. ويعد الأخلاق المشكلة المركزية في نظرية المعرفة الحديثة وهي التوفيق بين الطبيعة الذاتية للفكر وبين دعوانا بأننا نعرف ما هو خارج أفكارنا.

وللبيروني مذهب تجريبي في المعرفة خلاصته: أن العلم اليقيني يجيء عن إحساسات يؤلف بينها العقل على نمو منطقي.

القاديانية

ـ القاديانيـة حركـة دينيـة ظاهريـاً نـشأت عـام 1889م بتخطـيط مـن الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية آنذاك، بهدف إبعاد المسلمين عن ديـنهم الإسلامي وعن فريضة الجهاد بشكل خاص التي كانت تفزع الإنجليـز، بنيّـة عدم مواجهة المستعمر باسم الإسلام. وكـان لـسان حـال هـذه الحركـة مجلـة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية.

ـ كان المـيرزا غـلام أحمـد القاديـاني (1839 ـ 1908) الأداة التنفيذيـة لإظهار الحركة القاديانيـة وكـان ينتمـي إلى أسرة اشـتهرت بممـالأة الإنجليـز وخيانة الدين والوطن، واختير لدور المتنبئ أولاً حتى يلتف المسلمون حولـه، وينشغل بهم عن الجهاد للاستعمار الإنجليزي، علماً بأنـه كـان معروفـاً بكثـرة الأمراض في أسرته مع إدمانه للمـشروبات الكحوليـة والمخـدرات وقـد قـام بأمور نوجزها فيما يلي:

1 ـ بدأ منذ عام 1889 بدعوته وأنه مجدد للعصر، ومماثلتـه للمـسيح، ثـم إنـه المسيح الموعود.

2 ـ وفي عام 1891 أعلن عن موت المسيح، وأنه هو المسيح الموعود، بعد اثني عشر عاماً من الصبر والتخطيط.

3 ـ وفي عام 1900 طلب من أتباعـهِ مخاطبتـه بـالنبوة الجزئيـة بخطبـة ألقاهـا المولوي عبد الكريم.

4 ـ وفي عام 1901 أعلن عن نفسه أنه نبي ورسول بخطبة له ألقاها في مدينـة سيالكوت.

5 ـ وفي عام 1904 أعلن عن نفسه أنـه (كرشـن) وكرشـن معبـود في الديانـة الهندوسية «عن كتاب» ما هي القاديانية لأبي الأعلى المودودي.

6 ـ وبعد ذلك ادعى أن الله يُجامع ويباشر، وأنه هو ثمرة هذا الجماع[1].

7 ـ ثم ينتهي إلى القول بأن الأنبياء سيستمر مجيئهم إلى يوم القيامة عـن كتـاب الفضل، «لمحمد بن الغلام».

وبعد موت الغلام انقسمت القاديانية إلى فرقتين:

أ ـ الأولى وضع لها نور الدين الخليفة الأول للقاديانية، وغلب على اسـم هـذه الفرقة الأحمدية، ولهـا نـشاط كبـير في دول أوروبـا وأفريقيـة. وقـد وضـع الإنجليز تاج الخلافة على رأسه، فتبعهُ المريدون، ومن أهم مؤلفاته كتـاب: فصل الخطاب.

ب ـ الفرقة الثانية: تولَّى قيادتها محمد علي وخوجة كمال الدين، وأطلـق عليهـا اسم القاديانية اللاهورية، وهذه الجماعة تنظر إلى غلام أحمد ميرزا عـلى أنـه مُجدد فقط ولكنهما لا تتباعدان وبخاصة أمام المشاكل.

وقد قدّم محمد علي: المُنظِّـر القاديـاني ترجمـة محرفـة للقـرآن الكـريم إلى الإنجليزية، ومن مؤلفاتـه: حقيقـة الاخـتلاف، النبـوة في الإسـلام، والـدين الإسلامي.

وللخوجة كمال الدين: كتاب المثل الأعلى في الأنبياء، وله كتب أخرى.

هذا ويعتقدون أن الله يُصلي ويـصوم وينـام ويـصحو ويكتـب ويُخطـئ ويجامع ـ تعالى الله عما يقولون عُلوّاً كبـيراً. وبمقـولتهم هـذا يـشبهون اليهـود وإلههم (يهوه).

---

(1) ضحية الإسلام ليار محمد ص 34.

كما يعتقد القاديانيون بأن إلههم إنجليزي وأنه أُوحي للميرزا غلام أحمد باللغة الإنجليزية أيضاً وأن غلام أحمد كان هو أفضل الأنبياء جميعاً. ويعتقدون بأن جبريل عليه السلام كان ينزل على الغلام وأنه كان يُوحي إليه، وإن إلهاماته كالقرآن عيناً بعين.

وإنّ من عقائدهم أن مدينة قاديان: مدينة مقدسة كالمدينة المنورة ومكة، بل وأفضل منهما وأرضها حرم، وهي قبلتهم التي يحجون إليها، وقدسيتها تأتي من اكتشاف الغلام قبر المسيح المولود في فلسطين بمدينة قاديان دون أن يقدم أي دليل مادي ملموس على مقولاته.

وقد نادت القاديانية صراحةً بإلغاء عقيدة الجهاد، وطالبت بالطاعة العمياء للحكومة الإنجليزية لأنها حسب زعمها ولي الأمر بنص القرآن. وكل مسلم عندهم كافر حتى يدخل القاديانية كما أنه من يزوج ابنته إلى مسلم فهو كافر، مع إباحة علنية لشرب الخمر واستعمال الأفيون والمخدرات.

تاجرت القاديانية بالإسلام، وادعتهُ، حتى قامت ثورة شعبية في باكستان عام 1953م ضد الانحرافات، وضد تولية أحد زعمائها منصب وزير الخارجية، وقد طالبت هذه الثورة اعتبار الطائفة القاديانية باعتراف الدولة بأنها أقلية غير مسلمة. وقد استشهد في هذه الثورة أكثر من عشرة آلاف من المسلمين، ولكنهم نجحوا في إقالة الوزير ظفر الله خان من الوزارة (وقد كان وزيراً للخارجية الباكستانية).

عُقِدَ في شهر ربيع الأول 1394هـ الموافق أبريل 1974م مؤتمر كبير لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، حضره ممثلون للمنظمات العالمية الإسلامية من جميع أنحاء العالم وأعلن المؤتمر كُفر هذه الطائفة وخروجها عن

الإسلام، وطالبوا بمقاومة خطرها وعدم التعامل مع أنصارها من القاديانيين وعدم دفن موتاهم في قبور المسلمين.

لقد مَنَعَت الطائفة أنصارها من الحج إلى مكة المكرمة، وحولوا حجهم إلى مدينة قاديان.

وآمن غلام أحمد بعقيدة التناسخ والحلول، إضافةً إلى ادعائه بأنه ابن الله ومن مائه فهم يقيمون علاقات وطيدة مع إسرائيل التي فتحت لهم المراكز والمدارس، وجعلتهم يصدرون مجلة تنطق باسمهم/ وسمحت لهم بطباعة الكتب وتوزيعها في أنحاء العالم.

فهم يرتبطون بعقائد سلوكية مع الحركات الباطنية، مع تأثرهم بكثير من التقاليد المسيحية واليهودية رغم ادعائهم الإسلام ظاهرياً.

ويعيش معظم القاديانيين الآن في الهند وباكستان، والقليل منهم يعيش في إسرائيل والعالم العربي، وهم يسعون بمساعدة الاستعمار الغربي للحصول على مراكز حساسة في أماكن وجودهم.

وللقاديانية نشاط كبير في إفريقيا، وبعض الدول الغربية، وبخاصةٍ في بريطانيا. ولهم في إفريقيا وحدها أكثر من خمسة آلاف داعية متفرغين لدعوة الناس إلى القاديانية ونشاطهم الواسع يؤكد دعم الجهات الاستعمارية لهم.

تحتضن بريطانيا القاديانيين وتيسر لهم سبل الحياة والتوظيف في الدوائر الحكومية وإدارة الشركات والمفوضيات، وتتخذ منهم ضباطاً كباراً وبرتب عالية في مخابراتهم السريّة.

فهم ينشطون في المجالات الثقافية، ولديهم الكثير من الأطباء والمهندسين والعلماء، وتَخُصّهم بريطانيا بقناة فضائية باسم التلفزيون

الإسلامي بإدارة قاديانية، ومعظم النشاطات الخارجية هذه تعود إلى الفرقة الأولى الأحمدية.

ـ قام غلام أحمد خلال دعوته بتنبؤات كثيرة، وقد ثبت كذبه فيها، وفشل فشلاً ذريعاً أمام مريديه وأنصاره، ولكن استمرارهم على دعوته كان سببه تحقيق مصالحهم عن طريق الحكومة الإنجليزية الراعية لهذه الحركة الهدَّامة. فانفرد لنفسه بنوع من الخمر واسمه وقد كانت الرعاية البريطانية تؤمنه له بشكل دائم، وهو أحد أنواع الخمور شديدة السكر.

لقد جاء في كتاب «انظر كلمة الفصل ص 105»: أن الله قد أنزل محمداً ﷺ مرةً أُخرى في قاديان لينجز وعده، والمسيح الموعود هو محمد رسول الله، جاء على الدنيا مرةً أخرى لنشر الإسلام.

وبسبب المساعدات الكبيرة التي تقدمها الدول الاستعمارية ـ وبخاصة بريطانيا ـ إلى القاديانيين قاموا ببناء عدد كبير من المساجد في بريطانيا وإفريقيا، إضافةً إلى مساجدهم، ففي الهند وباكستان بلغ عددها المئات، وقيل: إن عدد المساجد الآن أصبح بالآلاف بسبب الدعم المالي الكبير الذي يُغدق عليها ليلاً نهاراً.

الأحمدية والقاديانية.. في ثوبها الجديد

إن الأمة العربية والإسلامية تعيش اليوم إرهاصات نهضة حديثة تتواكب معها منطلقات علمية واقتصادية ودينية ترتكز على أسس واقعية، وضمن كل ما يحدث على الساحة العربية والإسلامية، تظهر معالم المؤامرة لتفتيت القوى، وتمزيق الكلمة، وإشعال نار الفتن وعند ظهور الحركة القاديانية في منتصف القرن الماضي بتخطيط ودراسة من دوائر الاستعمار

البريطاني في الهند للعمل المبرمج لتدمير وحدة الكلمة، وإيجاد شرخ بين أفراد الأمة مع عملية إنهاء متعمد ومدروس، ظهر غلام ميرزا المدعوم من الحكومة البريطانية ليدعي النبوة، وظهرت الردود العلمية، والحوارات الجادة فهبط من ادعائه للنبوة إلى كونه المسيح الموعود. وبعد الفشل الذريع الذي لحق به ادعى أنه المهدي المنتظر والغاية الكبرى من كل هذه الدعاوى الباطنة التمزيق والشرخ وإضعاف هذه الأمة وإشغالها بأمور جانبية تبعدها عن أسس النهضة، ومنطلقات المستقبل الواعد الخير. وإن الدعم الذي نجده للقاديانية والأحمدية في بريطانيا وأوروبا وأمريكا وأفريقيا والمحطة الفضائية التي تبث بكل اللغات مدار الأيام ليحكم علينا أن نتوقف لنناقش النتائج التي حققتها.

ومن أهم هذه النتائج التي تحققت من هذا الدعم:

1 ـ انتشار الحركة وتزايد عدد المنتسبين إليها بالإغراء المادي والمعنوي.

2 ـ الشرخ والتمزيق والانقسام في العمل الإسلامي بمحاولة استمالة العديد من المسلمين الجدد إليها لجهلهم بالإسلام الحقيقي.

3 ـ الدعوة إلى إبطال الجهاد ضد الاستعمار واليهود حيث أوجدوا مركزاً كبيراً لهم في فلسطين المحتلة لاستمالة الشعب الفلسطيني للحركة والتعاون مع اليهود، والهجوم على كل المجاهدين الذين يحركون العمل الفدائي لاسترداد الأرض المسلوبة.

4 ـ تكفير المسلمين الذين لا ينتسبون إليهم، ويعتبرونهم عصاة لله ولرسوله، بعدم إيمانهم بالمسيح الموعود غلام ميرزا أحمد وهذا يكفي لتحطيم وحدة الصف والكلمة.

5 ـ إظهار تفسيرات جديدة للقرآن الكريم تتواكب مع عقائدهم وأفكارهم وتخالف كل الثوابت والحقائق العلمية التي أجمعت عليها الأمة.

6 ـ إلهاء الأمة بالخلافات الجانبية، وإبعادها عن العمل الجاد لنهضة عربية إسلامية حقيقية، وهذه من أكبر الأهداف للمؤامرة على العالم العربي والإسلامي لإبقائها في حالة استهلاكية لمنتوجات الغرب وسوقاً لمصانعهم وبذلك يحققون تجهيل وإضعاف هذه الأمة.

7 ـ تكريس موضوع المهدي المنتظر وإظهار مكانته وقيادته، وإحياء أفكار قديمة ميتة لإبعاد الوعي العربي والإسلامي عن الفكر العلمي والواقعي وفي هذا الأمر تتم المؤامرة على عدم تفعيل العقل العربي والإسلامي للحداثة والمعاصرة والنهضة، والعجب كل العجب أن يعاد نشر هذه الأفكار من جديد وعلى الساحة العربية وتسمح وزارات الإعلام بإصدار أمثال هذه الكتب ونحن نتطلع إلى الألفية الثالثة التي نصبو فيها إلى ازدياد الوعي العلمي، وإبعاد الخرافات، والشعوذة، والضلالات وكتب السحر، والجن، والشياطين، والأساطير.

حيث أعلنت المجامع الفقهية في العالم العربي والإسلامي موقفها واضحاً وصريحاً ببطلان هذه الحركة القاديانية والأحمدية والبهائية، فرابطة العالم الإسلامي قد أعلنت موقفها الصريح، والأزهر قال كلمته، وجماعة كبار علماء الهند وباكستان أصدروا كتباً بالرد عليها ومن ثم نرى إحياء لهذه الحركة في هذه الأيام، وانتشار كتبها من جديد فلا ندري ماهو الدافع، وما هي الغاية، ولماذا يسمح لهذا الفكر الظلامي الجامد والخرافي أن يظهر بلباس جديد ودعوة فردية وجماعية على ساحتنا العربية والإسلامية.

ومن هذا المكان أدعو كل الأمة والعاملين في الفكر، والعلم، والنشر ومن بيدهم القرار إعادة النظر بأمثال هذه الكتب ودراستها وتحليلها والرد عليها لتعي الأمة دورها الحقيقي في الوعي المستقبلي وما يخطط لها، وكل ذلك يتم ضمن مؤامرة كبرى لازدياد الشرخ والتمزيق وشرذمة الفكر الناضج العلمي الذي بدأ يتنامى في أمتنا العربية والإسلامية.

دراسة موجزة عن الأحمدية (القاديانية):

قيل للأحنف بن قيس: إن المختار بن عبيد يزعم أنه يوحى إليه فقال: صدق وتلا قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾الأنعام 121.

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾الأنعام 93.

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾المائدة 3.

والباحث في التاريخ الإسلامي يلمح أنه يبتلى بأناس لهم نفوس نزاعة إلى الغواية، والضلال وحب الرئاسة والشهرة وتزداد حالتهم سوءاً إلى أن يصلوا إلى ادعاء النبوة أو أنهم المهدي المنتظر أو المسيح الموعود أو غيره.

والعديد منهم قد ظهر كمسيلمة الكذاب، وسجاح، والأسود العنسي، والحارث بن سعيد، وإسحاق الخرس ثم ظهر في الهند غلام ميرزا أحمد مبتدع القاديانية.

ولد غلام ميرزا أحمد عام 1838م 1252هـ وتعلم ثم عين نائب المندوب السامي في (سيالكوت) وفي سنة (1876م) مرض والده

فزعم غلام ميرزا أحمد أنه نزل عليه وحيٌ من الله بأن أباه سيموت بعد الغروب.

واستهجن المسلمون دعواه، ثم أصدر بياناً بأنه المسيح المنتظر، ثم انتقل إلى دلهي داعياً إلى نحلته فواجهه العلماء بالإنكار، ثم عاد إلى لاهور عام 1892 وناظر بعض العلماء، ولم يبينوا لنا نتائج هذه المناظرات، وفي عام 1898 وضع لأتباعه قانوناً بمنع الزواج ممن لا يصدق بنبوته، وبنى مسجداً في قاديان وفي سنة 1901 أعلن مبدأ التفريق بيه وبين المسلمين، ثم أصدر مجلة سماها مجلة الأديان عام 1902 لنشر مذهبه، وفي عام 1907 قامت حركة وطنية في البنجاب فانحاز غلام ميرزا احمد إلى جانب الحكومة وأذاع منشوراً دعا أتباعه إلى موالاة الحكومة ومساعدتها على إخماد الحركة الوطنية، وبدأ يدعي الوحي من الله وقال: بل هي حقائق أوحيت إليّ من رب الكائنات.

وجاء في كتاب البشارة الإسلامية الأحمدية: أنّ أحد دعاتهم وهو أبو العطاء الجلندهري كلم الله أحمد يعني غلام ميرزا أحمد بجميع الطرق التي يكلم بها أنبياءه لأن الأنبياء في وصف النبوة سواء، وهو دجل محض وكذب وافتراء لأنّ ادعاءه مخالف لما ذكره محمد ﷺ خاتم النبيين: فقد ذكر في صحيح البخاري أنّ رسول الله ﷺ قال (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي). وفي حديث آخر قال في نهايته (فأنا اللَّبِنَة وأنا خاتم النبيين). وفي رواية مسلم (فأنا موضع اللَّبِنَة جئت فختمت الأنبياء).

وعلى هذا انعقد إجماع المسلمين بأنه انتهت به النبوات وأصبح بمنزلة المعلوم من الدين بالضرورة. وقال ابن كثير في تفسير (وخاتم النبيين): قد

أخبر الله تعالى في كتابه ورسوله في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال مضل).

وقال الألوسي في تفسيره: وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة وأجمعت عليه الأمة، فيكفر مدعي خلافه.

واعتمد هو وجماعته أسلوب المباهلة وانتصر عليه العلامة مولوي ثناء الله، ثم أرسل له دعاء إن كان على الحق أن يميت المولوي ثناء الله، وإن كان على الباطل أن يميته فأماته الله بعد سنة من هذا الدعاء عام 1907 والرسالة كانت عام 1325 هـ ومات في العام نفسه.

وأما الأستاذ المولوي ثناء الله فقد عاش طويلاً بعد ذلك، ومما جاء في كتاب الاستفتاء: أورد خطاباً له من الله قال الله تعالى: أنت مني بمنزلة توحيدي وتفريدي، أنت مني بمنزلة عرشي، أنت مني بمنزلة ولدي.

ومما ذكر في كتب صدرت من غلام ميرزا أحمد وجمعها الشيخ المولوي (قال الله إن أمرك إذ أردت شيئاً أن تقول له كن فيكون).

ومما صدر من الكتاب كتاب أحمد رسول العالم الموعود ورد فيه يخاطب أتباعه فاذكروا دائماً أن الحكومة الإنكليزية هي رحمة وبركة لهم، فهي الدرع التي تقيكم، إن الإنكليز خير ألف مرة من المسلمين الذين هم أعداؤكم.

وعلى أتباعي أن يقدروا هذه الحكومة الإنكليزية ويظهروا لها شكرهم واعترافهم بالجميل بالولاء وحسن الطاعة وقد نشر هذا الكلام في كتاب (تعاليم المسيح المنتظر).

وبما نقل عن الدكتور زكي كرام والأمير شكيب أرسلان أنه قرأ في بعض كتب غلام ميرزا أحمد أنه يحمد الله حيث ولد تحت راية إنكليزية وبعيداً عن المسلمين.

ومن ثم بعد موت خليفته نور الدين انقسموا إلى فرقتين، قاديان ورئيسها محمود بن غلام أحمد وهذه الشعبة تعتبر غلام ميرزا أحمد (نبياً مرسلاً).

وأما الفرقة الثانية فهي الأحمدية وبدأت تتظاهر بأنها فرقة مسلمة تؤمن بالله وبكل القرآن الكريم ولها تفسيرات خاصة، وتدعي أن غلام ميرزا أحمد (المهدي المنتظر) وهو مصلح ومجدد لا نبي، وهم الآن يحاولون التظاهر بكل دعوتهم أنهم مسلمون يؤمنون بالله وبالقرآن الكريم ومذهبهم في الفقه مذهب أبي حنيفة، وذلك حتى يبينوا للناس مظهراً جديداً، وأنهم جماعة إسلامية متوحدة، وهذا ما ظهر في كتاب آخر صدر في دمشق وسماه (النبأ العظيم) للقادياني محمد منير إدلبي وسيصدر كتاب آخر بترجمته اسمه، (فلسفة التعاليم الإسلامية) لغلام ميرزا أحمد.

ويظهر من ارتباطهم بالحكومة الإنكليزية مركزهم الكبير هناك والإذاعات والمحطة التلفزيونية الصادرة بعدة لغات، وقال خليفة القاديانيين في احتفال كبير بعد دخول الإنكليز إلى بغداد وبيت المقدس: إن رقينا وتقدمنا متوقف على رقي الحكومة الإنكليزية وتقدمها، فحيثما اتسعت رقعتها، تيسر لنا ميدان جديد للدعوة وصار لهم أكبر مركز في الشرق الأوسط في حيفا.

ولقد صدر هذا الكتاب بموافقة وزارة الإعلام في سورية تحت رقم 44131 تاريخ 4/ 3/ 1999 وسماه صاحبه (النبأ العظيم) ومؤلفه محمد منير إدلبي يقع الكتاب في (375) صحيفة ضمن سلسلة الذين يجهلون الإسلام (5).

وتحت العنوان دونت هذه العبارة (النبأ العظيم ـ دراسة تحليلية من القرآن والحديث الشريف والكتاب المقدس تثبت ظهور الإمام المهدي المنتظر عليه السلام بالبرهان العلمي والمنطق السليم).

يبدأ كتابه بالهجوم على اليهود وفسادهم وقتلهم الأنبياء ويؤكد أنهم هم (المغضوب عليهم) في ص 11، ثم ينظر إلى العالم الإسلامي بنظرة سوداوية ويستشهد بحديث "يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا يبقى من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم السماء منهم تخرج الفتنة وفيهم "تعود" مشكاة المصابيح ـ كتاب العلم (وهو ضعيف).

وهو مما أخرجه في المشكاة وضعفه المحقق لوجود رجل فيه قد شاخ وخرف.

واستشهد المؤلف بآية ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ النساء 142.

وبين حالة المسلمين اليوم وأنهم ليسوا مسلمين (بالإجماع) ولم يخصص أحداً ولهذه الآية توضيح في مجلة كلية الدعوة العدد 16 رداً على موضوعه الذي استشهد له.

وهاجم العلماء وقال كلهم جهالات وبدعات وموائد وموالد واستفاض ص 17.

ومن المضحك المبكي أن فسر الأمر (القرآن) وأنه سيعرج بعد ألف سنة من بعثة الرسول ﷺ واستشهد بآية ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ السجدة 6.

وجعل الأمر هنا القرآن وأنه سيعرج بعد ألف سنة والرازي فسر الأمر الإلهي بالأوامر والعروج للأعمال ولا ندري كيف يعرج القرآن وليس أي دليل على قوله لأن كتاب الله هو الأزلي الأبدي إلى أن تقوم الساعة. ثم في ص 25 يحدد (1300) زمن المتنبأ به عن بلوغ المسلمين ذروة ضلالهم بسبب بعدهم عن كتاب الله ليهيئ لنزول المسيح الموعود أو المهدي المنتظر أو النبي ميرزا غلام أحمد.

ثم يستشهد بآية ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الجمعة: 3 ـ 4 ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ تعني من فارس، أي أن الإيمان الحق سوف يرتفع من بين الناس يعرج إلى السماء وأنه لن يعود إلى الأرض حتى يأتي به رجل من قوم سلمان الفارسي، أي رجل من فارس، وهذا مصداق لحديث شريف «لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله» صحيح مسلم على زعمه.

ويبرهن على أن القرن الثالث عشر من بعثة رسول الله ﷺ فيه تتحقق النبوءة، ويكون زمن بعثة الإمام الموعود الذي يعيد الإيمان من الثريا وهو عجمي.

ويقول الإمام الرازي (وآخرين منهم هو عطف على الأميين، وقال مقاتل: يعني التابعين من هذه الأمة لم يلحقوا بأوائلهم، وفي الجملة معنى جميع الأقوال فيه كل من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة والمراد بالأميين العرب، والآخرين سواهم من الأمم، وقال بعض المفسرين: هم الأعاجم يعنون بهم غير العرب أي طائفة كانت) فمن أين أتى بهذا الدليل لإثبات نبوة أو مجيء النبي الموعود أو المهدي أو.. ويستشهد بحديث ضعيف (ستفترق أمتي...) ص 31 ـ 32.

ثم بعد هذا الافتراق سوف يأتي الإمام الموعود ليحيي العالم من جديد في ظل المهدي الروحي الذي سيفتح له العالم بنوره وهديه ورحمته؟ ومات ولم يتحقق له أي شيء؟

ويركز على المهدي في ص 47 ويستشهد بحديث «ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله عز وجل رجلاً منهم يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» وأحاديث المهدي كلها ضعيفة، ويتناقض مع نفسه فمرة يقول من الفرس ثم يستشهد بحديث منا أي من العرب.

ويستشهد بقول الشافعي أنه من أهل بيت النبوة والمهدي فارسي من سمرقند وليس من بيت النبوة؟

ولا يفرق بين فيج أعوج وثبج أعوج. وتقول بفيج أعوج ويهاجم العلماء ويقول في الصحيفة 62 (العلماء قد صاروا بجهلهم هم فاتنة الشر التي أوصلت الخراب حتى إلى المساجد (إلا مساجدهم 6000) وفتنت الناس عن دينهم الحق).

ويقول بأن هذا المسيح الموعود يرد الدين وهو فاتح الدنيا وغلام ميرزا أحمد لم يرد الدين في الهند وباكستان وإنما أوجد فتنة ولم يفتح الدنيا إلا للإنكليز.

ثم بدأ بالدليل على ظهور المهدي بشهادة الخسوف والكسوف في رمضان، وبين في ص 116 الحديث «إن لمهدينا آيتين لم تكونا منذ خلق السموات والأرض ينخسف القمر لأول ليلة من رمضان وتنكسف الشمس في النصف منه» الدارقطني.

ثم يأتي الاستشهاد بالتناقض أن الخسوف تم في 13 رمضان والكسوف في 28 رمضان وهذا دليل على كذب دعواهم من أدلتهم.

ومما يدلنا على اهتمام الإنكليز بهذا الداعي الكذاب أن الدكتور كرامر مدحه في ص 126 وقال عنه في ص 126: ميرزا غلام أحمد شخصية فريدة.

ويبدأ بالانحراف الواضح في ص 139 بأن الله يحدثه ويوحي الله إليه ويعلمه حقائق الإسلام والكتاب وأن جعله الله الإمام المهدي المنتظر الذي ينتظره المسلمون جميعاً ليملأ الأرض بالإسلام عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً (ومات ولم يحقق ذلك) ثم يعود ليؤكد آية الخسوف والكسوف بآية (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) في رمضان وهذا دليل نبوة المسيح الموعود الكذاب؟ ويفسر الآية ص 65 بأنها آية من آيات براهين ظهور المهدي الموعود؟

ويأتي بدليل جديد ويتلوه شاهد منه، ومن أهله وهو الإمام المهدي المنتظر.

ومن ثم يستطرد في شرح صدق نبوته من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ الحاقة: 53 وما قبلها.

وعدم قتله دليل على صدق نبوته ولكن الآية دليل على أن الرسول لم يتقول على الله أي حكم من هواه وإنما اتبع ما أوحى الله إليه وليس فيها أي دليل على صدق النبوة أو عدم صدق النبوة.

ويقول ميرزا غلام أحمد (كذلك شرفني بمكالمته ومخاطبته).. أي بالوحي ص 193 والله عز وجل هو الذي أنبأه ليبشر الناس بها ص 193.

ويؤكد بأن دعوته ستنتشر وتملأ الدنيا ص 197 وبشائر له ولجماعته بالعلو والنصر والتوفيق.

وفي الكتاب كلام كثير يظهر فيه أنهم قد عادوا إلى الإسلام الصحيح كاملاً، وإذا لم نؤمن بغلام ميرزا غلام أحمد كنا مكذبين ببيان رسول الله ﷺ

ونكون قد عصينا الله ورسوله، والكتاب في الحقيقة هو تطور في حركـة الأحمديـة ليظهروا للناس أنهم من أمة محمد وأنهم يؤمنون بالقرآن والإسلام كلـه، ولم يـرد على سؤال جاءه من المناظر بأنه مات في المرحاض على وجهه، ويهـاجم الـدكتور محمد سعيد رمضان البـوطي في كـل مـا قالـه عـنهم في كتابـه (كـبرى اليقينـات الكونية).

وأختم كلامي بأنها تطورت لتشكك النـاس بالحقـائق التـي تـؤمن بهـا وتدعي الإسلام والإيمان ولا تؤمن بالجهاد وأبطلت الجهاد نهائياً ضد الإنكليز واليهود، والجهاد بالدعوة والكلمة فقط، لأن المسيح الموعود سيكسر الصليب ويمنع الخنزير ويوقف الحروب وقد أوقفها هذا المـدعي الكـذاب رغـم كـون إسرائيل تتعدى علينا وعلى مقدساتنا وأخذت أرضنا فكيف نبطل الجهاد تحت راية دولتنا لاسترداد حقوقنا.

دراسة نموذجية لـ ميرزا غلام أحمد القادياني
فلسفة تعاليم الإسلام

الكتاب صدر بتقديم محمد منير إدلبي لِـ ميرزا غلام أحمد القادياني، وتصدّر الإهداء إلى رئيس المحافل القاديانية في سورية الذي رحل عن هذه الحياة مصراً على انحرافه.

ويظهر الكتاب بأنه بيان وتوضيح في مؤتمر الأديان ليحاول إيهام الناس أنه الوحيد المدافع عن الإسلام والقرآن الكريم والنبي محمد ﷺ.

وفي الصفحات الأولى وضح اعتماده على القرآن الكريم بعبارة غامضة: (لكي لا نتوسع فيما أسند إليه (أي محمد ﷺ) من سلطة التمثيل (الأسوة) بحيث ينشئ من عنده كتاباً جديداً)، وهو هجوم مبطن على السنة.

وفي عنصرية حاقدة يحاول الهجوم على العرب حيث قال في ص 37 (لأن الأمة التي بعث نبينا محمد ﷺ منها كانت أكثر الأمم همجية، ولم يكن قد بقي لديها شيء من الآداب الإنسانية) ونسي وتناسى صفة الكرم والجود والمروءة والوفاء والشجاعة وحلف الفضول وإغاثة الملهوف وغيرها من القيم التي كانت منتشرة في هذه الأمة العربية.

وفي فهم خاص للمعاني يفسر بعض الكلمات بشكل يدل على جهل تام فقال: الكافور مشتقة من الكفر.

وفي تفسيره السائل والمحروم، فسر المحروم من قوة النطق، والمحروم كالكلاب والهررة والعصافير كما فسر قوله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي عليكم ألا تنفكّوا منهمكين في مواساات القوم بدون كلل وملل، ليبعد موضوع الجهاد بأي وسيلة، لأن الجهاد معطل في عقيدته ونظرياته وفلسفته.

ويظهر بشكل جلي أنه يؤمن بوحدة الوجود بقوله: (الذات اللطيفة والكامنة في كل شيء كمون النار في الشرر) وهي نظرية الحلول والاتحاد.

ويحاول إسقاط أهمية الدليل العقلي لوجود الله عزَّ وجلَّ، ومن أجل الوصول إلى غاية في نفسه أنه خاطب الله وكلَّمه وتوصل إلى قمة الكشف والوحي أكد أن الإنسان الكامل يصل في حالة القرب من الله إلى الوصال والمكالمة والمخاطبة. ص76.

كما يتبين من عباراته في ص 84 أنه يؤكد وجوب الحسن على الله، وبهذا يظهر بأنه معتزلي بوجوب الأصلح على الله وذلك بقوله: (استوجب عملهم هذه كنتيجة له فضلاً من الله تعالى هو أنه يهديهم سبيله حتماً) وأهمل المشيئة الإلهية.

ثم يخالف المعتزلة ويؤكد أن الصالحين وهو منهم يتشرفون في هذه الدار برؤية الله عزَّ وجلَّ. (ويشعر القارئ بأنه قد رأى الله عز وجل) وفي فهم خاطئ يفسر قوله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار) البقرة 26. قال: إن الله تعالى قد شبه هنا الإيمان بالجنة التي تجري فيها الأنهار، وفي هذا التشبيه فلسفة عليا.

ثم يعود ليؤكد فكرة وحدة الوجود بأن الإنسان يتحد بالله اتحاداً كاملاً ليصل إلى فكرة الاتحاد والحلول التي يقول بها النصارى عن المسيح عليه السلام، ليصل إلى أنه هو المسيح الموعود الذي اتحد مع الله عزَّ وجلَّ.

ويخالف العقيدة بشكل واضح بقوله في ص 100 (كلمات الله التي فاضت من فم الله سبحانه وتعالى) وهذه صفة لم تذكر في القرآن، ولا يجوز

إضافة أي صفة لله لأن الصفات موقوفة على ما جاء في القرآن أو ما جاء به الرسول ﷺ وحياً.

وبشكل مضحك يفسر ويحلل كلمة برزخ بأنه بروزخ.

وبتفسير باطني إشاري يفسر قوله تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ فسرها بقوى النفس السبعية والبهيمية والواهمة.

كما يؤكد أن النعيم في الجنة روحاني وليس مادياً مطابقاً لآراء المسيحية في ص 109، ثم يؤكد أن الجنة والجحيم ليستا شيئاً مادياً جديداً من الخارج بل هما من آثار الحياة الروحانية وظلالها.

ثم يعود ليفسر القرآن من عنده بأن ناقة الله التي جاءت لقوم سيدنا صالح عليه السلام، إنما هي النفس البشرية.

وفي ص 133 وبعد مقدمات بأن الوحي لم ينقطع بعد محمد ﷺ قال: (وإننا ولا ريب بحاجة إلى الوحي المباشر حتى نكتسب العرفان الكامل) و الله سبحانه وتعالى قد (ترك لهم باب المكالمة والمخاطبة مفتوحاً أيضاً) ويستشهد بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ فيقول: إن عباد الله الصالحين يتلقون الوحي من الله عندما يصيبهم الخوف والحزن، وأن الملائكة يتنزلون عليهم ويطمئنونهم بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا، والأولياء يتلقون البشارة بالوحي والمكالمة في الحياة الدنيا، وكل هذا مقدمة ليعلم الناس أنه قد تلقى هذه البشارة مكالمة من الله مباشرة.

وفي ص135 يؤكد أن الوحي مكالمة القادر القدوس مع عبد من عباده الأخيار، لأن الوحي الإلهي يستلزم أن يكون هناك حوار بين الله وعبده

فيقول: (العبد يسأل ويسمع الجواب من الله كلاماً لذيذاً فصيحاً) وهذا مخالف للقرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ الشورى 51.

وفي ص 138 يورد حديثاً لا أصل له وينسبه إلى الرسول ﷺ (من رآني فقد رأى ربه).

وفي ص 138 يدعي أنه تشرف بالمخاطبة والمكالمة من الله عزّ وجلّ جهاراً.

وفي ص 140 يقول: (لم يرد الله أن يوصد باب الوحي في المستقبل فيهلك العالم لأن أبواب وحيه ومكالمته سبحانه مفتوحة إلى الأبد).

ملاحظات هامة:

1 ـ حاول المقدم لهذا الكتاب أن يغير الكثير من عبارات غلام ميرزا أحمد، وهي محاولة ترقيع وتحريف وتسويق لفكر القاديانية الجديدة المسماة بالأحمدية، فإذا قُبِل هذا الكتاب عرضت أفكارهم الحقيقية بشكل كامل.

2 ـ الكتاب استند على أقوال الكثير من الصوفيين أمثال ابن عربي والحلاج، وابن سبعين، والسهروردي المقتول، والجيلي، في الكشف والإلهام لفتح باب موصد وهو الوحي المباشر، وهذا تكذيب للقرآن الذي ختم الوحي بمحمد ﷺ.

3 ـ الكتاب جاء بأسلوب جديد خداع وبأنه مع القرآن الكريم ولكن يفسر القرآن بالتأويل الشخصي، غير معتمد على دليل لغوي صحيح، ولا على ما جاء في كتب التراث، واعتمد على التفسير الإشاري الصوفي، وعلى التفسير الباطني الإلهامي الكشفي، ويوهم الناس أنه مع النبي محمد ﷺ.

4 ـ يحاول إقناع القارئ بأن غلام ميرزا أحمد قد عاش تجربة روحية عالية توصل فيها إلى المكالمة والمخاطبة، وقد تكلم مع الله في جلسة واحدة عشرات المرات، وهو يسأل والله يحاوره ويجيب عن أسئلته. وأضمر في بداية الأمر أنه هو المقصود، ثم كشف عن غاياته في نهاية الكتاب بأنه قد وصل إلى درجة الوحي الكامل مع الله مباشرة، وهذا يخالف القرآن بشكل صريح.

5 ـ لقد انحرف كثير عبر تاريخ التصوف، وتوهموا أنهم قد وصلوا إلى الكشف والإلهام والوحي. وفي دراسة كاملة حول هؤلاء وُجِد أنهم قد توصلوا إلى إشراقات نفسية كما للبوذيين والبراهمة وغيرهم عبر المجاهدة للنفس فاتصلوا بأرواح شيطانية (أو حديث نفس) ويحسب الواحد منهم أنه يكلم الله وهو يكلم قوى روحانية شيطانية يتوهم، فيها ما يتوهم ويصرح بأمور تخالف الشريعة والعقيدة.

6 ـ إن غلام ميرزا أحمد قد مر بتجربة طويلة ادعى فيها الألوهية، ثم النبوة، ثم أنه المسيح الموعود، ثم المهدي، وبدأ الأحمديون يُسوِّقون للناس بأنه ولي من أولياء الله الصالحين وهو من المجددين، وأدلى الأحمديون المنشقون عن القاديانية بأفكار تخالف ما جاء في كتبه الأولى التي وضح فيها أموراً تخالف الإسلام والقرآن والعقل.

7 ـ في نهاية الكتاب حاول مجدد هذه الطريقة أن يقنع الناس بفكرة غلام أحمد ميرزا في إبطال الجهاد، وأن الله قد يتدخل للدفاع عن المظلومين بشكل من الأشكال.

8 ـ إن ظهور غلام ميرزا أحمد ما هو إلا مخطط استعماري بريطاني النزعة والدعم، لتمزيق المسلمين وسلخهم عن تراثهم وعن ثوابتهم وعن القرآن والسنة.

العولمة

مبررات انتشار العولمة:

أولاً: زعم حماية الأقليات الدينية: ما كان يفوت حراس النظام العالمي الجديد استغلال الأقليات الدينية خاصة في البلاد الإسلامية.. فهاهم صناديد «الكونجرس» الأمريكي يصوغون قانوناً تحت مسمى **«الانعتاق من الاضطهاد الديني»** هذا القانون الذي قيل إن وضعه كان لمصر العربية بالتحديد كما يستخدم بوصفه ورقة ضغط على الحكومة المصرية عندما يقتضي الأمر ذلك، وتم استئجار بعض ضعاف النفوس من «الأقباط» بمصر للكتابة في هذا الموضوع، وفتحت كبريات المجلات الأمريكية لهم صفحاتها.. هل تظن أن «النيويورك تايمز» أو «الواشنطن بوست» تفتح صفحاتها لمسيحي مصري يعيش في صعيد مصر من أجل حقوق الإنسان، أم من أجل غاية في نفس الكونجرس الأمريكي؟

إن قراء الواقع تكشف أن النظام الجديد هذا يسعى باتجاه إثارة القلاقل والفتن لدى الإنسان العربي في القرن المقبل علينا ليتحقق بذلك أكثر من هدف منها:

I ـ إشاعة أن الدول العربية غير مستقرة، وبذلك يبرر تدخله في شؤونها الداخلية في أية لحظة.

II ـ خلق جو عام من التوتر بين الفئات والملل والنحل التي تتكون منها بنية المجتمعات العربية الأمر الذي يؤثر سلباً على مشاريع التنمية والنهوض بها فتظل دائماً في موقع التابع.

ثانياً: زعم حماية الديمقراطية وحقوق الإنسان: من عوامل التدخل أو ذرائعه حماية الديمقراطية، والحق، وباختصار أنها ذريعة لا تصمد أمام النقد ذلك لأن الديمقراطية تنتهك في العديد من المواقع من العالم، لكن لا يتحرك حماة النظام الجديد إلا إذا كان نظام الحكم يرفض الاستسلام والتبعية، أما إن كانت هذه الأخيرة قائمة ومتحققة من انتهاك الديمقراطية ولا خير من هضم حقوق الإنسان، المهم هو الطاعة، وعندها يهون كل شيء!!

ثالثاً: زعم حماية الأقليات الدينية ومصادر الطاقة: وهذا زعم واهن هو الآخر، لأن الأقليات الدينية في عرف الأمريكان تم اختزالهم عند الأمريكان في أقباط مصر، والسنة الموجودين في إيران.. هؤلاء هم الأقليات الدينية، وهؤلاء هم من يمكن تهديد مصر وإيران عن طريقها.. أما الشيشان فليسوا أقلية، ومسلمو فرنسا بقضية الزي الإسلامي ليسوا أقلية، والبوسنة لا تنقذها القوى العالمية إلا عندما تخوفت هذه القوى من احتراق منطقة البلقان مخزن الطاقة[1].

ونقول أن العولمة لم تكن إلا ناتجاً طبيعياً لعمليات التبادل التجاري والتنافس الصناعي والبحث العلمي التي تطورت بتطور الحضارات وارتقت برقي العلم والمعرفة. فقد أدرك الإنسان عبر القرون فوائد عمليات التبادل التجاري والتنافس التي يسّرت له تسخير موارد الطبيعة بشكل أفضل من خلال عمليات التفاضل والمقارنة والاعتماد المتبادل، فجعلت استهلاكه لتلك الموارد أسرع وأفعل حتى في أوقات التغيرات الاقتصادية[2].

---

(1) من موقع www.uruklink.net بقلم د. أمان عبد المؤمن.

(2) من موقع www.alrashad.org بقلم جار الله الجار الله وناصر الشواف.

إضافةً إلى هذا فإن المتابع يلاحظ أيضاً أن مجموعةً من العوامل ساهمت عبر تفاعلها المتنوع والمعقد في الاتجاه نحو العولمة كمستقبلٍ للعالم من أهمها:

1 ـ **عولمة رأس المال:** فالحاجة المتزايدة لأسواق مال عالمية ذات مقاييس موحدة، والنمو المضطرد لاقتصاد الدول النامية، وارتباط الأسواق المالية بشكل حساس أصبح فيه أي اهتزاز في أحد تلك الأسواق يؤثر تلقائياً في الأسواق المالية الأخرى، والنمو المتزايد للشركات متعددة الجنسيات التي ما انفكّت تندمج وتنضم وتفتح أبوابها لأسواق عالمية جديدة. كل ذلك أدى إلى عولمة رأس المال الأمر الذي أدى بدوره إلى زيادة اعتماد الإنتاج على رأس المال أكثر من اعتماده على الأيدي العاملة والخبرات البشرية والموارد الطبيعية كما كان في السابق بحيث أصبح شراء الخبرات البشرية والموارد الطبيعية أحد وظائف رأس المال.

2 ـ **تطور التكنولوجيا وتقدم وسائل الاتصالات والمواصلات.** من صناعة الكمبيوتر إلى النمو السريع لشبكة الإنترنت وزيادة سرعة نقل المعلومات باستخدام الأقمار الصناعية وغيرها من التقنيات.

3 ـ **عولمة الثقافة.** فمع تزايد وسائل الاتصال ازداد غياب ثنائية الذات والآخر وأصبح مألوفاً الحديث عن هويةٍ عالمية، وسقطت الحدود الجغرافية في أعين الباحثين، وتزايدت الصِّلات بين المنظمات ـ غير الحكومية ـ عند الناشطين، حتى أصبح الإغراق في الخصوصية الثقافية المحلية محدوداً، وأصبح الكل يبحث عن مكانٍ له في ميزان ثقافات العالم المتداخلة.

4 ـ **تغييرات وأخطار مستقبلية تجعل مستقبل الإنسانية كلها مبهماً بشكلٍ** يدعو جميع البشر للتعاون على تفادي تلك الأخطار، سواءً كانت أخطاراً بيئية

أو نُدرةً في مصادر المياه أو تزايداً كبيراً في أعـداد البـشر أو أخطـاراً ناتجـة عـن حروبٍ نووية وأسلحةٍ كيماوية وبيولوجية وما إليها.

5 ـ **هيمنة القوة الرأسمالية وصفاء الجو السياسي العالمي لها.** فبعد تداعي الدول والقوى الأخرى خلت الأرض من قوة مماثلـة للغـرب الرأسـمالي بعـد انهيار الاتحاد السوفييتي، وصارت المنظومة الاقتصادية الرأسـمالية تتغلغـل في الأرض بلا منافس ظاهر لفترةٍ من الزمن. وبما أن هذا النظام يهـدف إلى زيـادة الأرباح بكل السبل، فإن قادته عملوا ويعملون على دفع عجلـة العولمـة التـي ستزيد إلى رؤوس أموالهم الطائلة الأرباحَ الكبيرة.

ولنعد قليلاً إلى الوراء لنرى أهم الأحداث العالمية التي أثـرت في مـسيرة العولمة، ولنبدأ من حيث انتهى العالم من الحرب العالمية الثانيـة عنـدما اجتمـع الحلفاء المنتصرون في (بريتينوود) في منتصف عام 1949، وقرروا الاتفاق على معاهدة يصبح بموجبها التداول العالمي للعملات المحلية بقيمة تلك العملات مقارنةً بالدولار الأمريكي، على أن تتعهد الولايـات المتحـدة أن يكـون لـديها مخزونٌ من الذهب يماثل مجموع كمية الدولارات المتداولـة في العـالم، إذ كانـت الولايات المتحدة تملك يومذاك ما يُقدر بثلاثة أرباع مخزون العالم من الـذهب. وكانت هذه أول معاهدة جادة بين الحلفاء لتسهيل عمليـة التبـادل التجـاري ودفع العجلة الاقتصادية. ولكن ما لبثت نـسبة مخـزون الـذهب التـي تملكهـا أمريكا أن تغيرت بشكل سلبي بالغ مع حركة التجارة بين دول العالم، مما دعـا الرئيس نيكسون إلى إعلان توقف دولته عن العمل بإبقاء مخزون ذهـب مماثـل لكمية العملة المتداولة في العالم. وبذلك أصبحت قيمة كل عملة محلية تُقرر في الأسواق المالية حسب قانون العـرض والطلـب، وبـشكلٍ تعكـس فيـه حالـة التبادل التجاري والوضع الاقتصادي لذلك البلد.

وفي السياق نفسه اجتمعت 23 دولة عام 1984 وأسست (منظمة الجات/ الاتفاقية الدولية للتجارة والتعرفة) التي قررت إلغاء حواجز التبادل التجاري والجمارك بين دول المنظمة التي ازداد عددها ليصبح حجم تجارتها يمثل أكثر من 90٪ من عمليات التبادل التجاري العالمي، وتُقررُ في جلسات تلك المنظمة القوانين والمقاييس والأنظمة التي تحكم عمليات التبادل التجاري. وقد اتصف عمل هذه المنظمة بأنه كان عسيراً ومتأثراً بالقوى السياسية والمصالح الاقتصادية للدول الكبرى فيها على الدوام.

ومن ثم أُنشئت (منظمة التجارة العالمية) لتحل محل (منظمة الجات) في بداية عام 1996، ولتكون مجلساً مشرّعاً له نطاقٌ أوسع وقوةٌ مستقلة وصلاحيات أكثر في تقنين عمليات التبادل التجاري العالمي ومتابعة تطبيق قرارات الدول المنظمة وحل النزاعات بينها. وقد أُعطيت تلك الصلاحيات لمنظمة التجارة العالمية لتساهم بشكلٍ فعال في تطبيق الأنظمة واللوائح القانونية بين دول المنظمة ولتسرّع من حل النزاعات التي قد تؤدي إلى اهتزازات في الاقتصاد الدولي في حين كانت سابقتها (منظمة الجات) غير فعالة في تطبيق القوانين وذات نطاق أضيق وقوة أقل استقلالاً.

وبناءً على ذلك وافق أعضاء المنظمة التي تتألف اليوم من 137 دولة في جلسة الأورغواي على توسيع نطاق عمل المنظمة إلى الجوانب التالية:

1 ـ **تحرير التجارة**: وهو من أهم أهداف المنظمة إذ يجب أن تعمل دول المنظمة على خفض الجمارك على البضائع المستوردة وتقنين ووضع مقاييس عالمية لصلاحيات الدول في تحديد الجمارك.

2 ـ إنهاء قوانين تحديد استيراد المنسوجات تحت (معاهدة المنسوجات) بين دول المنظمة في بداية عام 2005.

3 ـ العمل على الوصول إلى اتفاقيات بشأن عمليات التبادل التجاري في السلع الزراعية حيث كانت السلع الزراعية إحدى نقاط الاختلاف وتضارب المصالح بين دول المنظمة مما أدى إلى تعثر محادثات منظمة الجات.

4 ـ العمل على الوصول إلى اتفاقيات بشأن عمليات التبادل التجاري في قطاع الخدمات سواءً كانت مالية أو وسائل اتصالات أو خدمات الأيدي العاملة أو غير ذلك، حيث إنه لم يحدث أي تقدم يذكر بهذا الصدد تحت مظلة قوانين منظمة الجات، ولذلك أُنيط بمنظمة التجارة العالمية أن تحرم على دول المنظمة التفريق بين الدول في حالة عرض لدولةٍ ما خدماتها بحيث إن أي ميزة خاصة بدولة خارجية تمنح من قبل تلك الدولة فلابد أن تمنح لغيرها من الدول.

5 ـ عمليات التبادل التجاري المتعلقة بقوانين حقوق خصوصية المعرفة حيث قررت منظمة التجارة العالمية مدة 20 عاماً لبراءة الاختراع و50 عاماً لحقوق الطبع ووضعت قوانين دولية تعاقب المخالفين.

6 ـ قوانين إلقاء النفايات حيث يسمح للدول المتضررة من تلك النفايات أن تحدد ضرائب خاصة على البضائع المستوردة التي تتضمن عملية إلقاء النفايات.

7 ـ تسعى جميع الدول لدفع إعانات مالية لمساعدة ودعم الإنتاج المحلي للبضائع المصدرة. كي تستطيع تلك الصادرات منافسة غيرها من البضائع على الصعيد العالمي.

8 ـ وضع مقاييس تكنولوجية ومتابعتها بحيث لا تكون تلك المقاييس عقبة في عمليات التبادل التجاري.

9 ـ تنظيم عمليات التبادل التجاري المتعلقة بالاستثمار حيث تطمح الدول المتقدمة إلى إلغاء أي عائق بهذا الصدد في حين أن الدول النامية ترى أفضلية وضع مقاييس معينة محلية للمستثمرين في دولهم.

ولكن منظمة التجارة العالمية كسابقتها منظمة الجات لم تزل تواجه صعوبات كثيرة على مستوى الدول والمنظمات، ولا يخفى على القارئ الكريم ما حدث خلال اجتماع المنظمة في جلسة الألفية أو ما سُمّي بمواجهات (سياتل) من صراعات داخلية بين الدول واحتجاجات ومظاهرات خارجية.

ويبقى مستقبل منظمة التجارة العالمية مرهوناً بمستقبل العولمة وما يواجهها من تحديات. ولعلنا نلقي بعض الضوء فيما يلي على أهم تلك التحديات التي تواجه العولمة والتي سوف تحدد مسيرتها وفعاليتها، علماً أن هذه التحديات ما هي إلا استقراءات علمية، إذ أنه من الصعب جداً أن توضع حدودٌ نهائيةٌ محددة للعولمة، وذلك لسعة آفاقها وكثرة متغيراتها واختلاف تأثيراتها سلباً وإيجاباً حسب طبيعة الظروف الاقتصادية والقانونية والسياسية والاجتماعية في كل زمان ومكان[1].

تحدي الجماعات والأحزاب المعارضة

لقد عارضت ولا تزال تعارض عملية العولمة مجموعةٌ متنوعةٌ من الأحزاب والجماعات، وذلك بناءً على مصالح تلك الجماعة أو ذلك الحزب،

(1) المصدر السابق نفسه.

وتبعاً لطبيعة تأثير العولمة على مستقبلها. ونستعرض فيما يلي بعض تلك الأحزاب والجماعات:

أولاً ـ أحزاب ونقابات العمال:

فما زالت تلك الأحزاب والنقابات القائمة في دول الغرب (أمريكا وأوروبا على وجه الخصوص) تكرس قواها لمحاربة العولمة وذلك خوفاً على مستقبل وظائف أعضائها ومنتسبيها. ذلك أن مستقبل الأيدي العاملة الباهظة الثمن في دول الغرب مهددٌ بالخطر إذا فتحت دول تلك الأحزاب والنقابات أسواقها للبضائع المستوردة واستثمرت الشركات متعددة الجنسية في دول ذات أيد عاملة رخيصة وهو ما يُسمى بتصدير الوظائف.

قد تحتجُّ الكثير من هذه النقابات والأحزاب وتدّعي أنها تقوم بذلك لدفع الظلم عن الأيدي العاملة. ولكن الذي يجب الانتباه إليه هو أن هؤلاء يُدافعون في الحقيقة عن حقوق تلك الأيدي العاملة في ذلك النصف الآخر (الغربي) من الأرض. بمعنى أنهم لا يريدون للأيدي العاملة الأرخص أن تنافسهم، وكأنهم نسوا أو تناسوا أن تلك الأيدي العاملة التي تعيش تحت حد الفقر لا تملك فرصة أخرى للبقاء بينما يملكون هم فرصاً أخرى كثيرة لتوفير رغد العيش لا يملكها أولئك.

ثانياً ـ منظمات حقوق الإنسان:

وهي تدعو إلى رفع مستوى المعيشة للأيدي العاملة من خلال رفع الحد الأدنى للمرتبات وتقليل عدد ساعات العمل وإنهاء استخدام الأطفال كأيدٍ عاملة. وعلى الرغم من أن تلك الأهداف هي أهداف نبيلة إلا أنها قد لا تتناسب مع حقيقة الحاجات والضرورات في الدول النامية. إذ أن الأيدي

العاملة في الدول النامية تعاني نسبياً من نسب عالية من البطالة وقلة في مستوى الدخل ولذلك فربما يكون وجود الشركات متعددة الجنسيات فرصةً لتوفير عمل لتلك الشعوب الجائعة والتي تبحث عن القليل لتسد به رمقها. شرط أن تكون المراقبة والمتابعة قائمةً على شروط وظروف وجود هذه الشركات.

وهنا أيضاً نجد أن ما تطالب به منظمات حقوق الإنسان ربما يكون جيداً في ذاته، لكن التعامل معه يجب أن يكون دقيقاً ومتوازناً للغاية بحيث يأخذ في اعتباره مرةً أخرى صورة الواقع بكل شمولها وتعقيدها ومتغيراتها. فهؤلاء العمال يأتون طائعين غير مكرهين للعمل لدى الشركات متعددة الجنسيات والتي أثبتت الإحصائيات أن ما تقدمه من مرتبات للعاملين لديها يفوق وأحياناً بنسب كبيرة الشركات المحلية. وعلى سبيل المثال فإن إحدى الدراسات التي قامت بها منظمة التعاون الاقتصادي والتنموي OECD أظهرت ما تدفعه الشركات متعددة الجنسيات لموظفيها في تركيا يتجاوز معدل المرتبات السائد هناك بنسبة 124٪ وأن أعداد الموظفين في تلك الشركات يزداد بنسبة 11.4٪ سنوياً.

ثالثاً ـ منظمات حماية البيئة:

وهي التي تناهض استغلال الشركات متعددة الجنسيات لمسألة عدم توفر أو قلة قوانين حماية البيئة في الدول النامية. ونقف هنا أيضاً لنقول أنه على الرغم من أن تلك الأهداف هي أهداف نبيلة، إلا أنه من الأكثر توازناً وضع قوانين دولية ومقاييس عالمية تطبق بشؤون حماية البيئة. ونتساءل هنا لماذا لا تتعاون منظمات حماية البيئة تلك على إيجاد هيئة دولية تشريعية لوضع مقاييس وأنظمة وقوانين لحماية البيئة، على أن تكون لدى تلك الهيئة القوة والاستقلالية

الكافية لمعاقبة الدول والشركات المخالفة كائناً من كان. وبهذه الطريقة يواكب عملهم مسيرة العولمة ويتقدم بتقدمها بشكل أكثر فعالية مما نجد عليه أداء تلك المنظمات اليوم. **الأمر الذي يخلق توازناً بين مسيرة العولمة تجارياً وبين المحافظة على موارد الطبيعة بيئياً. وهكذا تصبح مسيرة العولمة ومستقبلها مقترنان بالمحافظة على البيئة، وعندها تكون العولمة أفضل وسيلة لتمكين تطبيق هذه القوانين وتنفيذ هذه المهمة.**

ولنا هنا وقفة أخرى مع منظمات حقوق الإنسان ومنظمات حماية البيئة التي ما فتئت تعارض العولمة وتحتج عليها. حيث إن مما لا شك فيه أن إمكانية التأثير أو التغيير في طبيعة وجود الشركات العالمية في دول العالم الثالث كما يسمونها سوف يصبح أيسر وأفعل إذا فتحت تلك الدول أسواقها وانضمت في ركب مسيرة العولمة.

فعلى مستوى الأفراد والشعوب فإنه عندما يزداد اتصال أفراد وشعوب تلك الدول بالعالم الخارجي يصبح التأثير في الرأي العام لدى تلك الشعوب أكثر إمكانية. وعلى مستوى المنظمات فإن قدرة المنظمات غير الحكومية على التأثير في الشركات متعددة الجنسيات ستكون أكثر مما لو سلكت تلك المنظمات طرقاً سياسية عبر الحكومات المحلية التي لا تعيرها أصلاً انتباهاً كثيراً. ويكون ذلك عن طريق استخدام المصالح الاقتصادية كاستخدام القوة الشرائية لعملاء تلك الشركات مثلاً، وقد أثبتت تجارب كثيرة بشكل قاطع **أن الضغط على تلك الشركات عن طريق مبيعاتها ومصالحها الاقتصادية هو من أفعل وأقوى أساليب التأثير.** وعلى سبيل المثال، لو قامت إحدى شركات النفط الكبرى بخرق قوانين حماية البيئة في زاوية من زوايا الأرض مستغلة

الفقر والضعف في تلك البقعة، ربما كان من الأسهل والأكثر فعالية أن تفرض منظمات حماية البيئة حصاراً اقتصادياً على تلك الشركة باستخدام القوة الشرائية لعملاء تلك الشركة بدلاً من أن تُسلّمَ القضية إلى المسار السياسي الشائك المعقد[1].

تحديات وتناقضات مبهمة:

بعد أن نظرنا إلى تحدي الجماعات المعارضة للعولمة، ننتقل إلى الحديث في بعض التحديات والتناقضات المبهمة التي تواجه العولمة والتي سوف تحدد مسيرتها وفعاليتها. وهذه التحديات والتناقضات عموماً غامضة ومستقرأة من أرض الواقع، لم تتطرق إلى بحثها المنظمات الدولية ولم يتوفر لها إجابات نهائية حاسمة حتى اليوم، فهي أحياناً تحدياتٌ جبارة وأحياناً أخرى تحديات موهومة، ولكنها في أي حال تقف في مسيرة العولمة وتؤثر في اتجاهها.

علماً بأن الإجابات العلمية المنهجية على ما تثيره هذه التحديات والتناقضات المبهمة من أسئلة لا يمكن الوصول إليه إلا بعد دراسات ومشاريع وأبحاث عديدة وواسعة، وبناءً على تلك الإجابات والنتائج يتغير نتاج العولمة واتجاهها تغييراً جذرياً. أما ما سنحاوله هنا فلا يعدو أن يكون إشارات عامة غير نهائية ولا قطعية.

1 ـ تناقض الاتحاد والتجزؤ:

فبينما يتجه الاقتصاد لمزيد من الوحدة على الصعيد الدولي، تخطو السياسة نحو المزيد من التفتت مع نمو الوعي العرقي والنزاعات الإثنية.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

وسرعة عملية العولمة وفعاليتها تعتمد بالتالي على تأثرها بأيٍ من الظاهرتين بشكل أكبر من الأخرى. ويكون السؤال بالتالي: **هل ستقف النزعات العرقية والدعاوى الوطنية في وجه مسيرة العولمة أم سيبحر ركب العولمة غير مبالٍ بتلك الضغوط والدعوات؟**

ونحن هنا لا ننفي تأثير الدعوات المحلية في مسيرة العولمة ولكننا نتساءل عن مدى تأثيرها في تلك المسيرة. فعلى صعيد الواقع على سبيل المثال، شاهدنا خلال العقد الأخير موجة من الاندماجات بين الشركات متعددة الجنسيات تعد الأكبر حجماً في التاريخ. وشاهدنا أيضاً قيام كثير من المعاهدات **كمعاهدة التبادل التجاري في أمريكا الشمالية NAFTA** بين أمريكا وكندا والمكسيك في عام 1994 مما فتح أسواق تلك البلدان على بعضها البعض مما يمنح تلك الدول قوة اقتصادية أكبر.

ومن ناحية أخرى فإن تجربة العملة الأوروبية الموحدة (اليورو) تجربة فريدة من نوعها إذ أنها **ضمت 11 دولة من دول الاتحاد الأوروبي** مما شكل قوة اقتصادية جديدة ذات عملة متداولة في الأسواق المالية بشكل كبير. مع العلم أنه اعتباراً من بداية عام 2001 تم استخدام اليورو في جميع الاستخدامات المالية، وأن نجاح تجربة اليورو يعتمد بشكل كبير على الاهتمام بالصالح العام لجميع الدول التي تستخدم هذه العملة، وذلك عبر تجنّب الدعاوى الوطنية والنزعات العرقية بين تلك الدول.

وفي الوقت الذي تتوحد فيه قوى الشمال نرى أن قوى الجنوب تتجزأ وتتضارب، مع العلم بأن أسواق دول الجنوب مهددة بشكل أكبر إذا ما فُتِحت أسواقها عالمياً من قوى الشمال.

2 ـ مستقبل حوار الحضارات:

لقد قلل تقدم التكنولوجيا والاتصالات إلى حد كبير من تأثير المسافات بين الدول وزاد التفاعل بين الأشخاص والثقافات. ومع زيادة التفاعل والاحتكاك بين الحضارات نشأت الكثير من المنافسة في السبق العلمي والحضاري لكي تثبت كل حضارة وجودها بل وهيمنتها. وفي عالم الحضارات **اليوم هناك دعوة بارزة للاندماج بين الحضارات، إذ لا تستطيع حضارةٌ أن تبقى منعزلةً في إحدى زوايا الأرض. فقد حان الوقت لكل حضارة أن تدافع عن نفسها وأن تتعلم من غيرها من الحضارات وأن تكون دينامية سريعة التطور والنمو وإلا فلا مكان لها لمنافسة ومضاهاة غيرها من الحضارات.** وبما أن السبق الحضاري هو المؤهِّلُ إلى منصب الريادة لمسيرة العولمة، فإن حوار الحضارات على كافة الأصعدة هو الذي يمكّن لأي حضارة من أن تمكث في الأرض، **وبذلك تتبوء قيادة العولمة والتأثير في مسيرتها.**

ومن ناحية أخرى فلا زالت الهويات المحلية تتصارع مع تلك الهوية العالمية التي تهيمن عليها القوة الكبرى اقتصادياً (الأمركة). ويبقى السؤال قائماً: **هل إنّ غلبة التشريعات والتنظيمات ستكون للعولمة الحقيقية التي تمثل العالم أجمع وبشكل يحفظ التوازن بين اختلافات الجميع، أم أنها ستكون وفق هوى الغرب** ومقاييسه فقط (Westernization) بما له من رصيد القوة الاقتصادية والسياسية والعلمية والعسكرية؟

3 ـ مستقبل انتقال التكنولوجيا والعلم:

إن العولمة فرصة ثمينة للدول النامية سواءً كانت حكومات أو شعوباً لكي تلحق بركب التقدم العلمي الذي يشير في طلب العلم والمعرفة بسرعة

هائلة. ولذلك فإن عليها أن تحث الخطى في طلب العلم والمعرفة وأن تنشأ الجامعات والمعاهد والمؤسسات المؤهلة التي يمكنها الاستفادة بشكل كبير من تجارب الحضارات الأخرى أياً كانت. فلقد أثبتت الدراسات أن حصة الجنوب من براءات الاختراع في العالم لا تتجاوز الخمسة بالمائة، مما يعني أن العقول في الجنوب لا تسهم إلا بأقل القليل في عمليات البحث العلمي. ومن جانب آخر فإن تلك الأرقام تُعبّر عن حصة الأسد التي تنالها دول الشمال من الدخل العالمي الذي تحصده من وراء تلك الاختراعات وتطبيقاتها المختلفة.

بل إن على شعوب وحكومات تلك الدول أن تدرك حجم العمل الحضاري المطلوب، وأن تخطط له تخطيطاً مناسباً راشداً قائماً على إدراك واقع تلك الدول وعلى رؤية العوامل المطلوبة لنجاح ذلك التخطيط وتحقيق الأهداف المنشودة، دون الاستغناء عن قابلية التجديد والمراجعة والمحاسبة.

فضلاً عن هذا فإن على تلك الشعوب والحكومات أن تدرك أيضاً خطورة المرحلة وحساسيتها مما يتطلب التجاوب السريع مع مقتضيات الواقع، وإلا فإن العولمة ستكون عندها حقاً وبالاً عليهم إذا تأخرت استجابتهم طويلاً.

4 ـ القوانين والتنظيمات المحلية:

إن مستقبل النمو في الدول النامية وفعالية العولمة في ذلك النمو تعتمد على طبيعة القوانين المحلية لتلك الدول أو على إتقان تنظيم الأسواق فيها. فالاحتكار القائم اليوم في تلك البلدان قلقٌ جداً من المنافسة الدولية والتي تسمح للشركات متعددة الجنسيات بمقاسمة أولئك المحتكرين حصتهم في

الأسواق المحلية، مما قد يتسبب في تخفيض الأسعار وزيادة العرض ويزيد من منفعة المستهلك. وبالمقابل فقد يؤدي ذلك إلى جعل أولئك المحتكرين عملاء لتلك الشركات الضخمة مما قد يوفر لهم مزيداً من القدرة على التحكم في السوق. وهنا، في هذه الثنائية التي يصعب الاختيار فيها، يكمن التحدي الهائل للتعامل مع قضية العولمة في هذا الجانب.

والجدير بالذكر هنا أن الكثير من الدول النامية تحتاج إلى هيكلة أسواقها وتنظيمها قبل أن تتمكن الشركات متعددة الجنسيات من السيطرة على كثير في تلك الدول والتحكم المطلق بالكثير من أسواقها. هذا مع العلم بأن كثيراً من الخدمات المتقدمة التي تقدمها تلك الشركات لا يوجد له ما يناسبه من قوانين وتنظيمات في الدول النامية. ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر الأسواق المالية والخدمات البنكية، فالحكم هنا حول تأثير العولمة على الأسواق المحلية يعتمد على مدى فعالية قوانين تلك الدول ودرجة الفساد فيها ومدى تطبيق الأنظمة ووجود قوانين ومؤسسات لحماية حقوق المستهلك.

5 ـ تضارب المصالح السياسية والاقتصادية:

يعتمد مستقبل العولمة بشكل كبير على كمية ونوعية تدخل السياسة في التأثير على مسارها. وبناءً على ذلك سوف يظل مستقبل العولمة مبهماً إذ أن نتائج العولمة وفعاليتها وآثارها سلبية كانت أم إيجابية سوف تتأثر بالمتغيرات السياسية والمصالح الاقتصادية.

فعلى سبيل المثال أوردت دراسةٌ للأمم المتحدة عام 1991 أن حماية أسواق دول الشمال تكلف دول الجنوب ما يزيد عن 30 مليار دولار سنوياً كخسائر فقط في الصادرات.

وإن مما لا يخفى على أحد استمرار الدول المتقدمة في استخدام تأثيرها السياسي كعامل فعال في خدمة مصالحها الاقتصادية، فهناك دولٌ كالولايات المتحدة الأمريكية واليابان وأوروبا ما زالت تتصرف بأنانية وتحيز بالغين مما ألحق الضرر بجميع منافسيها في تلك المجالات. وفي دراسة لصندوق النقد الدولي في عام 1992 أثبتت الإحصائيات أن أسواق أمريكا وأوروبا واليابان هي نسبياً من أقل الأسواق انفتاحاً على الأسواق العالمية، وذلك بفارق كبير جداً مقارنةً بانفتاح أسواق الدول الأخرى عالمياً. وقد يدّعي البعض أن ذلك يعود للاكتفاء الذاتي العالي نسبياً لتلك البلاد عن غيرها، ولكن ذلك لا يبرر بحال من الأحوال تلك الفجوة الهائلة بين انفتاح أسواق تلك الدول وأسواق البلدان الأخرى عالمياً.

بل إن نظرة سريعة على الأسواق العالمية تثبت حماية تلك الدول لأسواقها بشكل قاطع فعلى سبيل المثال لا الحصر مانعت فرنسا واليابان بأي حال من الأحوال تخفيض مساعداتها المالية الطائلة لمزارعيها، وفتح أسواقها للمنتجات الزراعية في بلدان العالم الثالث والذي تشكل الزراعة فيه أحد أهم مصادر الدخل للملايين من الفقراء. ولا يخفى على القارئ الكريم تداعيات ما يسمى بحرب الموز بين الولايات المتحدة وأوروبا أو المنازعات بين أمريكا واليابان حول أسواق صناعة الحديد.

وبناءً على ذلك فإن من الواضح أن مستقبل منظمة التجارة العالمية يعتمد بشكل أساسي على مدى استقلالها من تأثير القوى السياسية على قوانينها ولوائحها. فدرجة فعاليتها في رفع مستوى المعيشة للعالم أجمع ودفع مسيرة نمو الاقتصاد الدولي تعتمد على عدل تلك القوانين بين تلك الدول بما فيه مصلحة الجميع.

وإن مما لا شك فيه أيضاً أن جميع الصناعات والمنتجات التي تتطلب الأيدي العاملة بشكل أساسي كصناعة المنسوجات والزراعة سوف تنمو في الدول النامية كلما سنحت لها الفرصة للتصدير ومنافسة السلع الأخرى في الأسواق العالمية. وهو ما يسمى بتصدير الأيدي العاملة إلى الدول النامية.

6 ـ مستقبل عملية وضع المقاييس والأنظمة:

إن من أعظم التحديات التي تواجه منظمة التجارة العالمية وما يماثلها من منظمات مختصة بتنظيم شؤون العولمة أن تضع مقاييس عالمية عادلة بين الجميع. وذلك لأن اعتماد مقاييس دولة معينة يتطلب إلغاء مقاييس الدول الأخرى. والسائد حالياً أنه من الأفضل من الناحية الاقتصادية اعتماد مقاييس الدول ذات الاقتصاد والأسواق الأكبر نسبياً لأن عملية تغيير المقاييس في تلك الدول مكلفة جداً إذا ما قورنت مع تكاليف عملية التغيير في الأسواق النامية الصغيرة التي ما زالت في مرحلة مبكرة من التنظيم قابلة للتغيير بسهولة. وانطلاقاً من هذه النظرة فإن مقاييس الدول الغربية ستكون مهيمنة على مستقبل عملية وضع المقاييس والأنظمة، الأمر الذي سيصب في مصلحة شركات تلك الدول التي شكلت المقاييس على حساب الشركات الأصغر في الدول النامية. وعلى سبيل المثال نذكر قطاع الخدمات المتقدم جداً في الدول المتقدمة بالنسبة إلى مثيله في الدول النامية، فهنا تظهر صعوبة وضع مقاييس لهذا القطاع إذ أن الشركات متعددة الجنسيات تشكل خطراً على أسواق الدول النامية إذا أتيح لها الدخول إلى أسواق الخدمات في تلك الدول سواءً كانت خدمات بنكية أو إعلامية أو غير ذلك. ومرةً ثانية،يظهر حجم التحدي المطروح أمام كل الشعوب والدول النامية للوصول إلى تعاملٍ متوازن مع قضايا العولمة الشائكة.

7 ـ تحدي البنية التحتية وتحدي المنظمات:

إن التحدي القائم اليوم لتلك الدول النامية التي تفتقد أقل متطلبات النمو من وجود المنظمات والمنشآت والمؤسسات، حكومية كانت أو شعبية، في مجالات التعليم والاقتصاد والقانون والاجتماع والتجارة يتمثل في منافسة تلك المنظمات والمؤسسات المتقدمة في دول الغرب. ولذلك **فإن الدول النامية تواجه تحدياً كبيراً وغير عادل بما لديها** من البنية التحتية المهترئة، ومن عدم وجود أي كيان مؤسسي متخصص لدفع العجلة في كثير من المجالات.

ومن جانب آخر، وحيث إن توفر كيانات مؤسسية بيد الشركات متعددة الجنسيات يمكنها من تحصيل الدراسات التي تحتاج إليها لكي تستطيع اكتساح الأسواق المحلية في كثير من الدول النامية، فإن مما لاشك فيه أنه يجب على الدول النامية أن تجاهد بكل ما تملك لئلا تعتمد كثيراً على الغرب وألا تهمل بنيتها التحتية، وأن تعمل على تطوير الكيانات المؤسسية المتخصصة فيها، والتي تقوم بالتركيز على الدراسات والأبحاث الشاملة، وبعمليات التعليم والتثقيف والتدريب الضرورية جداً[1]".

جدول يبين تفاعل العولمة مع معطيات المجتمعات

	انفتاح وتفاعل مع العولمة	انغلاق عن العولمة
مجتمع مهيأ اقتصادياً فقط	نهضة اقتصادية وذوبان حضاري	نمو اقتصادي بطيء وانفصال حضاري
مجتمع مهيأ اجتماعياً فقط	انفتاح اقتصادي وتكامل حضاري	تهافت اقتصادي وعور ثقافي
مجتمع غير مهيأ بتاتاً	تهاوي اقتصادي وخضوع حضاري	تهافت اقتصادي وانهزام حضاري
مجتمع مهيأ اقتصادياً واجتماعياً	نهضة اقتصادية وتكامل حضاري	نمو اقتصادي بطيء وانعزال حضاري

(1) المصدر السابق.

سلبيات العولمة وخطرها الثقافي:

سلبيات العولمة تتوضع بنشر ثقافة الاستهلاك والدعايات والتخلي عن الثقافات الخاصة بالشعوب والتشكيك بالعقائد والأديان والفضيلة وبث ثقافة التحلل الأخلاقي والمثلية الجنسية، والحرية الشخصية المعتمدة على رفض القيم المحلية والقومية والدينية، والتبعية للقيم الغربية، عبر كل الوسائل المحلية لديهم.

وأخطرها من الجانب الإنساني لأنها عدوانية، تهميش الآخر وتستخدم كل الوسائل لتحقيق أهدافها فهي ذات نزعة براغماتية لتحقيق مصالحها الاقتصادية وهيمنتها على الكرة الأرضية ونشر ثقافة الإمبريالية التي لا تحقق العدالة الاجتماعية وتعتبر كل معارض لها من دول وشعوب وحضارات الشر.

والعدوان على أفغانستان والعراق والفيتو على كل القرارات الدولية التي تصب في تحجيم وردع العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني.

العولمة ليست هي العالمية لأن الحضارة الإنسانية عالمية العولمة ليست هي العلمانية أي اللادينية لأن العولمة تتسم بهيمنة الثقافة الغربية المسيحية ورفض الآخرين بكل ثقافاتهم أو الهجوم على الإسلام كدين راعٍ للإرهاب كما صدرت مجموعة من الكتب تشكك بالقرآن وبالنبوة لمحمد بن عبد الله ﷺ وقد صدر كتاب لجورج بوش الجد اسمه محمد مؤسس إمبراطورية المسلمين، ويتهمون الإسلام بأنه دين عدواني يدعو إلى الإرهاب ويتهمون النبي العربي محمد ﷺ بالنبي المقاتل.

المشروع الإسلامي لمجابهة العولمة:

إن الثقافة الإسلامية محصنة بالثوابت المقدسة عند المسلمين ولابد لها من مشروع ثقافي للوقوف أمام غزو العولمة.

خطوات المشروع الثقافي لمجابهة العولمة الثقافية:

1 ـ نشر الثقافة الإسلامية بكل إمكانيات الشعوب والدول والمثقفين والعلماء والأدباء.

2 ـ إيجاد مشروع فني يعتمد على ثقافة إسلامية وأدبيات إسلامية وتشجيع الفنانين لإخراج أفلام إسلامية وثقافية وعلمية وأخلاقية للرد على ثقافة العولمة.

3 ـ إيجاد مراكز دراسات إستراتيجية أكاديمية وشعبية لدراسة كل المظاهر العدوانية والعولمة والرد على كل الكتب والصحف والمجلات والندوات التي تصب في احتقار الشعوب العربية والإسلامية.

4 ـ إيجاد قنوات فضائية إسلامية تعتمد على نشر الثقافة الإسلامية باللغات المتعددة.

5 ـ إرسال العلماء المختصين لدراسة أفكار العولمة والرد عليها.

6 ـ الثقافة الإسلامية تحتاج إلى مشروع نهضوي تجديدي يتلاءم مع الحداثة والمعاصرة والتقنية العلمية باجتهادات جديدة لكبار العلماء والمختصين في عالمنا العربي والإسلامي.

7 ـ إيجاد مرجعية علمية إسلامية تضم كبار علماء العالم العربي والإسلامي لإلقاء محاضرات إسلامية ثقافية علمية متعددة الأهداف والوسائل وتتسع لكل شرائح المجتمع بكل طبقاته.

8 ـ نشر الكتب الثقافية الإسلامية باللغات المتعددة وإصدار مجلات وصحف بلغات متعددة.

9 ـ بث الفكر الإيجابي للتحصين ضد نظرية الهزيمة أمام العولمة.

وخلاصة الأمر:

قال عمر رضي الله عنه: كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام فإياك إياك أن يؤخذ من قبلك وكل منا قادر للمساهمة في التصدي للمؤامرة قال الشاعر:

يا هذي الدنيا أصيخي واشهدي ... إنا بغير محمد لا نقتدي

لا نستعيض عن الشريعة منهجاً ... وضعته فكرة مستغل ملحد

لا رأسمال الغرب ينفعنا ولا ... فوضى شيوعي سخيف أبلد

إسلامنا نور يضيء طريقنا ... إسلامنا نار على من يعتدي

الثقافة الإسلامية
وتحديات العولمة الثقافية

الثقافة الإسلامية:

إن الثقافة ممارسة وسلوك حياة الناس (الغالبية) في المجتمع من اعتقاد ديني وأخلاقي، وسلوك ومفاهيم للفنون، والقانون والعادات، ومقدرات مكتسبة بواسطة الفرد بوصفه عضواً في المجتمع، ومعرفته مرتبطة بالاعتقاد الديني وآلية التفكير.

والثقافة الإسلامية هي المخزون الفكري والمحتوى للوعي واللاوعي المرتكز على القرآن الكريم الذي يعتبره المؤمن منهج حياة ودستوراً للوجود ونظام مجتمع وحث على النظر في خلق الإنسان والكون، ونعمة الحياة والوجود، وحلاوة الطاعة لأوامر الله تعالى المدونة في الكتاب والسنة الصحيحة.

إذ يستمد المؤمن ثقافته الإسلامية من مجموع التراث كالتفسير والفقه والحديث والسيرة ويعدّ هذا التراث الثقافي الإسلامي الذي أنتجه الفكر الديني والأدبي والفلسفي مصدراً من مصادر المعرفة يُستعان به لبناء معرفيّ جديد وحديث يخدم صناعة حياة الأمة وتواصل حضارتها ونهضتها إلاّ أنّ هذا الموروث لا يعدّ مقدساً حيث يلقى القبول والنقد والتمحيص والتصحيح إذ لا قدسية في ثقافة المسلم إلا لكتاب الله عز وجل وسنة نبيّه ﷺ.

ومن خلال هذه الثقافة يُنظر إلى الإنتاج الفكري والأدبي والفنّي، ومدى تطابق هذا المنتج الثقافي مع المقاصد الشرعية وخصائص هذه الثقافة حيث

تتسم بالإيجابية والواقعية والإنسانية والشمولية في تناغم الدوافع المادية والمعنوية والروحية لتحقيق الضروريات والحاجيات والكماليات الإنسانية في المجتمع لتحقيق حياة سعيدة راقية مفيدة ترقى بهذه الأمة إلى أعلى درجات الحضارة الإنسانية.

فالثقافة الإسلامية قد تنامت عبر هذا التاريخ فأنتجت حضارة إسلامية إنسانية عظيمة حققت مكانة قوية بين الحضارات والأمم، وشكلت نقطة تحول تاريخي في ملتقى هذه الحضارات.

فلكل ثقافة ثوابتها وثوابت هذه الثقافة الإسلامية الثوابت العقائدية وأصول الأحكام وأصول التربية والتعامل. هذه الأصول والمبادئ والثوابت التي جُعِلَتْ أساساً للاجتهاد في الفروع وكيفية البناء والتطوير بحسب الحوادث والمتغيرات التي تطرأ على هذه الأمة يتصدى لها أهل الاختصاص من العلماء والمفكرين والمثقفين والفنيين المتخصّصين إذ تنمو هذه الثقافة بطلب العلم وتحصيل المعارف والخبرات في شتى ميادين الحياة. وقد أسّس الإسلام أول منطلق لهذه الثقافة في قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ هذا الفعل الذي تضمن وجوب طلب العلم بلفظ القراءة وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة لما لهذه الثقافة من خصوصيات وهوية وأدبيّات وفنّ يتلاءم مع مقاصدها لإسعاد الإنسان وتحقيق الوفاق البيئي الاجتماعي مع الآخر مهما كان هذا الآخر عبر الحوار والتفاهم والتقارب، وإنّ الحوار البنّاء مطلب من مطالب هذه الثقافة الإسلامية وهو مجال واسع ومهم لأتباع الديانات الأخرى يؤكدها مبدأ قرآني تضمّنه قوله تعالى: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ كما وأنّ

للثقافة الإسلامية روافد ثقافية إنسانية ساعدت في تكوين وصنع الحضارة الإنسانية ضمن ثوابت الشريعة ومقاصدها.

وقد استفادت الحضارة الإسلامية من كل المنتجات والتقنيات العلمية والتكنولوجيا وجميع الاختصاصات العلمية التي ساهمت في إسعاد المجتمعات الإنسانية.

ومن جانب آخر فقد رفضت الثقافة الإسلامية جميع أشكال العنف والعدوان والتبعية التي أنتجتها وسائل الإعلام الغربية وساعدت على ذلك اليوم بعض وسائل الإعلام العربية في نشر الأفلام الخليعة والفن الهابط ونقل كل شيء يسيء للحضارة العربية والإسلامية مما ساهم في تنامي ثقافة أخلاقية سلوكية فاسدة ومنحطة.

ومن خلال التدافع الحضاري عبر هذه السنين الطويلة ظهر اليوم الصراع الحضاري على أشده بين الحضارات الغربية والحضارة الإسلامية حيث لا تستطيع الأمة الرد على هذه الهجمة الشرسة لأسباب عديدة، منها الاستعمار والبعد عن المنظومة المعرفية الدينية وانهيار الاتحاد السوفياتي واتحاد الألمانيتين ودخول العولمة وانتشارها بقوة.

ثقافة العولمة:

أصبحت العولمة من أكثر الكلمات استخداماً في الأدبيات المعاصرة. وقد **تم تعريف العولمة على أنها إكساب الشيء طابع العالمية، وجعل نطاقه وتطبيقه عالمياً، وأضحت ظاهرة العولمة الهاجس الطاغي في المجتمعات المعاصرة، فهي** تستقطب اهتمام الحكومات والمؤسسات ومراكز البحث ووسائل الإعلام.

وتعاظم دور العولمة وتأثيرها على أوضاع الدول والحكومات وأسواقها وبورصاتها ومختلف الأنشطة الاقتصادية فيها.

ويعرف الدكتور إسماعيل صبري عبدالله العولمة والتي يفضل أن يستخدم مكانها مصطلح الكوكبة على أنها التداخل الواضح لأمور الاقتصادي والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو انتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة دون حاجة إلى إجراءات حكومية.

ويتلازم معنى العولمة في مضمار الإنتاج والتبادل: المادي والرمزي مع معنى الانتقال من المجال الوطني، أو القومي، إلى المجال الكوني في جوف مفهوم تعيين مكاني جغرافي الفضاء العالمي برمته، غير أنه ينطوي على تعيين زماني أيضاً، حقبة ما بعد الدولة القومية، الدولة التي أنجبها العصر الحديث إطاراً كيانياً لصناعة أهم وقائع التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وقد يستفاد من ذلك أن المنزع الراهن نحو إنفاذ أحكام العولمة، إذ يضع حداً لتلك الحقبة، يدشن لأخرى قد لا تكون حقائق العصر الحديث ـ السائدة منذ قرابة خمس قرون ـ من مكونات مشهدها، وبالتالي يرسي مداميك ثورة جديدة في التاريخ، ستكون قوتها ـ هذه المرة ـ المجموعة الإنسانية بدل الجماعة الوطنية والقومية.

فالعولمة وفقاً لتحليل البعض فإنها تعني: وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن تقريباً إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها، أي أن ظاهرة العولمة التي نشهدها هي بداية عولمة الإنتاج والرأسمال

الإنتاجي وقوى الإنتاج الرأسمالية، وبالتالي علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضاً، ونشرها في كل مكان مناسب وملائم خارج مجتمعات المركز الأصلي ودوله. العولمة بهذا المعنى هي رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملته على مستوى سطح النمط ومظاهره، قد تمت. بعبارة أخرى، أن ظاهرة العولمة التي نعيشها الآن هي طليعة نقل دائرة الإنتاج الرأسمالي ـ إلى هذا الحد أو ذلك ـ إلى الأطراف بعد حصرها هذه المدة كلياً في مجتمعات المركز ودوله في الواقع لأن عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق بلغت حد الإشباع بوصولها إلى أقصى حدود التوسع الأفقي الممكنة وشمولها مجتمع الكرة الأرضية كلها ـ باستثناء جيوب هنا وهناك ـ كان لابد لحركية نمط الإنتاج الرأسمالي وديناميكيته من أن تفتح أفقاً جديداً لنفسها وأن تتجاوز حدوداً بدت ثابتة سابقاً على طريق نقلة نوعية جديدة بدورها تأخذ الآن الشكل المزدوج لعولمة دائرة الإنتاج ذاتها ونشرها في كل مكان مناسب تقريباً على سطح الكرة الأرضية، من ناحية، وإعادة صياغة مجتمعات الأطراف مجدداً، في عمقها الإنتاجي هذه المرة وليس على سطحها التبادلي التجاري الظاهر فقط، من ناحية ثانية، أي إعادة صياغتها وتشكيلها على الصورة الملائمة لعمليات التراكم المستحدثة في المركز ذاته.

ويصف الدكتور علي عقلة عرسان نتائج العولمة بأسلوب أدبي حين يقول: **وهكذا نجد أن العولمة تفسح المجال واسعاً أمام أصحاب رؤوس الأموال لجمع المزيد من المال على حساب سياسة قديمة في الاقتصاد كانت تعتمد على الإنتاج الذي يؤدي إلى تحقيق ربح بينما اليوم فالاعتماد هو على تشغيل المال فقط دون مغارم من أي نوع للوصول إلى احتكار الربح، إنها**

مقولة تلخص إلى حد ما بعودة (شايلوك) المرابي اليهودي التاريخي محمّلاً على أجنحة المعلوماتية والعالم المفتوح لسيطرة القوة المتغطرسة، وعودته المدججة بالعلم والتقانة تقلب القاعدة القديمة القائلة: **إن القوي يأكل الضعيف**، إلى قاعدة جديدة عصرية عولمية تقول **السريع يأكل البطيء** وسمك القرش المزود بالطاقة النووية ومعطيات الحواسيب وغزو الفضاء يستطيع أن يبتلع الأسماك الأخرى والصيادين الذين يغامرون إلى أبعد من الشاطئ.

يقضي منطق التطور الرأسمالي بالتوسع المستمر خارج الحدود هكذا بدأ أمره قبل قرون انتقلت الرأسمالية من حدود الدولة القومية والاقتصاد القومي إلى عالم (ما وراء البحار) في عملية من الزحف الاستعماري واسعة، شملت معظم مناطق جنوب الأرض بحثاً عن المواد الخام واليد العاملة الرخيصة والأسواق وهكذا تجدد قبل قرن حين خرج النظام الرأسمالي العالمي من طور (المزاحمة) أو (المنافسة الحرة) إلى طور الاحتكار الطور الإمبريالي. واليوم في سياق الثورة التقانية الكبرى، يبلغ التوسع الرأسمالي ذراه، فيطيح بحدود جديدة، الحدود القومية داخل المعسكر الرأسمالي الميتروبولي نفسه بعد أن أطاح منذ زمن بعيد بحدود المجتمعات التابعة المنتمية إلى منظومة الجنوب. إن هذا النمط الجديد من التوسع اليوم، هو ما يطلق عليه اسم العولمة، وسمته الأساسية هي توحيد العالم وإخضاعه لقوانين مشتركة تضع حداً فيه لكل أنواع السيادة. ولقد بدأت علائم هذا المسار منذ ميلاد ظاهرة الشركات المتعددة الجنسيات، قبل عقود، لتصل اليوم إلى نظام التجارة الحرة الذي أقر دولياً، بعد مفاوضات (الغات) ووقع التعبير عنه مؤسسياً في منظمة دولية

تحمل الاسم ذاته، وفي قوانين وتدابير يلغي مفعولها مفعول القوانين المرعية في الدول الوطنية.

لقد أدت الولايات المتحدة دوراً رئيساً في دعمها للرأسمالية وفي ظفر هذه الأخيرة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ففضلاً عن كونها طوال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أكبر سوق وأكبر دولة مصدرة في العالم، جعلت الولايات من بناء اقتصاد عالمي رأسمالي حجر أساس في توجهها على الصعيدين السياسي والاقتصادي الدولي، ولما كانت أكبر دولة مصدرة فإن لها مصلحة إذاً في الإنماء الاقتصادي على الصعيد العالمي لكونه يغذي نموها الاقتصادي. وكي تحافظ على أنظمتها ومؤسساتها الرأسمالية في وجه التهديدات التي تكونها أنظمة اجتماعية اقتصادية أخرى وأهمها الشيوعية السوفييتية أنفقت الكثير على انتشار اقتصاديات رأسمالية في بلدان أخرى وعلى الأخص لدى عدويها السابقين ألمانيا واليابان وفي بلدان أخرى في أوروبا الغربية وفي شرق وجنوب شرقي آسيا بالإضافة إلى مشروع مارشال في أوروبا الغربية وإلى المساعدات الضخمة التي قدمتها إلى شرق آسيا استعملت الولايات المتحدة مساعداتها الخارجية لمناطق أخرى في العالم النامي وتعزيزاً للمؤسسات والاقتصادات الرأسمالية حيثما أمكنها ذلك.

ثانياً: العوامل التي أدت إلى ظهور العولمة بعد انهيار الشيوعية وانفجار الاشتراكية من الداخل، وتفكك اليمين التقليدي، خرجت الليبرالية الجديدة باسم العولمة لتغزو كل الدول، وتدعو إلى حرية انتقال رأس المال، وإلغاء الحواجز الجمركية، وتطيح بالأنظمة، لتعزيز حرية المبادلات التجارية، مما أدى إلى تباعد بين النشاط المالي والنشاط الاقتصادي.. فمن أصل 1500 مليار

دولار تدخل العمليات اليومية على الصعيد العالمي هناك 1٪ فقط يوظف لاكتشاف ثروات جديدة ويُدوّر الباقي في إطار المضاربات ما هي العوامل التي أدت إلى بروز ظاهرة العولمة في الوقت الراهن؟ وهل هذا يرجع إلى انهيار نظام الدولة ذات الحدود المستقلة؟ وهل العولمة تتضمن زيادة التجانس أم تعميق الفوارق والاختلافات؟ وهل الهدف هو توحيد العالم أم النظم المجتمعية عن طريق الحدود المصنوعة؟ وهل العولمة تنطلق من مصادر رئيسية واحدة، أم تنطلق من مصادر متنوعة ومتداخلة؟ وهل تنطلق من عوامل اقتصادية وإبداع تقاني أم من خلال الأزمة الأيكولوجية؟ وهل هي عبارة عن اتحاد لكل هذه العوامل أم أنه لا تزال هناك أبعاد أخرى؟ وهل العولمة تتميز بوجود ثقافات عامة أم مجموعة من الثقافات المحلية المتنوعة؟ وهل العولمة غامضة، أم أنها تحول بارز على المدى الطويل بين العام والخاص، وبين المحلي والخارجي، وبين المغلق والمفتوح؟ وهل هي استمرار لنمو الفجوة بين الفقراء والأغنياء على جميع المستويات؟ وهل العولمة تتطلب وجود حكومة عالمية؟ إن جوهر عملية العولمة يتمثل في تسهيل حركة الناس وانتقال المعلومات والسلع والخدمات على النطاق العالمي. وتشمل الحركة والانتقالات التي تنتشر عبر الحدود ست فئات رئيسة وهي: البضائع، الخدمات، الأفراد، رأس المال، الأفكار، والمعلومات والمؤسسات.

ويهدف النظام الرأسمالي الذي يحكمه قانون تعظيم الأرباح الخاصة إلى التوسع وذلك عبر استثمار أرباحه والحصول على قروض من أسواق الرساميل. فإذا لم يتوسع يتعرض للركود والكساد والأزمات الدورية، والأمثلة التاريخية على هذه الأزمات كثيرة ومعروفة. ويؤدي التوسع إلى ظهور المنشآت الاقتصادية

الكبرى عبر تركز وتمركز رأس المال. ومن أهم آليات تحقيق ذلك عمليات الدمج بين المنشآت الكبرى أو استيلاء منشأة كبرى على منشأة أصغر منها عن طريق الشراء أو غير ذلك. كما أنه في عملية التوسع تتراكم فوائض مالية لا تجد أحياناً مجالات مربحة في استثمارات حقيقية تؤدي إلى زيادة الإنتاج والتجارة، بل تجد هذه الفوائض مجالاتها المربحة في المضاربة ضمن إطار الدولة الواحدة. كما أن هذه الفوائض تضغط لتأمين حرية انتقالها من دولة إلى أخرى عبر إزالة القيود على حركة الرساميل. ومن الواضح أن أهم سمة للنظام الرأسمالي العالمي الراهن هو ما يسمى بـ (العولمة المالية).

يمثل النظام الاقتصادي المعاصر مرحلة جديدة من مراحل تطور الاقتصاد الرأسمالي العالمي. وقد يكون من الممكن تسمية هذه المرحلة بـ (العولمة) كما هي محددة أعلاه، أو اقتصاداً دولياً أكثر تكاملاً واندماجاً يتسم النظام الاقتصادي العالمي المعاصر بعدد من الخصائص أهمها:

1 ـ انهيار نظام بيريتون وودز.

2 ـ تزايد دور وأهمية الشركات متعددة الجنسية في الاقتصاد العالمي.

3 ـ تزايد دور وأهمية مؤسسات العولمة الثلاث (صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، المنظمة العالمية للتجارة).

4 ـ عولمة النشاط الإنتاجي.

5 ـ عولمة النشاط المالي واندماج أسواق المال.

6 ـ تغيير مراكز القوى الاقتصادية العالمية.

7 ـ تغيير هيكل الاقتصاد العالمي وسياسات التنمية.

8 ـ تراجع أهمية ودور مصادر الطاقة التقليدية والمواد الأولية في السوق العالمية.

ويرى الاقتصادي المعروف الدكتور رمزي زكي، أن أهم البصمات بروزاً في الاقتصاد خلال العقود الثلاثة الأخيرة هو التدويل المطرد الذي أصبح يتسم به الاقتصاد العالمي، ويظهر التدويل في نظرة أولية كبروز متعاظم لدور العلاقات الاقتصادية الدولية بالمقارنة مع النشاط الاقتصادي على الصعيد المحلي أو الوطني.

وهذا واضح من خلال الدور المتعاظم الذي تقوم به وتقوده الشركات متعددة الجنسية العملاقة التي تمتد نشاطاتها وفروعها إلى مختلف أنحاء العالم، وتسيطر على شطر كبير ومتنام في عمليات إنتاج وتمويل وتوزيع الدخل العالمي مع العلم أن هذا الدور يكون أحياناً غير مباشر وغير ظاهر، فأصبح من الممكن الآن الحديث عن الدخل العالمي مع العلم أن هذا الدور يكون أحياناً غير مباشر وغير ظاهر، فأصبح من الممكن الآن الحديث عن مستوى اقتصادي عالمي متميز بآلياته ومشكلاته وآفاق تطوره على المستويات الوطنية، وتصبح النظرة للعالم باعتباره الوحدة الاقتصادية الأساسية.

وقد أخذت العولمة الاقتصادية أبعادها في المرحلة الراهنة بانتصار القوى الرأسمالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. وانهيار الاتحاد السوفييتي والأنظمة الاشتراكية في دول أوروبا الشرقية، فاستعاد النظام الاقتصادي الاجتماعي الرأسمالي هيمنته وانتشاره بدينامية جديدة مؤسسة على اقتصاد السوق والموجة الثالثة (ثورة المعلوماتية) وإدماج القسم الأعظم من الاقتصاديات الوطنية بالسوق الرأسمالية العالمية، بحيث أصبحت هذه الاقتصادات أسيرة لمفاهيم السوق والمنافسة الاحتكارية التي تتحكم فيها القمم الاقتصادية العملاقة، متخطية الحدود والقيود، مستندة إلى قوى السوق

وبإشراف مؤسسات العولمة الاقتصادية الثلاث، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي للإنشاء والتعمير والمنظمة العالمية للتجارة خليفة (الغات).

وتبدو ملامح العولمة في الاقتصاد من خلال المظاهر التالية:

- الاتجاه المتزايد نحو التكتل الاقتصادي للاستفادة من التطورات التقنية الهائلة.
- تنامي دور الشركات متعددة الجنسية (عبر القومية) وتزايد أرباحها واتساع أسواقها وتعاظم نفوذها في التجارة الدولية.
- تزايد دور المؤسسات المالية الدولية بشكل مباشر وبخاصة في تصميم برامج الإصلاح الاقتصادي وسياسات التثبيت والتكيف الهيكلي في الدول النامية (التحول إلى اقتصاد السوق).
- تدويل بعض المشكلات الاقتصادية مثل الفقر، التنمية المستدامة، السكان والتنمية، التنمية البشرية، التلوث وحماية البيئة، والتوجه العالمي لتنسيق عمليات معالجة هذه المشكلات والتعاون في حلها.
- تعاظم دور الثورة التقنية الثالثة وتأثيرها في الاقتصاد العالمي التغيرات السريعة في أسلوب الإنتاج ونوعية المنتج.
- بروز ظاهرة القرية العالمية، وتقليص المسافات نتيجة لتطور وسائل النقل والمواصلات وزيادة الاحتكاك بين الشعوب.
- تطور وسائل الإعلام وتأثيرها على طبيعة البشر وتطلعاتهم وسلوكهم، وأثر ذلك على اختلاط الحضارات والثقافات.
- تعاظم دور المعلوماتية، والإدارة، والمراقبة من إدارة نظم المعلومات.

الجدير بالملاحظة أن تجد (العولمة) جوانبها التطبيقية في كافة المجالات باستثناء ما يتعلق بانتقال قوة العمل، ففي الوقت الذي تمارس فيه المراكز الرأسمالية والمؤسسات المالية الدولية التابعة لها مختلف أنواع الضغوط لتأمين حرية انتقال السلع والخدمات والرساميل، فإننا نجدها تضع مختلف القيود والعراقيل لمنع انتقال أو هجرة قوة العمل وبخاصة من الدول النامية إلى الدول المتقدمة. في حين اتصف القرنان الثامن عشر والتاسع عشر بدرجة أكبر بكثير من حرية الهجرة، فمن المعلوم أن هجرة الأوروبيين إلى الأمريكيتين وإلى نيوزيلندا واستراليا وجنوب أفريقيا وإلى الكثير من أقطار العالم الثالث المستعمرة آنذاك مثلت صمام أمان للرأسمالية الأوروبية وساهمت في الحيلولة دون حدوث تغييرات اجتماعية كبيرة فيها بسبب البطالة المتفشية وانتشار الفقر والبؤس في تلك المرحلة.

عقب ما سببته الحرب العالمية الثانية من دمار، برز الاقتصاد الأمريكي كقوة مهيمنة في الاقتصاد العالمي وقد استعلمت الولايات المتحدة موقعها القوي هذا بعد الحرب لخلق حلف دولي سياسي واقتصادي على أساس مساعدة ألمانيا واليابان وفي محاولة لإحداث نمو سريع في أوروبا الغربية في شرق وجنوب شرق آسيا لمواجهة التهديدات السوفييتية والصينية وتحققت منذ الخمسينات مستويات عالية من النمو في تلك المناطق. وقابلتها مستويات أيضاً من النمو في الاتحاد السوفييتي. ومع بداية تراجع الأداء الاقتصادي السوفييتي في أواخر الستينات، أخذ تحد اقتصادي جديد يـذر بقرنيه في شرق وجنوب آسيا على شكل سلع تصديرية رخيصة الثمن ورفيعة الجودة أخذت تغرق السوق الأمريكية، وتهدد بخلق عجز جدي في الميزان التجاري.

وازدادت مشكلة الولايات المتحدة هذه بسبب ارتفاع أسعار النفط عامي 1973 و1974 وبالصعوبات التي رافقت التحول من اقتصاد صناعي إلى آخر قائم على الخدمات والتقنية في حقل الإعلام والمعلومات. وقد استطاعت الولايات المتحدة، على الرغم من المشاكل الجدية التي واجهت اقتصادها في السبعينات والثمانينات من أن تتحمل عجزاً ضخماً في ميزانها التجاري وأجرت إعادة بنيان لاقتصادها، واستعادت في أوائل التسعينات المبادرة في القوة الاقتصادية. وفيما ظلت أوروبا الغربية تقاوم ارتفاع كلفة الإنتاج فيها وارتفاع البطالة وعوائق أخرى، وفيما ظلت اليابان تتخبط في ركود اقتصادي منذ العام 1990 نهضت الولايات المتحدة واستعادت تفوق حصتها في الأسواق في صناعتي السيارات والكومبيوتر المهمتين وأعادت تأكيد موقعها على أنها أكبر سوق وأكبر دولة مصدرة في العالم ولعل الأهم أنها بإنفاقاتها وبتفوقها في الأبحاث في حقل التقنية الرفيعة والتطور وضعف نفسها في موقع جيد يخولها الاستمرار في السيطرة على الأسواق العالمية لبرامج الحاسوب وشبكة الاتصالات (إنترنت) في مطلع القرن الحادي والعشرين.

يقول توم فريدمان الأمريكي: نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي الأمركة، والولايات المتحدة قوة مجنونة، نحن قوة ثورية خطرة، وأولئك الذين يخشوننا على حق. إن صندوق النقد الدولي قطة أليفة بالمقارنة مع العولمة.

ولكن العولمة بالمفهوم المعاصر (الأمركة) ليست مجرد سيطرة وهيمنة والتحكم بالسياسة والاقتصاد فحسب، ولكنها أبعد من ذلك بكثير، فهي تمتد لتطال ثقافات الشعوب والهوية القومية الوطنية، وترمي إلى تعميم أنموذج من

السلوك وأنماط أو منظومات من القيم وطرائق العيش والتدبير، وهي بالتالي تحمل ثقافة (غربية أمريكية) تغزو بها ثقافات مجتمعات أخرى، ولا يخلو ذلك من توجه استعماري جديد يتركز على احتلال العقل والتفكير وجعله يعمل وفق أهداف الغازي ومصالحه. وأكد ذلك الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش حين قال في مناخ الاحتفال بالنصر في حرب الخليج الثانية: إن القرن القادم سيشهد انتشار القيم الأمريكية وأنماط العيش والسلوك الأمريكي.

وعلينا نحن في أرجاء أخرى من العالم تحديد موقفنا من هذه الهيمنة الأمريكية ومواجهتها وعلينا نحن في الأقطار الإسلامية أن نقرر كيف سنواجه هذا التحدي ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين بأساليب يؤمل أن تكون أكثر نجاحاً من تلك التي واجهنا بها حملة نابليون على مصر في عام 1798، أو تلك التي قابلنا بها انهيار الإمبراطورية العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى.

مع ذلك فإن موقع الولايات المتحدة القوي في الاقتصاد العالمي ليس مطلقاً لأن الاقتصاد العالمي متعدد الأقطاب فمجمل اقتصاد أوروبا الغربية أضخم من الاقتصاد الأمريكي، وكذلك اقتصاد منطقة شرق وجنوب شرق آسيا بوجه عام. كما أن الاقتصاد الأمريكي ما زال يواجه مشاكل جدية قد تهدد نموه في المستقبل ومن هذه المشاكل العجز في الميزان التجاري، وعلى الأخص مع شرق آسيا البالغ قرابة 160 مليار دولار في السنة وديون دولية متراكمة تربو على الألف مليار دولار وكانت الولايات المتحدة قد اعتمدت التسامح تجاه العجز التجاري على أنه جزء من إستراتيجيتها الرامية إلى تقوية حلفائها الرأسماليين عقب الحرب العالمية

الثانية ولكن حجم العجز وثباته أبقيا الضغط على الدولار الأمريكي وبقي الخطر ينطوي على التسبب في انخفاض مفرط في قيمة الدولار لقد استطاع الدولار الحفاظ على مركز قوي نظراً إلى ثقة المستثمرين بالاقتصاد الأمريكي وإلى غياب عملة بديلة قادرة على الاستمرار، ولأن اقتصاديات شرق آسيا يهمها بقاء الدولار قوياً لتنشيط صادراتها إلا أن استمرار العجز مشفوعاً بنمو الاقتصاد الصيني نمواً سريعاً علماً بأن الصين تصدر سلعاً كثيرة إلى الولايات المتحدة. لقد أدى العجز في الميزان التجاري إلى توسع الاستثمارات الأجنبية وخصوصاً اليابانية منها في الولايات المتحدة وكذلك إلى شراء قطاعات كبيرة من الاقتصاد الأمريكي ومنها العقارات والمؤسسات الصناعية والخدماتية كما أن الدين الخارجي البالغ ألف مليار دولار والمتوجب في أكثره لليابان يفرض نزفاً مستمراً على الميزانية العامة ويحول دون توظيف موارد مهمة في الاقتصاد وفي الأنشطة الإنتاجية ولئن كان بالإمكان تحمل هذا الدين نظراً إلى الناتج القومي الأمريكي الذي يربو على السبعة آلاف مليون دولار فإن هذا الدين يبقى معيقاً للنمو السريع.

إن للعولمة أهدافاً أبعد من الربح وأبعد من التجارة الحرة والحدود المفتوحة والأسواق الحرة، إن الخطر يكمن في ما يسمى بثقافة العولمة أكثر تروج العولمة لأربع ثورات أساسية من المتوقع أن يكون لها تأثير كبير في حياة الناس جميعاً وسط تحديات هائلة. وهذه الثورات هي:

1 ـ الثورة الديمقراطية.

2 ـ الثورة التكنولوجية الثالثة ـ أو ما بعد الثالثة.

3 ـ ثورة التكتلات الاقتصادية وبخاصة العملاقة.

4 ـ ثورة اقتصاد السوق وحرية التبادل التجاري، بعد قيام المنظمة العالمية للتجارة لتحل محل اتفاقيات الغات.

وفي إطار هذه الثورات وما ينتج عنها من آثار يتم بناء النظام العالمي (العولمة)، ويعتمد فيه الاقتصاد على استثمار الوقت بأقل تكلفة وعن طريق استخدام المعرفة الجديدة وتحويلها إلى سلع أو خدمات جديدة أو التحسين السريع والمستمر في المنتجات وطرق التصنيع والدخول بها إلى الأسواق بطريقة فعالة. ولم تعد التنمية الاقتصادية تعني التغيير من وضع سيئ إلى وضع أفضل بل المهم هو الوقت الذي يستغرقه هذا التغيير.

كيف تحدث العولمة؟ وبأي طريق أو من خلال أي قنوات تتم حركة وانتقال البضائع والخدمات والأفراد ورأس المال والأفكار والمعلومات والرموز والاتجاهات وأشكال السلوك عبر الحدود؟ وما هو دور الشركات متعددة الجنسية في ذلك؟

في رأي روزناو تتم عليمة الانتشار من خلال أربع طرق متداخلة ومترابطة:

ـ من خلال التفاعل الحواري الثنائي الاتجاه عن طريق تقانة الاتصال.

ـ الاتصال المونولوجي أحادي الاتجاه من خلال الطبقة المتوسطة.

ـ من خلال المنافسة والمحاكاة.

ـ من خلال تماثل المؤسسات.

ولكن روزناو ينسى أو يتناسى الدور الكبير والهام والرئيس للشركات متعددة الجنسية في عملية الحركة والانتقال وبخاصة في مجال البضائع والخدمات ورأس المال والتي تعد من أهم عناصر الانتقالات الكونية.

ثالثاً ـ الشركات متعددة الجنسية من أقوى قاطرات الرأسمالية باتجاه العولمة:

وتعد الشركات متعددة الجنسية من أقوى القاطرات التي تستخدمها الرأسمالية في جر الاقتصاد العالمي باتجاه العولمة للأسباب التالية:

1 ـ الانتشار الواسع والسريع للشركات متعددة الجنسية، حيث وصل عددها إلى حوالي 40 ألف شركة يمتد نشاطها في كافة القطاعات ويغطي القارات الخمس. وقد بلغت إيرادات أكبر 500 شركة متعددة الجنسية في عام 1996 نحو 11000 مليار دولار وهذا يشكل 44٪ من الناتج المحلي العالمي الذي وصل إلى نحو 23000 مليار دولار (الوطن العربي 576 مليار) وتسيطر الشركات متعددة الجنسية على ثلث الاستثمارات الأجنبية المباشرة، وثلثي التجارة الدولية في مجال السلع والخدمات.

2 ـ أدى الدور الأساسي الذي لعبته الشركات متعددة الجنسية في تدويل الاستثمار والإنتاج والخدمات والتجارة إلى سيادة أنماط عالمية في الإنتاج ـ من حيث علاقات الإنتاج وشكل ملكية وسائل الإنتاج ـ والتسويق والاستهلاك والاستثمار والإعلان والدعاية.

3 ـ يواكب العولمة أحياناً كثيرة تزايد دخول مالكي وسائل الإنتاج وارتفاع قيمة أسهم الشركات متعددة الجنسية وكذلك تزايد عدد المصروفين من الخدمة في هذه الشركات وهذا يؤكد أن لا مكان للمشاعر والمواقف الإنسانية في النظام الرأسمالي العالمي. وإذا كان هناك خيار بين الإنسانية وحيوية الاقتصاد فليس للرأسمالية سوى الخيار الثاني، الذي أدى إلى فصل 43 مليون عامل من العمل في المؤسسات الأمريكية خلال عشرين عاماً.

وأصبحت الشركات متعددة الجنسية تتحكم بالاقتصاد العالمي، تتحكم بالإنتاج وتبادله وتوزيعه وتسعيره وتيسير الحصول عليه أو منع وصوله، كذلك تتحكم باستقرار مراكز صناعته في هذا المجال الجغرافي أو ذلك، وتتحكم بانتقال رأس المال وبخلق الأزمات أو حلها، إنها تتحكم بعصب السياسة وأعني الاقتصاد.

وتبقى مسألة في منتهى الأهمية، وهي موقف المجتمعات المختلفة من العولمة، هناك معركة كبرى أيديولوجية وسياسية واقتصادية وثقافية تدور حول العولمة، هناك اتجاهات رافضة بالكامل، وهي اتجاهات تقف ضد مسار التاريخ، ولن يتاح لها النجاح. وهناك اتجاهات تقبل العولمة من دون تحفظات باعتبارها هي لغة العصر القادم، وهي اتجاهات تتجاهل السلبيات الخطيرة لبعض جوانب العولمة، وهناك اتجاهات نقدية تحاول فهم القوانين الحاكمة للعولمة وتدرك سلفاً أن العولمة عملية تاريخية حقاً، ولكن ليس معنى ذلك التسليم بحتمية القيم التي تقوم عليها في الوقت الراهن، والتي تميل في الواقع إلى إعادة إنتاج نظام الهيمنة القديم، وتقديمها في صور جديدة. وهذه الاتجاهات برزت في أوروبا وفي فرنسا على وجه الخصوص. من خلال الموقف الرافض للحزب الاشتراكي الفرنسي، والذي تبلور بشكل خاص في تقرير الحزب الصادر في 3 نيسان/ أبريل عام 1996 بعنوان: (العولمة وأوروبا وفرنسا) وهو يتضمن أعنف نقد للعولمة الأمريكية، فضلاً عن ذلك، بدأت تتصاعد داخل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها حركات فكرية مضادة للعولمة، لم تقنع بالنقد التفصيلي لكل جوانب العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية ولكنها ـ أبعد من ذلك ـ تحاول أن تقدم البديل، ولعل أبلغ ما يعبر عن هذه

الحركات النشطة حالياً الكتاب الذي حرره جيري ماندر وإدوارد سميث عام 1996 وعنوانه: (القضية ضد الاقتصاد الكوني ونحو تحول إلى المحلية) وهو يحتوي على أكثر من أربعين دراسة متعمقة.

رابعاً ـ العولمة الاقتصادية والأقطار الإسلامية:

تمثل العولمة التي يشهدها الاقتصاد العالمي تحدياً خارجياً وخطيراً للبلدان الإسلامية، واقتصادياتها بالعالم الإسلامي مراقب ومهدد في نفس الوقت، يعيش مرحلة من التناحر والتآكل والتهميش فاقداً لآية إستراتيجية اقتصادية سياسية ديناميـة للدفاع أو للهجوم. إن عمليات الضغط والإضعاف التي تستهدف وطننا الإسلامي من أجل زعزعة استقراره وتعطيل مؤهلاته حتى لا يبقى أمامه سوى الاندماج السلبي في آليات العولمة وبالصيغة التي يعرفها الأقوياء تحت اسم التدويل الشامل للاقتصاد أو (العولمة الاقتصادية).

ما زال الجدل قائماً بين ثلاثة تيارات فكرية متقابلة حول ظاهرة العولمة وأثرها الاقتصادي على بلداننا الإسلامية. فيرى التيار الأول أن العولمة أمر طيب ومفيد على وجه العموم. ذلك لأننا سنستفيد من التقدم التكنولوجي المتسارع ومن تكامل الاقتصاد العالمي الذي ربما يقدم فرصة لم يسبق لها مثيل للتخلص من الفقر ومنح ملايين البشر حياة أفضل بالرغم من أن العولمة ستؤدي حتماً إلى خسارة الأقطار الإسلامية لبعض سادتها في توجيه اقتصادياتها كما تريد ويدافع عن هذا التيار مؤسسات العولمة الثلاث والولايات المتحدة الأمريكية وبعض رجال الأعمال والتكنوقراط.

أما التيار الثاني فهو يرى أن العولمة أمر واقع ونتيجة موضوعية لتطور قوى الإنتاج في الرأسمالية والتقدم العلمي والتقني، وتقود إلى مزيد من التشابك والاندماج بين الاقتصادات المختلفة إلا أن هذه العولمة بأبعادها الحالية تثار حولها ملاحظات وانتقادات جديدة وجدية أهمها أن مكاسبها تطال عدداً قليلاً من الدول عدد سكانها لا يتجاوز 20٪ من إجمالي سكان العالم. في حين سلبياتها تطال معظم البلدان النامية وتؤدي إلى زيادة مشاكلها الاقتصادية وتعيق عملية التنمية فيها. ويتبنى هذا التيار بعض المفكرين في بلدان العالم الثالث وبعض القوى اليسارية والاشتراكية في الدول الرأسمالية.

التيار الثالث يرى أن العولمة هي أحد شرور النظام الرأسمالي العالمي، لأنها تسعى إلى تعويض اقتصادات الدول الرأسمالية المتقدمة عن انكماش أسواقها الداخلية، وذلك بنقل المزيد من عمليات الإنتاج بكاملها (وبخاصة الصناعات القذرة) من المراكز الرأسمالية الرئيسة إلى البلدان النامية مع الاحتفاظ بقيادة العملية الإنتاجية في العالم، فالرأسمالية عن طريق العولمة تحاول حل مشاكلها الاقتصادية بتصديرها إلى بلدان العالم الثالث. وهذا بدوره يؤدي إلى زيادة الأغنياء غنىً والفقراء فقراً، يتبنى هذا التيار معظم القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلدان النامية التي تعلم درجة الفقر وسوء التغذية والبطالة والأمراض المنتشرة والتبعية، والنهب المستمر لخيرات بلدان العالم الثالث عن طريق الشركات متعددة الجنسية والتبادل التجاري غير المتكافئ.

1 ـ أهداف العولمة الاقتصادية ونتائجها المستقبلية في الأقطار الإسلامية:

في ظل العولمة ظهرت بيئة ضاغطة تتراجع فيها مهمات الدولة في الأقطار الإسلامية لتصبح منحصرة في مجرد التسيير الإداري اليومي لسياسات وبرامج مفروضة من مؤسسات العولمة الدولية مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والمنظمة العالمية للتجارة ومؤسسات مالية دولية أخرى؛ مثل هيئة المعونة الأمريكية وطبقاً لشروط ومتطلبات الشركات متعددة الجنسية حتى تستثمر في الأقطار الإسلامية، وبعبارة أخرى فإن المهمة الملقاة على الدولة في الأقطار الإسلامية وغيرها أضحت مجرد إدارة للأزمة أو سياسة إدارة الأزمات ذلك أن إدارة الأزمة الاقتصادية تشير من وجهة النظر الرأسمالية، إلى أهمية تجنب تصاعد تراكم الفائض الهائل والمتنامي للرأسمال غير المستثمر، أو الذي يمكن استثماره، في عملية توسيع النظام الإنتاجي، وهذا يعني أن سياسات تحرير التبادل التجاري والتدفقات العالمية لرأس المال والنسب العالية للفوائد وتنامي الديون الخارجية، ما هي إلا أساليب ووسائل ابتكرها النظام الرأسمالي العالمي بهدف الحيلولة دون فشل هذا النظام ولو كان ذلك على حساب البلدان النامية.

ويمكننا تحديد أهم الأهداف والنتائج التي تحصل عليها الأقطار الإسلامية في ظل العولمة وفقاً لما يلي:

1 ـ في ظل تعدد أنماط الإنتاج في كافة الأقطار الإسلامية (نمط الإنتاج الرأسمالي، نمط الإنتاج ما قبل الرأسمالي، نمط الإنتاج غير الرأسمالي) فإن العولمة تهدف إلى تصفية أنماط الإنتاج غير الرأسمالية وتصفية شروطها لصالح سيادة نمط الإنتاج الرأسمالي وحده وشروطه.

2 ـ في ظل التزايد السريع لعدد السكان في الأقطار الإسلامية، فيجب أن يظل هذا الحجم الكبير من الكتل البشرية يعمل وينتج ويستهلك في ظل شروط رأسمالية كلاسيكية أو شبه كلاسيكية.

3 ـ تهدف العولمة إلى تحويل كل المنتجين المباشرين في الأقطار الإسلامية إلى العمل المأجور، أي جعل دخولهم تعتمد على السوق فقط مع التراجع السريع للترتيبات الاجتماعية والقانونية والعرفية التي كانت تضمن للفرد حقاً في دخل ما بمعزل عن اعتبارات السوق.

4 ـ ستؤدي العولمة حتماً في الأقطار الإسلامية إلى تزايد البطالة بجميع أشكالها وأنواعها لأن التحول في شكل ملكية وسائل الإنتاج لصالح الملكية الخاصة سيؤدي إلى أن الطلب على قوة العمل في ظل العولمة ستكون أقل بكثير من عرض قوة العمل.

5 ـ من المتوقع أن تؤدي العولمة إلى تعميق التخلف الاقتصادي في الأقطار الإسلامية وفقدان الترابط بين قطاعات الاقتصاد الوطني (حيث يصبح ارتباط قطاع الفوسفات في بلد ما بالمركز أقوى بكثير من ارتباطه بقطاع النفط مثله في البلد ذاته، وهو القطاع الذي يرتبط بدوره بالسوق العالمية للنفط بالمراكز أكثر من ارتباطه بقطاع الزراعة المحلي وفي البلد نفسه).

6 ـ سيكون من نتائج العولمة تصدير الصناعات الأكثر تلويثاً للبيئة من المركز إلى الأقطار الإسلامية والعالم الثالث وتصدير الصناعات التي تتطلب كثافة عالية في اليد العاملة بدلاً من الكثافة العالمية لرأس المال.

7 ـ سترتفع فاتورة الغذاء المستورد للأقطار الإسلامية، بسبب تحرير التجارة في المواد الغذائية وإلغاء سياسات الدعم للصادرات في دول المركز.

8 ـ سيكون الميل إلى تراجع الصناعات التحويلية في الأقطار الإسلامية بسبب عدم قدرتها على المنافسة، بسبب اعتمادها على السياسات الحمائية لفترة طويلة من الزمن.

9 ـ من المتوقع تراجع أهمية النفط الإسلامي وذلك لأن أهمية النفط الإسلامي مرتبطة بمدى حاجة دول المركز الرأسمالي لهذا النفط. وربما يتم اكتشاف بدائل للنفط بسبب التقدم العلمي السريع والهائل.

أدى انتشار نمط الاستهلاك الغربي في الأقطار الإسلامية إلى استنفاذ مواردها المالية وتشويه بنية الطلب في هذه البلدان وبخاصة الطلب الفعال والكبير للشرائح الغنية التي تتميز بشراهتها لاقتناء كل ما هو مستورد وكل ما هو غالي الثمن. فالمظهرية الزائفة والإنفاق التفاخري لدى معظم هذه الفئة الاجتماعية متفشية بين الرجال والنساء سواءً بالنسبة لشراء آخر صرعات (موضة) الملابس المصنوعة في الغرب أم اقتناء أحدث موديلات السيارات وأجهزة الاتصال وأجهزة (الكومبيوتر) الحاسوب وأدوات التسلية وتكديس السلع الاستهلاكية الكمالية غالية الثمن في مختلف أركان المنزل. ونجد في بعض الأسر أن كل فرد فيها يمتلك جهاز كمبيوتر أو جهاز تلفزيون في غرفته وأحياناً هاتف وأجهزة تسلية أخرى.

2 ـ كيف نواجه العولمة الاقتصادية في الأقطار الإسلامية:

ينظر العالم إلينا اليوم كأمة إسلامية لها حضارة عريقة وراغبة في بناء مستقبل أجيالها. ولابد من التكتل الاقتصادي الإسلامي لمواجهة التكتلات الاقتصادية العالمية العملاقة بدلاً من تكريس السياسات القطرية الضيقة ولابد من اغتنام الفرصة لوضع أسس التعاون الاقتصادي الإسلامي للدخول

في النظام العالمي الجديد (العولمة)، ونحن ندخل الألفية الثالثة للميلاد يمكننا الإشارة إلى عدد من الإجراءات التي بواسطتها يمكن مواجهة العولمة:

- دعم الإصلاحات الاقتصادية في الأقطار الإسلامية وتأهيل الاقتصاد الإسلامي للدخول في القرن الحادي والعشرين ضمن التكتلات الاقتصادية العالمية العملاقة.
- قيام سوق إسلامي لرأس المال وحركته في إطار الأقطار الإسلامية، وضع إطار قانوني وتشريعات جديدة تتلاءم مع المتغيرات الحاصلة في الأسواق العالمية.
- حرية انتقال عناصر الإنتاج والإنتاج وقوة العمل والأشخاص ورأس المال فيما بين الأقطار الإسلامية إضافة إلى حرية التملك والإرث.
- توحيد السياسيات النقدية والمالية والجمركية والنقل والترانزيت والتجارة الخارجية.
- خلق مرصد إسلامي اقتصادي اجتماعي مهمته تقييم واقتراح السياسيات الاقتصادية الإسلامية، وتحديد الاختلافات وعوامل تلافيها. وهذا يتطلب خلية استشارية تضم الخبراء الإسلاميين تكلف بالتفكير في السياسات الاقتصادية الإسلامية في ظل المتغيرات الدولية. ويمكن أن يكون للأقطار الإسلامية دور هام في إنجاز مثل هذا الأمر.
- لابد من استشراف آفاق المستقبل ووضع تصور مستقبلي لموقع الأقطار الإسلامية في المحيط الإقليمي والدولي وتصور مفهوم محدد للأمن الإسلامي وتوقع مدى إمكانية قيام السوق الإسلامية المشتركة وما يرتبط بها من قضايا الحماية والدعم والمنافسة والحرية الاقتصادية. ووضع إستراتيجية

بناء القدرة التنافسية والتي تعد من أهم عناصر الإستراتيجية العليا للتنمية العليا الشاملة في الأقطار الإسلامية.

ـ الارتقاء بالقدرات البشرية على مستوى الأقطار الإسلامية.

ويمكن أن يكون الدرس الذي تقدمه التجربة الصينية في تعاملها مع العولمة درساً هاماً بالنسبة لجميع الدول النامية والأقطار الإسلامية خاصة. إذ تمكن هذا البلد من إطلاق عملية التنمية بجناحيها الاقتصادي والاجتماعي فنجح، واعتمد على إمكاناته وطاقاته الذاتية بالدرجة الأولى، كما حاول إصلاح بنى اقتصاده الاشتراكي من دون أن يدمرها فأصلح، وأراد أن يتعامل مع العولمة بعقل مفتوح ومن موقع قوة الاقتصاد الصيني فأضحت سوقه جاذبة للاستثمارات الخارجية الخاصة والعامة.

إن عالم المستقبل هو عالم التكتلات الاقتصادية، عالم الشركات والاستثمارات الكبرى، عالم التقانة والمعلوماتية، عالم الإدارة القادرة والقرار النافذ. لذلك يتوجب على الأقطار الإسلامية أن تخطو خطوات حاسمة في استمرارية لا رجعة فيها لتحقيق هدف التكامل الاقتصادي الإسلامي والوحدة الاقتصادية الإسلامية التي بدونها لن يستطيع الإسلام بناء اقتصاد إسلامي قادر على البقاء والمنافسة في عالم الاقتصاد المعاصر.

الماسونية

نشأة الماسونية:

بعد أن درس آدم وايز هاويت علم اللاهوت في جامعة أنغولدشتات الألمانية أثارت فيه هذه الدراسة الشكوك حول الكتاب المقدس فألحد وكفر بالنصرانية، فاستغله اليهود وأغروه بالمال والجاه فاتبعهم وعمل معهم فكان مؤثراً في دعوته لليهودية مما جعلهم يسندون إليه رئاسة المحفل الماسوني سنة 1700م فأسّس جماعة باسم (جماعة حكماء صهيون) وادّعى وايز هاويت أنه يسعى لإقامة حكومة عالمية واحدة مؤلفة من الأشخاص ذوي الطاقات الفكرية والعبقرية النادرة، فاستطاع أن يضم إلى محفله أكثر من ألفين من أبرز المتفوقين في ميادين العلم والاقتصاد والسياسة والصناعة وأساتذة الجامعات، ولم يكتف بذلك فحسب فكون محفل الشرق الأكبر.

تعريف الماسونية:

الماسونية هي حركة سرية ذات أهداف وأبعاد سياسية تعمل على تحقيقها داخل الواقع العالمي ولها رسائلها وأسلوبها، تحكمها مجموعة من المبادئ والشكليات التي لا بد منها لكل منتسب إليها فالباب عندهم سرّ والكرسي سر واللباس سر والكلام هو الإشارة والإشارة هي الرمز والرمز له من يعرفه، وهي ثلاث وثلاثون درجة.

إضافة إلى جمعية بني بريث أو بناي بريث التي تأسست عام 1834 (في مدينة نيويورك) ولها محافل في كلّ من باريس وبرلين إلا أنّ محفل برلين قد ضم أكثر من ثمانين شعبة.

ويمثلها رئيسها العام وهو اليهودي الإنكليزي (سيمون).

وأول حركة ماسونية قد تأسست عام 37م ويطلق عليها «القوة الخفية لحراسة الهيكل».

ماهية الماسونية وحقيقتها:

فالماسونية حركة تنظيمية خفية قام بها على الأرجح التلموديون اليهود ولاسيما في مراحل الضياع السياسي الذي تعرض له يهود العهد القديم فأخذ الحاخامات على عاتقهم إقامة تنظيم يهودي يهدف إلى إقامة مملكة صهيون العالمية فاستخدموا لذلك فرقة أطلقوا عليها (جمعية البنائين الأحرار) وسخروا جماعات غير يهودية بهدف بناء هيكل سليمان، وتنفيذاً لمخطط فكري اجتماعي واقتصادي صهيوني الفكر عميق الأهداف كبير الأثر، متغير المظهر لخدمة أهداف صهيونية واحدة. ظهر مصطلح الماسونية تعبيراً عن مضمونه اللغوي فهو باللغة الفرنسية (فرماسون) أي ماسون وتعني الباني الصادق وجماعتهم البناؤون الأحرار كما يقول فورشيه في كتابه (هذه هي الماسونية).

وقد قال جرجي زيدان وهو أحد الماسون: إنّ الماسونية كما لا يخفى هي جمعية سرية ونظراً لما كان يتهددها من الاضطهادات المتواترة في الأجيال المظلمة وغيرها كانت تبالغ في إخفاء أوراقها.

علاقة الماسونية باليهودية الكابالا:

كان أستاذ الماسونية الأعلى قديماً هو أحيرام أبيود، وكان شعارها الظاهري عدم التعصب للأديان واحترام سائر المذاهب المعروفة، وكان شعارها الإخاء والحرية والمساواة.

وقال حنين قطيني في كتابه (البنّاء) وهو ماسوني: الماسوني رجل مؤمن بالله وبخلود النفس وهي حركة تنظيمية ذات هدف يهودي تحت رداء طابع عالمي الأهداف.

وتنقسم إلى الماسونية العامة، والماسونية الملوكية، والماسونية الكونية، وإنّ المؤسس للحركة الماسونية الحديثة كما جاء في كتاب تبديد الظلام هو الملك أكريبا والمؤسس الثاني هو أحيرام أبيود، الذي ابتكر فكرة تأسيس الجمعية.

المحفل الأعظم الفرنسي والمحفل الأكبر الإنكليزي:

قال جرجي زيدان في كتابه تاريخ الماسونية العام (إن نشأة الماسونية ترافقت في الوقت الذي تم فيه الانفصال من حركة البنائين الأحرار القديمة إلى الماسونية الحديثة).

فكان جيمس أندرسون هو أول من وضع الدساتير والأسس التنظيمية للماسونية الحديثة بعد عام 1723 فانتشرت من لندن إلى فرنسا ويفوق عدد المنتسبين إليها أكثر من سبعين ألفاً و448 محفلاً في فرنسا و 48 محفلاً في المستعمرات الفرنسية.

ويقسم جرجي زيدان الماسوني الماسونية إلى الطور الأول الماسونية العملية المحضة من عام 715م إلى 1000 ميلادي والطور الثاني من عام 1783 حتى مراحل تاريخ الكتاب ورمْزُهَا البيكار والفادن وهي آلة من آلات البناء.

وقال شاهين مكاريوس في كتابه الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية: قد أرجع الباحثون نشوء الماسونية إلى آدم عليه السلام ومنهم من

جعلها مع النبي موسى عليه السلام وفريق آخر جعلوها مع داود وسليمان عليهما السلام.

أمّا القوة الخفية فقد أسّسها تسعة رجال وبعضهم أسندوها إلى جمعية نوح وهيردوس الثاني هو نفسه أغريبا الثاني وأحيرام ابيود ومؤاب لامي والباقون أسسوها لهدم المسيحية التي نافست اليهودية وهددتها بالقضاء عليها وكانوا وراء الحروب بين اليعاقبة والنساطرة على أيدي الحكام الرومانيين وكذلك دخل بعض اليهود مثل كعب الأحبار في الإسلام وأدخلوا الإسرائيليات وعبد الله بن سبأ رأس الفتنة في قتل عثمان رضي الله عنه.

والقرامطة ويليها أبو سعيد الجنابي رئيس القرامطة نقلوا الحجر الأسود من الكعبة المشرفة إلى مدينة هجر في البحرين لمدة سبعة عشر عاماً.

إن الراوندية هي التي قالت بألوهية وعصمة أبي جعفر المنصور.

والقول الأخير أنها يهودية تقوم على الكابالا اليهودية.

يقول عوض الخوري: إنّ الفضل لمن كشف لي عن أسرار تأسيس الماسونية يعود إلى د.برودانتي دي مورايس رئيس جمهورية البرازيل وإلى لوران وهو ابن جورج بن صوموئيل بن جوناس بن صموئيل لوران، كشفوا لي أسرار تأسيس جمعية (القوة الخفية) في 24 حزيران عام 1717 في العيد السنوي للماسونية الجديدة بزعامة جيمس أندرسون صديق ديزا كوليه الذي اتفق مع جورج ولافي على إعادة المحفل الأساسي إلى أورشليم.

وإنّ أهدافها هدم كل الأديان ليبقى اليهود شعب الله المختار ليحكموا العالم وقد قامت في 24 حزيران عام 43 بعد ميلاد المسيح في أورشليم،

وكانت غايتها الأولى إيقاف المد المسيحي الذي جاء بـه اليـسوع عيـسى عليـه السلام وكان كبير المؤسسين هو خيرودوس الثاني أكريبا.

والمؤسسون التسع هم:

1 ـ الملك هيرودوس الثاني أكريبا، 2 ـ احيرام أبيود، 3 ـ مؤاب لافي،
4 ـ جوهانان، 5 ـ انتيبا، 6 ـ جاكوب،
7 ـ أبدون، 8 ـ سلمون، 9 ـ أبيرون.

إن هذا السرد التاريخي لتأسيسها ينسف الهدف الإنـساني لتأسيـسها في البيان الماسوني المـؤرخ في 1744/ مـن أسرار اتحادنـا هـو تأسـيس جمهوريـة ديمقراطية عالمية خفية.

وقال فرنكلـون إن هـدف الماسـونية محاربـة الأديـان لتكـوين حكومـة لا تعرف الله وصيانة الدولة اللادينية العلمانية.

ويمثل المحفل الخلية الأساسية الماسونية ويحق لكل سبعة ماسـونيين أن يشكلوا محفلاً يضم خمسين عضواً.

ويتم ترتيب المناصب على الشكل التـالي: الأسـتاذ الأعظـم ـ الأسـاتذة العظام السالفون الماسونية على ثلاثة أنـواع، الفرقـة الأولى سـائر الأنـواع وفي الثانية يمسك اليهود بالأمر وفي الثالثة لا يوجد إلا اليهود.

وخلاصة القول: إن الغاية الكبرى هـي الحكومـة الخفيـة اليهوديـة التـي تحكم العالم وإعادة بناء هيكل سليمان إذ تكـون الماسـونية صـنعة يهوديـة حيـث يقول مكاريوس شـاهين: إنّ الأسرار الخفيـة في الجمعيـة الماسـونية تؤكـد قـوة الارتباط الوثيق بين الماسونية والصهيونية واليهود ودخول غير مباشر في الديانة اليهودية وخدمة اليهود في الشتات.

والهدف هو تقويض الإسلام والمسيحية وهو هدف كبير، كما يتم نشر الإباحية والفوضى بين الشعوب والدعارة والفوضى المنظمة.

واستخدام الخمر والسكر والعربدة في المؤتمرات ليتم ضياع العقل والإدمان. فالواجب تناول 7 كؤوس لابد من شربها، كأس الرئيس الأعظم.. إلى كأس الماسونية العام ثم تطورت بأسماء أخرى خدمة لها الروتاري، الليونز ـ شهود يهوه ـ البهائية ـ البابية ـ القاديانية وشهود يهوه.

وهي وراء كل الحروب والثورات، والانقلابات والتعصب المذهبي والحروب الأهلية وإفقاد المعاني الدينية من النفوس والتخريف المباشر المعادي للتطور والتقدم وقد دخلوا الأمم المتحدة وعصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة وقد دونت أسماؤهم في كتب كثيرة، كلهم يهود أو ماسونيون.

ـ في مؤسسة التغذية والزراعة أكثرها يهود وماسونيون.

ـ امتلاكهم البنوك والطباعة والإعلام والصحافة.

ـ يعتبرون الدجال يسوع والدجال محمد ﷺ.

ـ البروتوكولات (الرابع) وعلينا أن نقضي على كل الأديان وأن ننزع من عقول الكويم الاعتقاد بالله وبالروح وأن نحل محلها صيغاً حسابية وحاجات مادية وإن سر وجود الماسونية العالمية هي إدخال غير اليهود في اليهودية مجازاً وهذا هو الهدف الأكبر من الماسونية (خدمة التوراة والتلمود عبر نشر تعاليمها في فكر الماسوني).

وقالوا: من أهدافنا هدم كل الأديان وكتبوا في ذلك شعراً حيث يقولون:

الخير كل الخير في ... هدم الجوامع والكنائس

والشر كل الشر في ... ما بين العمائم والقلانس

فكالفن كان يهودي الأصل وهو الذي كان اسمه كوهين أي الشعب وشارك في الحركة اللوثرية.

ومما يفضح علاقة الماسونية بالصهيونية الرسالة الموجهة من أحد الماسونيين من أمريكا وهو فرايدي تيري إلى روحي الخطيب أمين القدس بالسماح أن يبني للناس هيكل سليمان بجوار مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأغراه بالمال وبخدمة جميع الجمعيات إذا سمح له بذلك.

إن بروتوكولات حكماء صهيون هي التي كشفت العلاقة بين الماسونية والصهيونية وأنها كانت وراء الحرب العالمية الأولى والثانية لصالح اليهود.

وكان التخطيط اليهودي سياسياً مرذولاً أفصح عنه العصر الحديث البروتوكول الرابع حيث يشير إلى (أن المحافل الماسونية تقوم في العالم أجمع بدور القناع الذي يحجب أهدافنا الحقيقية). البروتوكول السادس (أن نقوض أركان كل إيمان ونزعزع من عقل الخوارج الاعتقاد بالله) البروتوكول السادس عشر (سنبيد العمل الجماعي في مرحلته التمهيدية....). البروتوكول السابع عشر (وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين من النبيين في أعين الناس.. كي نحطم البلاط البابوي تحطيماً تاماً عن ملك إسرائيل سيصير الباب الحق للعالم بطريرك الكنيسة الدولية).

العلمانية والماسونية:

أنشأ الماسوني مارتن كلير أول معهد خاص على أسس علمانية، ونجحوا في زعزعة سلطة الكنيسة في فرنسا (مونتسكيو) (ولاشالوني) فرانكلين عندما كان سفيراً في فرنسا للولايات المتحدة أوجد المحافل وقادهم لتأكيد العلمانية

وقال: لا نرتاح إلا بعد إقفال جميع المعابد وقال كوكفيل: لا يسمح للمسيحي أو المسلم بالدخول إلى أحد هياكلنا إلا بعد أن يتجرد من أضاليله.

وأما عن المرأة فيهتمون بها فمن أقوالهم (إن المرأة تهز السرير بيمينها وتهز العالم بيسارها) وإن (الميمات الثلاث في الموسوية والمسيحية والمحمدية تجتمع في ميم واحدة هي قيم الماسونية لأن الماسونية عقيدة العقائد وفلسفة الفلسفات. وقال محمد علي الزعبي في كتابه (الماسونية في العراء) كلامه عن الماسونية (لقد كبر سنّها، وتقوس ظهرها وانكشفت مساوئها، وافتضح تآمرها وبهت أنصارها، وانتهى زمن رواج نفوذها، ومع هذا علينا أن نتيقظ لمناهضة ومجابهة الماسونية وأدواتها الليونزية والروتارية والبهائية وشهود يهوه) وقد كتب الدكتور سيف الدين البستاني كتاباً قال فيه (أوقفوا هذا السرطان) وألف يوسف الحاج كتاباً سماه (هيكل سليمان) وهو أستاذ أعظم درجة 3 م بعد إغلاق المحافل الماسونية في مصر سألت إحدى الصحف الشيخ محمد أبو زهرة كيف التحقت بالماسونية ولماذا؟...

فقال: التحقت بها لسنة واحدة وعرفتها وانسحبت منها عام 1951.

وقال جمال الدين الأفغاني: انسحبت من المحفل الاسكوتلاندي وأسس محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنساوي وتبعه محمد عبده الذي كان ماسونياً كبيراً.

وإن شهود يهوه قد بلغ عدد مدارسها (25694) مدرسة عام 1970.

وإنّ اليهود والدونمة (هي حركة شهود يهوه) زوجة سليمان القانوني (روكزيلان) اليهودية، ستباي سيفي ادعى انه المسيح المنتظر ثم أسلم وسمي محمد عز البواب. وأسلمت جماعته وسموا يهود الدونمة (الراجعون إلى الدين الحقيقي).

وكان أكبر محفل بناي بريث (أبنـاء العهـد) في مدينـة نيويـورك برئاسـة هنري جونيس عام 1834 الروتاري أسسه المحامي (بول هاريس).

الروتاري الصهيوني (عبد الحليم عويس).

وإنّ النص في الموسوعة اليهودية الماسونية تنص في صلبها عـلى تقـديس الجنس والحرية التامة لنشر الإباحية أفلام الجـنس، الـشذوذ الجنـسي، نـوادي العراة.

وإنّ هدف نشاط منظمة بناي بريـث اسـتقطاب الشخـصيات الفكريـة (فرويد) وفرويد اضـطلع بمهمـة القـضاء عـلى الأديـان موضـوعياً وعمليـاً. فالشعب الذي لا يفنى غيره يفني نفسه.

وإن فروع الماسونية كثيرة جداً.

وقد أصدر المجمع الفقهي بياناً سنة 1978 م (اعتبر فيه الماسونية منظمة من أخطر المنظمات الهدامة للإسلام وإن من ينتسب إليها عـلى علـم بحقيقتهـا وأهدافها فهو كافر بالإسلام مجانب لأهله).

ويبلغ عددها في العالم 30 ألف محفل ماسوني (الجمعية العربيـة القديمـة لنبلاء الهيكل الصوفي) في أمريكا.

السلبيات:

قال المركيز دي لوشه يحذر من نشاط المحافل الماسونية:

(أيها الناس المخدوعون! اعلموا أنه توجد مؤامرة لتغليـب الظلـم عـلى الحرية والعجز على الكفاية، والرذيلة على الفضيلة والجهـل عـلى النـور وهـذه الجمعية الماسونية ترمي إلى حكم العالم وغايتها السيادة العامة وقد تبـدو هـذه الفكرة خارقة بيد أنها فكرة خيالية).

وقال نقولا حداد في المقتطف: الماسونية غايتها إنشاء دولة صهيونية تنمو لتسيطر على العالم وشعارها: لا حرية لا إخاء لا مساواة.

وكتب الأديب الفرنسي بيار هيبيس كتاباً بعنوان الجمهورية العالمية (الماسونية واليهودية تعملان متآزرتان في سبيل ديكتاتورية عالمية بزعامة إسرائيل). وهي مؤسسة يهودية كل ما فيها من ألفها إلى يائها يهودي.

وإنّ في فلسطين المحتلة 2500 ماسوني منظمين في ستين محفلاً تضم عرباً ويهوداً، تدخلها بالسياسة 15 رئيساً في الولايات المتحدة من الماسونية جيرالدفورد وروزفلت. وقد ألغيت المحافل الماسونية في سورية عام 1965، وألغيت المحافل الماسونية في مصر عام 1964، وألغيت المحافل الماسونية في العراق عام 1969.

الماركسية

تفسيرها للدين والكون والحياة الاجتماعية

الماركسية فلسفة مادية وهي أكثر من عقيدة فلسفية لأنها حركة ثورية تعطي للإنسان مبدأ حضارة كاملة، ومنها إمكانية إقامة مذهب كامل للقيم السياسية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية وترتكز على الصراع بين الطبقات البرجوازية والطبقة العاملة، ولد كارل ماركس عام 1818 بمدينة تريف من أسرة يهودية لا تحفل بالدين.

ونزعته الأممية نابعة من الاضطهاد اليهودي في العالم. وأصبح هيجيلياً منذ عام 1838 ثم بدأ يتحرر من الدين والفلسفة ثم انتقل إلى الشيوعية بتأثير الحركة العمالية.

وبدأت صداقته مع إنجلز وبدأ بإصدار البيان الشيوعي ثم أصدر كتابه (رأس المال) وبدأ بالتكوين النهائي للمادية الديالكتيكية، والتصور الماركسي للتاريخ وأسس الأممية الأولى التي عرفت (الاتحاد العالمي للشغيلة).

في عام 1883 مات ماركس في لندن وكتب (نقد فلسفة الحق عند هيجل) وكتاب نقد الاقتصاد السياسي.

وفي بحوثه عن ضياع الذات متعارضاً مع هيجل يجد الضياع الديني، ففي الدين يخلع الإنسان إلى خارجه كيانه الجوهري، ويضع نفسه في وهم عالم متعال[1].

---

(1) نقد الدين والفلسفة، جان ايف كالفيز ص 58.

ويعتبر ماركس نقد الدين ولو نقداً عقلياً صرفاً شيئاً لابد منه للفت انتباه الإنسان إلى ظاهرة الانقسام والضياع، سبب شقاء الإنسان. فلنقد الدين عنده صفة تربوية تحضيرية[1].

الإلحاد مسألة موجودة في كل مؤلفاته والماركسية في نظره ليست حركة مناهضة للدين وإلحاداً نضالياً قبل كل شيء آخر، لأنها تتوقع زوال الدين من تلقاء نفسه متى زالت الظروف الاجتماعية اللانسانية (والواقع في الاتحاد السوفييتي لم يثبت ذلك فعندما سقطت الماركسية ظهر الفكر الديني المخبوء تحت قوة (KIB) الأمين ويقول ماركس (إن نقد الدين شرط لكل نقد)[2].

لأنه يعتبر الدين (أفيون الشعوب).

يهاجم الدولة الدينية كما يهاجم المسيحية وخاصة في (المسألة اليهودية) ويقول: إن تعرية الدين من امتيازاته السياسية العامة تؤدي إلى زلته. الدين يؤدي إلى الإذعان للخارج المطلق ويهاجم المسيحية ويقول: إن المبادئ الاجتماعية المسيحية مرائية والبرولتياريا ثورية.

(إن الدين هو الزفرة يصعدها المخلوق الذي هدّه الشقاء، هو الروح من عالم لا قلب له هو الفكر في عصر لا فكر له إنه للشعب أفيون) هكذا قال ماركس (الماركسية جلبت الهيجيلية لأن عالم الأفكار ليس إلا العالم المادي وقد انتقل إلى الفكر الإنساني وترجم فيه ومنهجي في التحليل ليس منهج هيجل لأنني مادي وهيجل مثالي) والدين عند ماركس هو نتاج المجتمع الإقطاعي الذي يريد أن يسخر العبيد والناس لمصالحهم وأبدعوا

---

(1) نقد الدين والفلسفة، جان ايف كالفيز ص 60.

(2) مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل (المؤلفات الكاملة المجلد 1) ص 83.

الدين ليستخدموا هؤلاء باسم المشيئة الإلهية وقالوا بسرمدية العالم ووحدته وأنه سرمدي.

والرد على ذلك جاء به الدكتور البوطي بدليل الشمس وكيف فقدت آلاف الأطنان من وزنها وهي ماضية في هذا الفقد والنقصان.

قال بليخانوف (الإنسان هو الذي صنع الأديان وأن الدين لم يصنع الإنسان).

قال (التفكير من خصائص الإنسان النابعة من نشوء الشكل الأعلى للمادة أي حسب نظرية الديالكتيك).

والحياة عند أنجلز (ما هي سوى أن تكون نتيجة بعض التفاعلات الكيميائية).

والوعي الإنساني عند الماركسية هو من ثمرات المادة ولكنها ثمرة لمادة خاصة عالية التنظيم هي الدماغ.

ويقول في كتاب المادية التاريخية (وفي عصر الإقطاع سادت النظرة إلى الدين ثم إلى التاريخ وتولدت من السعي إلى تبرير النظام الإقطاعي وإسهام الجماهير بأن مشيئة الإله هي التي فرضته لأن مشيئة الإقطاع والكنيسة تعتمد على مشيئة الله[1].

ورد بليخانوف على ماركس عندما قال: الدين إنما نشأ ليكون ترساً للإقطاعيين (وهو أفيون الشعوب) قال: إن دين القبائل البدائية لم يدرس بعد الدراسة الكافية. ويعتبرون الفن والدين والمشاعر الجمالية كلها لها عوامل اقتصادية.

---

(1) المادية التاريخية، ترجمة أحمد داود ص 29.

الأخلاق عندهم ما هي إلا ما أثمرته مقتضيات صراع الطبقات الدائر في زعمهم حول الاقتصاد. والقيم والأخلاق مرتبطة بالحياة الاقتصادية المتمثلة في قوى الإنتاج ووسائله.

ويقولون بالمادية التاريخية والحتمية وإن الحياة البدائية كانت مشاعاً ثم تشكلت الحياة البدائية ضمن ملكية جماعية للقبيلة ومن ثم صارت فردية ثم فردية وجماعية ثم تشكل الإقطاع ثم البرجوازية التي تستخدم العمال البروليتاريا) وستقوم الشيوعية كثورة في بلاد صناعية ويقوم بها العمال (ثورة البروليتاريا) وبعد ذلك تضمحل الدولة وتصير ملكية جماعية (كل يأخذ حسب حاجته وكل يعمل على حسب طاقته).

الديالكتيك (المادية الجدلية عند هيجل):

يرى هيجل أن وجود الشيء على الصعيد الخارجي إنما هو ثمرة الإبداع الفكري له، فالفكر يبدع الشيء صورة ومثالاً ثم يدفعه إلى الصعيد الخارجي حقيقة مطابقة لذلك المثال ـ لأن الوجود الأصلي للبناء كامن في خارطته. والوجود الأصلي للأنغام التي تنبعث من العزف على الآلات المشاهدة كامن في مدونة اللحن (النوته) والشجرة وجودها الأصل الخارجي الحاصل كامن في نواتها. الفكر الكلي هو مظهر تجلي الموجودات في مراحلها المثالية الأولى ثم تتجسد في وجودها الخارجي مطابقة للأصل في المرحلة الثانية.

وعالم المحسوسات الخارجية ← تتجسد ثم تبدأ التطويرات

المشروعات تتجسد ← ومن ثم يكون تحسين وتطوير

والوجود الخارجي هو نتيجة تجربة نافذة.

الديالكتيك = الجدلية ← التفاعل = الأخذ والرد والتطوير بين ما بين الفكر الداخلي والموجودات الخارجية.

والأطروحة عند هيجل هو المشروع طباقاً أو نفياً (الوجود في ساحة الوجود) ينعكس (الوجود) إلى الفكر ثانية حيث تستقر صورته في الذهن (مفهوماً) ثم يصل إلى التركيب أو (نفي النفي).

الأطروحة ← في ساحة الفكر.

الطباق ← يمثل في الصعيد الخارجي.

التركيب ← انعكاس صورة الجسد في الصعيد الخارجي إلى ساحة الفكر لتطويره ثم إعادته إلى الوجود الخارجي.

الديالكتيك (الجدلية) تعبير عن التفاعل بين الشيء وذاته على نحو يدفعه إلى التطوير والعودة إلى ذاته بشكل أرقى.

كل هذا يتشكل من المادة ذاتها بتفاعلها الذاتي بالجدلية الديالكتيكية ولذلك تم تأليه المادة وحدها. كما ترى أن الروح والفكر أثر من آثار التطور الجدلي للمادة.

1 – قانون الجدلية:

تحول الكم إلى كيف ← كم متصل أو منفصل

↓ ↓

في الحجم والقياس   في العدد

فالكيف والسمات والخصائص الجوهرية كالليونة والصلابة والبرودة والحرارة كلها تغييرات طارئة على كمية الشيء تؤثر أخيراً في تغيير كيفيته.

2 ـ قانون وحدة الأضداد وصراعها:

التطور (لوجود أضداد متزاحمة ضمن الشيء الواحد بل ضمن الوحدة الصغيرة المجتزأة من الشيء الكامل، المباشر للتطور هو الصراع الذي يتم بين الأضداد.

3 ـ قانون نفي النفي (التركيب):

ويتصف بالاستمرار الذي لا توقف له فهو دستور التطور الدائم وليس النسخ للقديم والقضاء على عناصره بالكلية بل نسخ كل الخصائص السلبية والإبقاء على أفضل الخصائص وتجديدها، فنفي النفي الديالكتيكي يفترض نفي القديم والمحافظة على ماسواه، نفي النفي لا يسير بطريق مستقيم بل بشكل دائري ليعود إلى أطروحة جديدة أغنى وأفضل (التطور وانتخاب الأصلح) وهم ينظرون إلى المادة أنها:

1 ـ أساس الوجود وينبوع الحقائق.

2 ـ ملازمة المادة للحركة.

3 ـ سرمدية العالم ووحدته وهي أبدية.

الحتمية التاريخية:

يقول كارل ماركس (إن الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشد حراجة من ذلك في المجموعة الثالثة من العلوم، وهي المجموعة التاريخية وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشد تخلفاً أيضاً منها في ميدان علم الحياة)[1].

بليخانوف كما مر سابقاً رد على ماركس (إن دين القبائل البدائية لم يدرس بعد الدراسة الكافية، ولكن ما نعرفه من قبل يؤكد تماماً صحة الأطروحة التي

---

(1) أنتي دوهرونج ص 106 (كتاب أنتي دوهرونج لأنجلز).

وصفها ماركس عن فيورباخ وهي أن الدين لم يصنع الإنسان بل الإنسان هو الذي صنع الدين).

وكان حسب توقعاته وفلسفته ظن ماركس أن الثورة ستقوم في سويسرا حيث التقدم الصناعي مع تخلف العلاقات الإنتاجية ولكنها قامت في الاتحاد السوفييتي الذي كان يهتم بالزراعة ومتخلفاً صناعياً.

نظرية فائض القيمة: كانت هي أسس نظرية الثورة البلشفية وهو الفرق الزائد الذي يجنيه صاحب المصنع على كلفة العمل الذي قام به العامل أو الصانع، أي قيمة السلعة ما أخذه العامل من أجر على صنعها أو إخراجها مضافة إليه كلفة تآكل الآلات وصيانتها (والفائض عليها تلك الزيادة التي أضافها (الرأسمالي) إلى هذه القيمة زاعماً أنها ربح له).

وإن الرد العلمي على هذه الفلسفة الماركسية يكمن فيما يلي:

قال يوسف كرم في كتابه تاريخ الفلسفة الحديثة (إن الإلحاد الذي يدعو له كارل ماركس ينتج عن الإلحاد من الهبوط بالإنسان إلى درك الهيمنة بل إلى أدنى، إذ أن الإنسان حينذاك يجري مع غرائزه مطلقاً من القيد الطبيعي الذي نشاهده في البهيمة والذي يوقفها عند حد الاعتدال فلا يعرف رادعاً سوى الخوف من بطش الأفراد والجماعات) ثم يقول إن الحاجة إلى الدين أصيلة في النفس لا يمكن اجتثاثها، (وليس يحيا الإنسان بالخبز وحده بل بكل كلمة تخرج من الله)[1].

والشيوعيون قدموا لنا دواء هو أشد من الداء ومذهبهم هو إخضاع الأفراد للدولة في جميع الشؤون وخنق كل حرية فكرية. ومهما كانت الدولة لا يمكن أن تعتني بكل الأفراد ولذلك سقطت الشيوعية وسقط الاتحاد السوفييتي وأثبت

---

(1) يوسف كرم (تاريخ الفلسفة الحديثة) دار المعارف ص 4.3.

فشله لأنه وزع الفقر بالتساوي ولم يعالج مشكلة العمال وتسلط الحزب بعدده التسع ملايين على رقاب الناس لمدة سبعين عاماً وستسقط كل النظريات والتنبؤات الماركسية وتعود الحياة إلى الوسطية والاعتدال.

وهيجل الذي اعتمد عليه ماركس في الديالكتيك كان مؤمناً بالدين ومؤمناً بالله تعالى وقال: (إن هذا النور وحده هو الذي يستطيع أن يوائم بين الروح وبين التاريخ الكلي والواقع معناه أن ما حدث ويحدث كل يوم، ليس قائماً بمعزل عن الله، بل هو جوهرياً من صنعه هو ذاته)[1].

وللمزيد من الاطلاع على سقوط الماركسية لابد من العودة إلى كتاب نقض الأوهام المادية الجدلية (الديالكتيكية) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وسقوط الشيوعية للأستاذ محمد وحيد الدين خان والشيوعية لعباس محمود العقاد.

(1) نقض أوهام المادية الجدلية (الديالكتيكية، د. محمد سعيد البوطي) ص 37.

الصلة بين المعتزلة والشيعة

اشترك الطرفان الشيعة والمعتزلة في الحكم العقلي للنص فلا بد من تحرير العقل من النقل عند الطرفين، ولا ينسوا أن العقل كان أولاً ثم بعده جاء النص وعكس الحملة ليس صحيحاً أبداً، بعض الشيعة يضعون النص المقدس الوحيد هو القرآن الكريم.

والمعتزلة يرون أن لا قدسية لشيء مخلوق، فإن عارض النقل العقل لجأوا إلى التأويل، حتى القرآن يؤلون نصوصه بما يطابق عقوهم.

واستمدوا أقوالهم من الآية الكريمة ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ الملك 10.

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ العنكبوت 43.

وقال أيضاً: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ النور 61.

يجب فرز التراث وما طابق العقل قبلناه وما خالف العقل من التراث الإنساني من تفسير وفقه وتاريخ وسيرة وأحاديث ضعيفة أو موضوعة نبذناه.

فالعقل هو مجموعة أنظمة معرفية معقدة متشابكة مع بعضها لمعرفة قوانين الحياة والعقل ليس مصدراً وإنما المصدر للشرع الإلهي الدائم المقدس للإنسان هو كتاب الله عز وجل.

إن الأقلام المحدثة تثير موضوعاً حول قاعدة (لا اجتهاد في مورد النص) وهذه القاعدة فيها غموض فهل النص القطعي الثبوت القطعي الدلالة كالنص ظني الثبوت ظني الدلالة... ويعتبرونها وسيلة لاغتيال العقل.

واتخذ هؤلاء فهم الصحابة وآل البيت فهماً تاريخياً للإسلام لا يسحب على غيره من المجتمعات.

في نفي مصدر السنة اعتمد على حديث قال رسول الله ﷺ (أطيعوني ما دمت معكم فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه) مسند الإمام وصححه الألباني. (الأحاديث الصحيحة رقم 1472).

المعتزلة مختلفون في مدى تقديرهم لمواهب العقل.

فالنظام (يرى أن الإنسان العاقل يتوصل إلى معرفة الخالق).

قبل ورود الشرع ينظر العقل (أصول الدين ص 256 والملل والنحل ج1/ 65ـ 66).

العلاف يذهب أبعد من النظام في تقديره قوة العقل إذ قال: إن معرفة الله تعالى ومعرفة الدليل الداعي إلى معرفته تتم بضرورة العقل. (الحواس أو القياس كلها سببية).

أما ثمامة فقد كان أكثر من العلاف نفسه تطرفاً لأنه اعتبر المعارف كلها ضرورية.

جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب قالا: من قصر في المعرفة يستحق العقوبة أبداً.

والعقل يميز بين الحسن والقبيح قبل ورود الشرع ما عدا العبادات فهذه سبيل إدراكها السمع لا العقل.

ولتحقيق العدالة بحكم العقل نفوا القدر فكانوا دعاة الحرية والإرادة في الإسلام. وأدى بهم ذلك إلى مفاسد كثيرة حتى إن عمرو بن عبيد بن باب أدى به إلى رد للأحاديث النبوية وتحامله على بعض الصحابة كعلي وعثمان وطلحة والزبير.

ولذلك نظر النظام إلى الأحكام الشرعية فأبطل خبر الواحد لأنه لا يوجب العلم الضروري.

وأنكر الإجماع واتهمه البغدادي بأنه قصد إبطال أحكام فروع الشريعة بإبطال طرقها ويختلفون بالإمامة مع الشيعة.

ويقول عن قتل عثمان رضي الله عنه: إما أن يكون يستحق ذلك وعندها فقد زالت عدالته ووجب فسقه، وإما أن يكون غير مستحق لذلك وعندها فقد فسق الصحابة لتركهم الدفاع عنه.

لقد ناقض المعتزلة مبادئ قدموها وهي حرية الاعتقاد فقامت فتنة في قتل كل من خالفهم وعذبوا وسجنوا كل مخالفيهم.

لقد اجتمعت كلمة أهل السنة والشيعة ضد المعتزلة.

وكفر المعتزلة بعضهم بعضاً؛ أبو هذيل العلاف كفر النظام في كتابه الرد على النظام.

الإسكافي كُفِّر في أمور كثيرة وجعفر بن حرب (توبيخ أبي الهذيل) كفر فيه أستاذه ابن الراوندي والمعتزلة. وترك الاعتزال وناصر الشيعة.

وله كتاب (الإمامة) وفضيحة المعتزلة لابن الراوندي.

1) المستصفى للغزالي ج 1 ص 56. 2 الفرق بين الفرق ص 129.

إن سبب ضعفهم انشقاقهم وعدم توحيد صفوفهم.

ثم جاء الأشعري وناظرهم وقطع أدلتهم.

إن المعتزلة ذهبوا بعيداً في تقدير العقل والاعتماد عليه حتى أهملوا النقل وتركوا الحديث وتحاملوا على المحدثين وكذبوهم وأولوا المتشابه من آي القرآن الكريم تأويلاً لم يقرهم أهل السنة عليه.

الأشعري كما يقول الغزالي (لا نرى معاندة بين الشرع المنقول وبين الحق المعقول) الاقتصاد في الاعتقاد ص 2.

وفي ظل البويهيين تآخى المعتزلة والشيعة وارتمى المعتزلة في أحضان الشيعة فاجتمع الشيعة والمعتزلة ضد السنة واستفادوا من خبرتهم وجهودهم.

الشيعة لم يكن لهم مذهب كلامي فاقتبسوا عن المعتزلة أصول الكلام وأساليبه حتى أن ابن بابويه القمي أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري اتبع في كتابه العلل طريقة المعتزلة الذين يبحثون عن علل كل شيء.

ولذلك قال آدم متز: إن الشيعة من حيث العقيدة والمذهب ورثة المعتزلة (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ص 102).

والمقدسي نظر في كتب الفاطميين الشيعة في شمال أفريقية.

فوجد أنهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول (أحسن التقاسيم ص 238).

فوافق الشيعة المعتزلة بإنكار إجماع المسلمين حجة، وقولهم الحجة في قول الإمام المعصوم وقلة اعتداد المعتزلة عموماً بالأخبار المأثورة.

الإسكافي كان يتشيع لعلي رضي الله عنه.

ويقول الذهبي: إن الشيعة والاعتزال تصادقا من حدود سنة 37هـ وتراضيا.

الصاحب بن عباد اتخذ الاعتزال عن أبيه وكان غالياً فيه داعياً له ونصر المعتزلة عندما صار قاضي القضاة.

لقد اجترأ المعتزلة على لعن الأشعرية والشافعية وأهل السنة جميعاً، في عهد عميد الملك وزير طغرلبك.

ثم انتهى دورهم بصدور أوامر نظام الملك الوزير الجديد ولكن في خوارزم نشر الأصبهاني محمود بن جرير المذهب وكان من تلاميذه الزمخشري ومن ثم تبنى فكرة المعتزلة عبد الجبار الخوارزمي.

الرافضة الشيعة اعتنقوا مذهبهم وساروا على أصولهم.

والزيدية في اليمن يوافقون المعتزلة في أصولهم كلها إلا في مسألة الإمامة.

قال المقبلي (إن الزيدية في هذا الجيل من اليمن معتزلة في كل الموارد إلا في شيء من مسائل الإمامة.

إن كلام المقبلي: إن الزيدية يعظمون المعتزلة كثيراً ويضعونهم في مصاف الأئمة وخاصة أبو علي الجبائي وولده أبو هاشم. / العلم الشامخ ص 108.

قال جمال الدين القاسمي: استمر الشيعة على الاعتزال إلى يومنا هذا، إن المعتزلة اليوم كفرقة أهل السنة والجماعة من أعظم الفرق رجالاً وأكثرها تابعاً لأن شيعة العراق على الإطلاق معتزلة كذلك شيعة الهند وفارس والشام والزيدية في اليمن/ تاريخ الجهمية والمعتزلة ص 42.

المعتزلة الجديدة مدرسة فكرية شكلها المستر أحمد خان سيد أمير علي.

يرى رجال هذه المدرسة أن الإسلام الصحيح دين العقل.

لا سيما أمير عليكاره وآغاخان أمير الإسماعيلية.

نقل الذهبي في ميزانه لسبعة وعشرين معتزلياً ممن روى عنهم الشيخان.

النظام يرى أن حجة العقل تنسخ الأخبار.

الأشعرية ترى أن النقل هو الأساس وأن العقل خادم للنقل ووسيلة لإثباته والبرهان على صحته.

يقول الغزالي (المعرض عن العقل مكتفياً بنور القرآن كالمتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان) الاقتصاد في الاعتقاد.

ابن المرتضى في كتابه المنية والأمل خلط في الطبقات للمعتزلة بين المعتزلة والشيعة لأن المؤلف شيعي.

نقاط الاتفاق والخلاف بين المعتزلة والشيعة:

الإمامة

صفات الله عز وجل الذي ذكرها الأشعري في مقالات الإسلاميين

في وصف الله وبيّن فيها الخلاف بين المعتزلة والشيعة

الشيعة: مرتكب الكبيرة نسميه كافر نعمة فاسقاً

المعتزلة تعتبره منزلة بين المنزلتين

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اختلفوا فيه

حديث (ليس لعين ترى الله يعصى أن تطرف حتى تغير أو تنتقل) قال به المعتزلة.

الشيعة قالوا: لا يقوم به إلا الأئمة

عند المعتزلة واجب بوجود إمام أو لم يوجد

في شرح الأصول الخمسة قال: هي من فروض الكفايات

لبعض المعتزلة تغييرها فرض عين.

المعتزلة والشيعة قالوا بأن الاستطاعة التي يكون بها الفعل هي قبل الفعل بوجوده في الإنسان

القدرية: أخذها غيلان الدمشقي من الحسن بن محمد بن الحنفية

إذن الشيعة والمعتزلة مذهب واحد في نفي خلق الله للأفعال

أخذ فكرة القدر من سوس وكان من نصارى العراق ثم أسلم

نسب المستشرقون أن يوحنا الدمشقي حسب قول سيل أن
اصطلاحات العدل وحرية الفعل كلها من آثار المسيحية
ونفى الدكتور عبد الرحمن بدوي أي تأثير للمسيحيين
لأنهم لم يكونوا يتكلمون بحرية الرأي
اشترك الزيدية والمعتزلة في صفات الله
إن الله عالم قادر حي بنفسه لا بعلم وقدرة وحياة
الشيعة قالوا: عالم بعلم محدث
الشيعة اختلفوا مع المعتزلة فرقتين في خلق القرآن أو قديم
قال هشام بن الحكم وأصحابه: يزعمون أن القرآن لا خالق ولا مخلوق
وبعضهم قال غير مخلوق لأنه صفة والصفة لا توجب
الفرقة الثانية: أنه مخلوق محدث
الشيعة: إن الله قادر أن يُقدر عباده على فعل الأجسام والألوان والطعوم
والأراييح وسائر الأفعال
المعتزلة محال أن يقدر الله عباده عليها إلا الحركات
لا جبر ولا تفويض بل أمرين أمرين/ لعلي رضي الله تعالى عنه
الإنسان يملك إرادة الفعل وإرادة الترك كما يبرهن على ذلك الواقع
الموضوعي لكل حركاته وممارسته وفعاليته. ص 314 التشيع
الشيعة لا يؤمنون بالإجماع كمصدر من مصادر الشريعة
اشتركوا بعدم الرؤية لله في الدنيا ولا في الآخرة
اشتركوا بعدم الأخذ بالحديث إلا المروي عن المعصوم وأما المعتزلة
فيؤولون الحديث الصحيح وبعضهم يرفض الأحاديث كلها.
والمعتزلة لم يأخذوا بأخبار الآحاد.

التصـــوف

التصوف:

إن نـزوع الإنـسان نحـو التـصوف مـرتبط ولاشـك بمحاولتـه الأولى للحصول على فهم شمولي موحد للكون ككل.

المعرفة الصوفية هي جزء من نظرية المعرفة الفلسفية في جوانبها النظريـة والعملية. ولابد من مناقشة التجربة الصوفية واسـتعراض الأفكـار الإيجابيـة والنقدية للمنهج الصوفي السني والفلسفي. تقول المستشرقة الألمانية (آنا ماري شيمل) في كتابها الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف).

الكتابة عن (الصوفية) أو الروحانيات في الإسلام تكاد تكون مستحيلة، فمن أول خطوة يخطوها سالك هذا الطريق يرى أمامـه تـلالاً ممتـدة وهـضاباً وعرة. لا يزداد بالسير فيها إلا استصعاباً للوصول إلى أي غاية) ثم قالت: (إن التصوف هو أكبر تيار روحي يسري في الأديان كلها).

(وهو الذي يعني إدراك الحقيقة المطلقة، والتصوف يمكن أن يعرف بأنه (حب المطلق) أو البحث المتواصل عن الله عز وجل.

وتقسمها إلى صوفية اللا حـدود أو صـوفية اسـتبطان الـذات. قـال ذو النون (التفكير في ذات الله جهل، والإشارة إليه شرك، وحقيقة المعرفة حـيرة) قال الهجويري في مقام القرب والتبجيل ما يلي (فرق بين من احترق من جلاله في نار حبه، وبين من استنار بجماله في نعيم المشاهدة).

ثم قالت: ولذلك قال علماء الغرب: (إن التصوف نبتة غريبـة في صـحراء الإسلام والعجب تصور الخروج من عباءة الإسلام وهي حركة روحية سامية) واختلف الفقهاء في التصوف، وعمموا أحكـامهم فيـه فمـنهم المنـصف الـذي

كتب وناقش وفرق بين الغلاة من الصوفية الفلاسفة والصوفيين المتقيدين بالكتاب والسنة. ومنهم من شنع فيهم القول وكفرهم وجعلهم كالزنادقة والمجوس وخاصة ابن عربي وابن الفارض والسهروردي المقتول، والحلاج وابن سبعين والجيلي حتى وصل التكفير والاحتقار للمعتدلين كالغزالي والفضيل بن عياض وعبد القادر الجيلاني وأبي الحسن الشاذلي والرفاعي وهؤلاء المشنعون من غلاة السلفيين كابن تيمية وابن الجوزي والبقاعي.

وإن المسيرة في البحث المتكامل للمعرفة الصوفية تحتاج إلى دراسة متوسعة عن الصوفية والتصوف في الإسلام.

مراحل نضوج وتطور التصوف:

بدأت المرحلة الأولى للتصوف في القرن الثاني الهجري على أيدي الزهاد الذين استقوا الزهد والتبتل من القرآن الكريم والسنة وعلى رأس هؤلاء يعتبر كل دارس لهذه المرحلة أنه الحسن البصري ومعه مجموعة كأمثال سليمان الداراني، وابن الأدهم، ومالك بن دينار ورابعة العدوية ثم تطورت إلى منهاج متكامل في القرن الثالث الهجري على رأسهم الجنيد البغدادي رحمه الله تعالى: واستمر هذا التصوف دون شطح ومع التقيد بالكتاب والسنة ثم ظهرت في القرن الرابع والخامس الهجري الشطحات الصوفية، والتصوف الفلسفي ورائدها ابن الفارض وأبو يزيد البسطامي وابن عربي والحلاج والسهروردي والجيلي ونقدهم الغزالي والمحاسبي وعاد بالتصوف إلى الاستنباط الكامل من القرآن والسنة.

وبدأت الطرق الصوفية تتشعب وتتنوع وتنمو حتى صارت مدرسة كبيرة منتشرة في كل العالم العربي والإسلامي.

التصوف الفلسفي:

يعتمد على الرمزية في أعلى صورها، وظهر في تائية ابن الفارض، والفصوص لابن عربي والإنسان الكامل للجيلي وبذلك ظهرت إشكالات وحدة الوجود، والحلول، والاتحاد. قال العلامة بدر الدين بن الأهدل وهو من أعيان صوفية اليمن (اعلم أن ابن الفارض من رؤوس أهل الاتحاد).

وقال الغزالي في الإحياء (إن الكلام إن كان ظاهراً في الكفر بالاتحاد فقتل واحد ممن يقول به أفضل من إحياء عشرة أنفس). ولكن الباحث المدقق يجد أن العديد من المهاجمين للتصوف الفلسفي يعملون أقلامهم تزويراً ولا يبحثون عن الحقيقة وقد حقق محمود الغراب في بيتين أثبتهما ابن القيم في كتابه مدارج السالكين هامش صفحة 60 قال ابن القيم عن ابن العربي أنه قال:

العبد رب والرب عبد ... يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب أنى يكلف

وهذان البيتان موجودان في أربعة كتب من كتب الشيخ ابن عربي وهي مواقع النجوم، والتنزلات الموصلية، وكتاب المسائل وفي الصفحة الأولى من كتاب الفتوحات المكية ولكن بالنص التالي:

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت رب أنى يكلف

فانظر إلى التزوير الذي أكده عبد الرحمن الوكيل في تحقيقه لكتاب سماه (مصرع التصوف) وهو تزوير حتى في العنوان لأن الكتاب لبرهان البقاعي اسمه (تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي).

والشيخ محي الدين يقول:

الاتحاد محال لا يقول به ... إلا جهول به عن عقله شردا

ويقول ابن عربي في ديوانه:

إن جاءكم نص بضد الذي ... ذكرته مع الهدى يمشي

تمسكوا منه بأهدابه ... وألقوا الذي ذكرت في الحش

ابن الجوزي والتصوف:

الصوفية تعود إلى كلمة صوفه للغوث بن مر.

وقال: ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة ويهاجم الصوفيين وذكر مثالهم ومنهم أبو طالب المكي حيث قال في كتابه قوت القلوب (ليس على المخلوق أضر من الخالق) وهاجم كتاب الحلية لأبي نعيم الأصبهاني.

كما هاجم القشيري والغزالي.

وإذا أردنا أن نناقش كل هؤلاء الذين لم يجدوا من التصوف إلا الحلول ووحدة الوجود والاتحاد فهم كثير أمثال عبد الرحمن الوكيل، والبقاعي، والاستنبولي وجميع السلفيين والوهابين وعلى رأسهم ابن تيمة وغيرهم الذين لم يجدوا في التصوف الأخلاق، والإخلاص، والصفاء والسمو والتعالي. وكان التصوف في مراحله قد تسامى وازداد سمواً وأعطت المثل الرائع في نماذج كثيرة كأمثال عبد الله بن المبارك، وعبد القادر الجيلاني والغزالي، والكثير والكثير.

ثم تجمد التصوف وصار تصوفاً فلسفياً انحرف عن بعض أهدافه. قال الشعراني:

كان التصوف حالاً فصار كاراً، وكان احتساباً فصار اكتساباً، وكان استناراً فصار اشتهاراً، وكان إتباعاً للسلف فصار اتباعاً للعلف، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور، وكان تجريداً فصار ثريداً.

نقد التصوف:

اتخذ المتصوفة موقفاً سلبياً من النقد الذي وجهه المخالفون لهم، والنقد يؤدي إلى التصحيح قال ابن عربي (إن طريق الكشف والشهود لا تحتمل المجادلة والرد على قائله) والصوفيون ينصحون تلاميذهم الابتعاد عن النقاد ويصبغ بوترو اعتراض الصوفي على النقد بالعبارة التالية (إن الظاهرة الصوفية تجربة، وهي تجربة تقصر المعاني والألفاظ عن التعبير عنها، ولن يعرفها أحد إلا صاحبها نفسه الذي جربها ومثل هذه الظاهرة لا يمكن دراستها من الخارج، وجميع العلامات الخارجية التي نزعم بوساطتها تكوين فكرة عنها عاجزة عن الكشف عنها) الصوفي (يعيش على اعتقاد مؤسس على مبدأ يسمو على الاستدلال ألا وهو التجربة).

إن الرمزية الصوفية في ذاتها تعكس عجز المتصوفة عن إيصال حقيقة وجدانهم بلغة مفهومة ولأسباب كثيرة من اصطلام الروح على أتون المعرفة والإلهام والقرب والأنس. وهذه الرمزية قد تصل إلى معاني واسعة كتعريف نيكلسون عن الكشف الصوفي قائلاً: (العلم بخفايا الغيب المجهول، الذي ينكشف في رؤيا جذبته).

وعند الدكتور عفيفي (فيض من النور الإلهي الذي تنغمس فيه الروح وينكشف به سر الحقيقة).

وإن سر انتقال الغزالي من الفقه والأصول إلى التصوف هو الشك الذي عاش فيه. ووضح ذلك في كتابه (المنقذ من الضلال).

قال رسل: إن فلاسفة التحليل المنطقي (يعترفون صراحة بأن العقل البشري يعجز عن إيجاد إجابات حازمة عن كثير من المسائل ذات الأهمية

القصوى للإنسان، ولكنهم يرفضون الاقتناع بأن هناك وسيلة للمعرفة (أسمى) نستطيع أن نكشف بها عن الحقائق التي تخفى على العلم وعلى العقل) (التصوف والمنطق).

وكارل بوير يعترف ضمناً بأن للعقل حدوداً لكنه يصرح (أنضم إلى جانب العقل بكل جوارحي، حتى أنني حيثما أحس أن التعقل قد جاوز حدوده أظل مؤيداً له، مؤمناً بأن المبالغة في هذا الاتجاه لا تؤذي حقاً إذا هي قورنت بالمبالغة في الاتجاه الآخر).

قال د. توفيق الطويل (من الحق أن يقال أن الظاهرة قد يستقيم وجودها مع الحمل بتفسيرها والقصور عن تعليلها) المعتزلة رفضوا التصوف والزهد حتى قال القاضي عبد الجبار (ليس الزهد من إمارات الحق).

وكرس القاضي المعتزلي مساحة كبيرة من الجزء الخامس عشر من موسوعة المغني لنقد التصوف ونقد الكرامات والخوارق.

وابن حزم الأندلسي يستند في هجومه على التصوف إلى ظاهرة الاختلاف والتباين في أقوال المتصوفة عن الموضوع الواحد مما يعده تناقضاً تسقط معه مصداقية هذه المعرفة الإلهامية.

يقول ابن حزم (إن المدعين للإلهام.. لا يتفق اثنان منهم على ما يدعيه كل واحد منهم إلهاماً.. فصح بلا شك أنهم كذبة).

المعتزلة يهاجمون مصطلحات التصوف، المكاشفة، والتجلي والقرب وقال القاضي المعتزلي (أعلم أن التقرب مأخوذ في المعنى من القرب، فحقيقة ذلك لا تجوز على الله تعالى، وإنما يصح ذلك في الأجسام التي يصح عليها

القرب والبعد) ويردون على التباين والاختلاف بأن الصوفية ينهلون من معرفة ليس لها حدود وليس لتذوقها نهاية.

يتساءل الدكتور عثمان يحيى (أليس وجود الحق مطلقاً حتى عن قيد الإطلاق فكيف يمتنع عليه تعالى تجليه الذاتي من خلال صفاته وكمالاته اللامتناهية أو تجليه الخارجي الفائق من وراء حجاب الحرف والكلمات البشرية/ 101 الكتاب التذكاري (ابن عربي).

الفخر الرازي: سلم بوجود المعرفة الصوفية ولم يكن متصوفاً ولكنه سمى هؤلاء المتصوفة (أصحاب الحقيقة) واعتبرهم (خير فرق الآدميين).

وإن النقد على التصوف لم يكن على ذكر الله ولا على التوبة والخشوع، والمراقبة، والإخبات والتجلي والأنس بالله وبذكره وبالتهجد والصوم والجوع ومخالفة الغش. وإنما انصب الهجوم على الاتحاد والحلول ووحدة الوجود وعلى رموزها كأمثال ابن عربي وابن الفارض وأبي يزيد البسطامي والجيلي والسهروردي المقتول وابن سبعين.

وهجومهم على مصطلحات التأحد، والفناء والجمع أو الفناء الشهودي. وميز ابن القيم (عد مقام الفرق بعد الجمع مقام صاحب التميز والفرقان) ولم ينكر ابن تيمية وابن القيم وجود الإلهام.

وركز ابن تيمية وابن القيم على وحدة الوجود عند ابن عربي وغيره وكان مذهبهم في الفناء (القناعة عن وجود السوى) وهو يعتبر عند ابن تيمية وتلميذه (فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود) وابن عربي قال: (ما ثم في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله فكل هو وبه ومنه وإليه ولو احتجب عن

العالم طرفة عين لفني العالم دفعة واحدة) رسائل ابن عربي ج1 ـ رسالة الأنوار ص 1 ـ 2.

وابن تيمية ميز بين الوحدة الشهودية والوحدة الوجودية ورفض الأخيرة ولا ينكر الأولى ويقول ناقداً حالة التوهم النفسي عند بعض السائلين فيقول: (هؤلاء قد لا يتعمدون الكذب، ولكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج).

ولكن وليم جيمس (يؤكد بوجود مناطق خفية من الشعور يمكن للإنسان عن طريقها معرفة عالم غير منظور).

ولذلك يعتقدون بالبصيرة الكاشفة والاعتقاد وبالوحدة. وهذا مما أدى إلى هجوم رسل على التصوف لهجومهم على العقل. وتم الهجوم على التصوف لكونه طريقاً باعتباره وسيلة إلى غاية غير مضمونة النتائج، إنه لا يفضي حتماً إلى المعرفة التي هي بالأصل إلهامات ومواهب، وهاجموا تحول التجربة الفردية إلى طرق وعلاقة بين الشيخ والمريد على أساس الطاعة التامة (من لم يكن له شيخ لا يفلح أبداً) الرسالة القشيرية ج2 ص 735.

ثم ظهر مدعون متلبسون بلباس الصوفية فانحرفوا عن الصوفية مما أدى إلى الهجوم على التصوف.

قال ذو النون المصري محذراً المريد (إياك أن تكون للمعرفة مدعياً أو بالزهد محترفاً.. كل مدعٍ محجوب بدعواه عن شهود الحق).

النقد ومصادر النقد للمعرفة الصوفية:

1 ـ النقد المعرفي السلبي: هذا النقد يرفض وجود هذه المعرفة أصلاً ويعتبرها دعوى باطلة ومحض ادعاء كاذب وهذا الاتجاه يرفض التصوف جملة وتفصيلاً.

2 ـ النقد المعرفي الإيجابي: هو اتجاه نقدي يسلم بوجود التجربة الصوفية ولا ينكر إمكان حدوثها ولكنه يقرر أن ليس للتجربة الصوفية قيمة معرفية عامة (ابن رشد ـ ابن خلدون، التفتازاني).

3 ـ النقد الفقهي الأصولي وهو يعد بحثاً لإثبات تعارض بين التصوف والشرع؛ ابن حزم، ابن الجوزي وهاجم ابن عربي هؤلاء الفقهاء وسماهم أصحاب علم الرسوم كما هاجم الفلاسفة وأصحاب علم الكلام الذي أنكروا الصلة بين الشرع والتصوف.

4 ـ النقد النفسي (درس ظاهرة المعرفة الصوفية على أنها ظاهرة مرضية تصيب النفس الإنسانية، ويرد بعض علماء النفس مثل وليم جميس وهنري دي لاكروا على هؤلاء.

المراجع: التربية الروحية بين الصوفين والسلفيين د.محمد شيخاني.

هل في القرآن والسنة تربية روحية د.محمد شيخاني.

عوارف المعارف للسهروردي.

مدخل إلى التصوف الإسلامي د. أبو الوفا التفتازاني.

التصوف في الميزان د. مصطفى علوش.

دراسات في التصوف الإسلامي د. محمد جلال شرف.

الشورى والديمقراطية

آيتان في الشورى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ الشورى 38.

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ آل عمران 159.

طبق النبي ﷺ مبدأ الشورى تطبيقاً كاملاً (غزوة بدر ـ الأسرى) وسار الخلفاء الراشدون من بعده على نهجه فكانت الشورى أساس الحكم وعماده.

ونص القرآن على مبدأ الشورى كقاعدة واجبة وملزمة في الأمر العام للأمة واكتفي بالنص على المبدأ العام وترك التفصيل للأمة حسب ظروفها المختلفة.

وعرفت البشرية أنظمة حكم مختلفة وانتهت إلى صيغة الديمقراطية وظهرت تساؤلات كثيرة عن موقف الإسلام من الديمقراطية.

في اللغة الشورى والمشاورة والمشورة، وتقول: شاورته في الأمر، أي طلبت رأيه واستخرجت ما عنده وأظهرته.

اصطلاحاً (الشورى استطلاع الرأي من ذوي الخبرة للتوصل إلى أقرب الأمور للحق) وقيل (استطلاع رأي الأمة ومن ينوب منها من الأمور العامة المتعلقة بها).

ومقتضى هذا التعريف (حق الأمة في الرقابة والمعارضة والنقد والتقويم).

أهمية الشورى:

الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب وأنها خير وبركة. والشورى فضيلة إنسانية، والطريق الصحيح لمعرفة أصوب الآراء والوصول إلى الحقيقة وجلاء الأمر.

موضوعات الشورى:

قال بعضهم: الشورى بما لم ينزل فيه وحي. وقال آخر: في الأمور الدنيوية كالحروب وما يتعلق بها. وقال بعضهم: في الأمور الدينية التي لا وحي فيها وأقول: الشورى حتى في النص الشرعي ظني الدلالة لكشف الأمر الجلي ليصبح قطعياً في دلالته. وقالوا: (لا اجتهاد في مورد النص) وأقول: الاجتهاد في النص لاستنباط أحكامه وعرضه على مجلس فقهي مختص وأصولي ومن مجموعة من المجتهدين للوصول إلى الحق.

ولابد للشورى في بعض الأحاديث الصحيحة في أسانيدها للوصول إلى صحتها من حيث المتن من قبل مجموعة من المجتهدين وعلماء الحديث المختصين لمناقشة المتون حتى لا يترك الأمر للاجتهاد الفردي.

الشورى هل هي واجبة أم مندوبة؟؟.

ابن عطية المالكي نقل القرطبي عنه (إن الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف عليه) مذهب الوجوب صححه الرافعي وكذلك النووي من الشافعية. وذكر الدردير والدسوقي في الشرح الكبير 2/ 212 في خصائص النبي ﷺ وجوب المشاورة عليه.

وقال بعضهم بالوجوب، ودليله أن الله ذكر صفة الشورى بين صفة الصلاة التي هي عماد الدين وقبل صفة الزكاة، فوضع الشورى بين إقامة الصلاة وأداء الزكاة من أكبر الأدلة على وجوبها ودل ذلك على أنه إذا كانت الصلاة فريضة عبادية، والزكاة فريضة اجتماعية فإن الشورى فريضة سياسية (ولكن الإسلام كان ينشئ أمة، ويربيها ويعدها لقيادة البشرية) وكان الله يعلم

خير وسيلة لتربية الأمة وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تربى بالشورى قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ الشورى 36 ـ 38.

قال الشيخ عبد الوهاب خلاف في كتابه السياسة الشرعية ص 26: (إن الله سبحانه وتعالى جعل أمر المسلمين شورى بينهم وساق وصفهم بهذا مساق الأوصاف الثابتة والسجايا اللازمة كأنه شأن الإسلام ومن مقتضياته).

وقال عبد القادر عودة في كتابه الإسلام وأوضاعنا السياسية ص 155 (فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة).

قال يوسف القرضاوي (البحوث الإسلامية ـ قطر) 3 ـ 49 (فجعل الشورى نسقاً للصلاة والاستجابة لأمر الله فهي حتم وواجب مثلهما).

وقال الشيخ محمود شلتوت في كتابه الإسلام عقيدة وشريعة ص 45 الطبعة الرابعة (ففي الكتاب الكريم سورة عرفت باسم سورة الشورى وقد سميت بذلك لأنها السورة الوحيدة التي قررت الشورى عنصراً من عناصر الشخصية الإيمانية الحقة).

وقد ذكر الله صفة الشورى بالجملة الإسمية التي تفيد الاستقرار والثبوت. وقال الإمام أبو بكر الجصاص بعد أن ذكر الآية: يدل على جلالة موقع المشورة لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة ويدل على أننا مأمورون بها.

قال بعضهم: دعوى الخصوصية نزلت في الأنصار فهي خاصة بهم فقد كان الأنصار في المدينة قبل قدوم النبي ﷺ إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه، فمدحهم الله تعالى به ـ والرد على الخصوصية.

الأمر الأول: في أكثر الروايات على أن سورة الشورى كلها مكية وعلى ذلك الجمهور، والمراجع التي ذكرت أن هذه الآيات بالأنصار ونسبت لابن عباس وقتادة إما لم تذكر السند أو ذكرت الرواية بصيغة التضعيف.

وبعض المفسرين ذكروا أن الآيات نزلت في المدينة إلا أنها لم يخصصها بالأنصار بل صرحت بأنها عامة في الأنصار والمهاجرين. وبذلك تسقط دعوى الخصوصية حتى أنهم قالوا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقالوا بأن آية آل عمران في قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ آل عمران 159.

حتى الذين صرفوها للندب وليست للوجوب في حق الرسول ﷺ فقد أغناه الله بتوفيقه للصواب وبالوحي عن الشورى وأهمية الشورى:

1 ـ أنه لتطيب نفوس الصحابة، واستجلاب مودتهم، ورفع أقدارهم.

2 ـ ليعلمهم ما في الشورى من الفضل ولتقتدي به أمته من بعده ويصير سنة.

3 ـ ولتعليم الرسول ﷺ مقادير عقول الصحابة ومدى إخلاصهم.

والرد على من قال إلى الندب أنه لا توجد قرينة تصرف الأمر هنا من الوجوب إلى الندب:

إن ترك الشورى نتيجتها أن تظل هذه الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية وبذلك تخسر نفسها وتخسر وجودها وتخسر تربيتها.

إن الاستئثار بالرأي أنانية فاضحة واستكبار وتربية الأمة على التواضع وقبول الرأي الآخر في الشورى هو الأمر الواجب في حقها.

والرازي جزم بالشورى وهي الاستظهار بها عندهم والاستفادة من آرائهم.

والشوكاني في نيل الأوطار جزء 7/ 239.

والاستدلال بالآية ﴿ وَشَاوِرْهُمْ ﴾ على الوجوب إنما يتم بعد تسليم أنها غير خاصة برسول الله ﷺ.

والأحاديث في الشورى كثيرة وضعفها المحدثون ورواة الأحاديث وعلماء الجرح والتعديل إلا حديثاً أخرجه عبد بن حميد والبخاري في الأدب عن الحسن رضي الله عنه قال: (ما تشاور قوم قط إلا هدوا وأرشد أمرهم) وفي رواية أخرى روي مرفوعاً وأخرجه أبو حاتم والبخاري في الأدب المفرد بسند قوي.

والصحابة عملوا بالشورى وأولهم أبو بكر رضي الله وفي قوله (فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني) دعوة للمشاركة في إبداء الرأي وتقديم الحلول والمناقشة في القضايا العامة، وهي دعوة للصحابة لمراقبة أعماله وتقويمها، واعتراف من الحاكم بأن الجمهور هو صاحب السلطة في الحكم (يتضمن حق الاعتراض والمراقبة والتقويم).

شاور أبو بكر رضي الله عنه الناس والصحابة الكبار بالمشورة للخلافة لعمر رضي الله عنه.

وكان عمر رضي الله عنه لا يبرم أمراً دون مشورة، وقد أنشأ مجلساً استشارياً ضم كبار القوم من المهاجرين والأنصار (مقالة مكانة الجماهير في الدولة الإسلامية).

الشافعية يرون ندب المشاورة كما يقرر العسقلاني في فتح الباري 13/ 288.

الإمام الماوردي لا يذكر الشورى من بين واجبات الإمام (الأحكام السلطانية) وإن الفقهاء استخدموا عبارة (هل الشورى ملزمة أم معلمة).

بعضهم يقول الشورى ملزمة ولا يجوز أن يخالف جمهورهم.

والخطأ أن يبقى مصير الأمة معلقاً على اجتهاد فرد واحد مهما بلغ علمه واجتهاده وأن تكون مصالح المجموع مرهونة باجتهاد ورأي فرد واحد يتخذ قراره ويلزم الأمة به.

واتباعاً للقاعدة الديمقراطية (إن ما يمس الكل يجب أن يشترك في تقريره الكل).

وقال أبو زهرة (وخير للجماعات أن تخطئ في رأي تبديه وهي حرة من أن تفرض عليها آراء صائبة فإن صوابها يكون مقترناً بإرهاق نفسي وضغط للإرادة وذلك أشد ضرراً في تكوين الأمم) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ص 157.

ويقول الشيخ حسنين مخلوف (ولم يرد في السنة ما يدل على أنه ﷺ شاور أهل الشورى ثم أعرض عما أشاروا إليه).

الكثرة لا تدل على الصواب واستشهدوا بآيات كثيرة توضح أن أكثرهم لا يعلمون.

قال الدكتور محمد عبد الله العربي (يتضح أن التفسير الصحيح لقوله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ينصرف إلى شؤون الدين والعقيدة وشؤون الآخرة ويوم الحساب ولا ينصرف إلى شؤون الدنيا كمرافقهم ومصالحهم الدنيوية التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية والتي لا يمكن الوفاء بها إلا عن طريق حاكم يختارونه ويستشيرهم في تنظيمها).

وقال محمد الغزالي (وليس الأمر عبثاً صبيانياً، استشر الناس ثم خذ رأياً بعد ذلك لا تلتفت فيه إلى آراء الناس).

ويضيف الشيخ الغزالي (الشورى التي لا تلزم من ينفذونها شورى لا قيمة لها وهي نوع من العبث أو اللعب فالشورى الناقصة شورى مرذولة مرفوضة).

ويقول محمد عبده (فما معنى الشورى؟ ولماذا أمرنا الله بها إذا كان الحاكم لا يتبعها ولا يلتزم بها).

يقول المودودي (لاشك أن طرق الانتخاب في هذا الزمان هي أيضاً من الطرق المباحة بشرط أن لا نستعمل فيها الحيل والوسائل المرذولة) نظرية الإسلام وهديه ص 290.

وعيوب الانتخاب أهون وأقل شراً من عيوب التعيين .

يقول الدكتور محمود حلمي (إنشاء مجلس استشاري ملزم) بالتعيين للمرأة: أكثر الفقهاء لم يحرم المرأة حقوقها السياسية باستثناء رئاسة الدولة. المودودي: القوامية للرجال على النساء لم يقيدها بالبيوت..

الديمقراطية:

الأصول الأولى للديمقراطية في مدينة أثينا اليونانية (الحق الإلهي) نظرية كانت معمولاً بها في الحكم في أوروبا ثم انفصل الحكام عن البابا في العصور الوسطى ـ ثم النظام الإقطاعي مع الإمبراطور ثم الملكية في أمريكا أقاموا النظام الجمهوري.

وبدأ النظام الديمقراطي بعد الثورة الفرنسبة سنة 1789م.

الديمقراطية كلمة إغريقية الأصل تعني (حكم الشعب).

لنكولن (حكم الشعب بالشعب وللشعب) تعريف الديمقراطية وهو حكم الأغلبية وقسمت إلى الديمقراطية المباشرة والديمقراطية النيابية والديمقراطية شبه المباشرة.

الديمقراطية المباشرة أن يحكم الشعب نفسه بنفسه بطريق مباشر دون وساطة برلمان أو غيره.

أثينا ـ المقاطعات السويسرية الصغيرة ـ وهي أشبه بالديمقراطية المثالية وهي النتيجة المنطقية فعلاً لمبدأ السيادة الشعبية.

جان جاك روسو كان من أشد الكتاب تحمساً لهذا النظام، نظام الديمقراطية غير المباشرة (النيابة).

يختار الشعب نواباً يتولون الحكم لمدة محدودة باسمه ونيابة عنه ولها اختصاص تشريعي ومالي وسياسي (مراقبة السلطة التنفيذية ـ وفيها النظام الرئاسي مبدأ الفصل بين المجلس النيابي والسلطة التنفيذية.

نشأ النظام النيابي في بريطانيا.. ثم تطور إلى مجلس نيابي ومجلس اللوردات (ومجلس العموم) فالديمقراطية تعني اشتراك الشعب في الحكم وسواء اشترك بنفسه أو بواسطة نوابه والنظام النيابي يفترض وجود الأحزاب.

الديمقراطية شبه المباشرة (نظام نيابي متطور):

مع الرجوع إلى الشعب في بعض الأمور الهامة.. (الاستفتاء ومبدأ شرعية المعارضة في الحكم الديمقراطي مع مبدأ حكم الأغلبية لأنها تعتمد على المذهب الفردي الحر لأنه يملك حقوقه طبيعية.

والديمقراطية تضمن الحريات العامة ـ الشخصية والفكرية وحرية العقيدة والديانة وحرية ممارسة شعائر الدين وحرية التعليم وحرية الصحافة وحرية الرأي والمسرح والسينما والإذاعة وحريات التجمع والحريات الاقتصادية وحرية الأحزاب السياسية.

ـ **المبدأ العام للديمقراطية الانتخاب:**

الفرق بين سلطة مجلس الشورى والمجالس النيابية.

سلطة مجلس الشورى مقيدة بعدم خروجها على النصوص الإسلامية.

المجالس النيابية مطلقة.

الأمة مصدر السلطات في الديمقراطية.

الأمة مصدر السلطات في الشورى مع حدود الشريعة.

الحقوق والحريات مطابقة للشريعة في النظام الشوري.

الحقوق والحريات مطلقة في البرلمان.

إن الديمقراطية النيابية تشبه الشورى بشكل كبير. ولكن ضوابط الشورى المنسجم مع النظام العام الإسلامي والصفات اللازمة في أعضاء مجلس الشورى، والاستفادة من فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية عملية جيدة إذا ضمنت في مجلس الشورى.

تداول السلطة في الديمقراطية لابد أن يؤخذ في مجلس الشورى الانتخاب الدوري كل 4 سنوات وبهذا يكون الضمان لعدم وجود الحاكم المستبد الذي لا رقابة عليه من البرلمان أو مجلس الشورى.

مراقبة السلطة التنفيذية من قبل البرلمان أو مجلس الشورى، والانتخاب المباشر من الشعب للرئاسة.

ضمان حصانة وعدالة السلطة القضائية ووجود جهاز مراقبة تنفيذ الدستور من لجنة عليا (مجلس مراقبة تنفيذ الدستور وعدم مخالفته للتشريع الإسلامي والعدالة والحريات والحقوق العامة).

وجوه مشتركة كثيرة إذا ضبطت الأمور بشكل يحقق العدل والحرية والمساواة وحق المرأة في المشاركة في الانتخابات والتمثيل في مجلس الشورى وهذا يؤمن المثالية الاجتماعية في الدولة.

المراجع:

1 ـ الثورة وأثرها في الديمقراطية.

2 ـ الأحكام السلطانية للماوردي.

3 ـ السياسة الشرعية للشيخ عبد الوهاب خلاف.

4 ـ الإسلام والشورى ـ جلال محمد المنجي.

5 ـ الديمقراطية في الإسلام ـ عباس محمود العقاد.

6 ـ منهاج الإسلام في الحكم ـ محمد أسد (ليوبادفايس).

7 ـ نظام الحكم في الإسلام ـ د. محمد عبد الله العربي.

كــتــاب
إله واحد ودين واحد

المقدمة:

إن مجموعة من الكتب صدرت لمؤلف مجهول في عالم يدعي أنه من النخبة المثقفة، وفكر ملياً وطالع كل كتب التراث كما يدعي، ثم اكتشف اكتشافات لم يكتشفها غيره إلا المستشرقون الحاقدون على الإسلام فبدأ بكتاب إنذار من السماء يجعل فيه كل المسلمين مشركين لأنهم اتخذوا مع القرآن الكريم كتباً أخرى، وهي كتب السنة وكتب الفقه والتفسير وأصول الفقه ومصطلح الحديث وغيره من الكتب التي دونها علماء المسلمين عبر سنين طويلة.

ثم أصدر كتاباً سماه (دين الرحمن) ثم كتاباً سماه (دين السلطان) ولم ينسَ ما أجمعت عليه الأمة بأن القرآن الكريم أحكمت آياته ولكنه ذكر شيئاً منه (ما ننسخ من آية أو نُنْسِهَا) فأخرج كتاب (المسكوت عنه من القرآن الكريم الذي يجب أن ننسخه) فحاول ملاطفة الأمر فقال: أو ننسها هي سورة التوبة والأنفال وسورة محمد ﷺ أي ما يعادل (325) آية في الجهاد ثم جاءنا بفكرة النسيء في الأشهر الحرم وأن الحج يجب أن يستمر في كل الأشهر وليس كما يفعله المسلمون وأجمعوا كلهم على هذا الخطأ ليحفظ الناس من القتل الذي يحدث في موسم الحج.

ثم صمت فترة وإذ به يخرج بكتاب عنوانه إله واحد ودين واحد وظننت من عنوان هذا الكتاب أنه يريد أن يجمع العالم كله على دين التوحيد الذي جاء به كل الأنبياء، ولكنه نسي العنوان وبدأ يهاجم الإسلام في مقدمته ويذكر أن الغرب ما تقدموا في العلوم والحضارة إلا بعد إقصاء الدين عن الواقع، علينا أن نقلدهم باستبعاد الدين من حياتنا لتتم لنا نهضة وحضارة معاصرة.

ولكي يستقطب فئة من الناس قال: أما الكتاب الديني الوحيد الذي يتماشى مع العلم والعقل في خطين متوازيين فهو القرآن الكريم مع استبعاد كلي للمصدر الثاني للتشريع الذي أجمعت الأمة عليه وهو السنة التي يحاول رجال الدين أن يبرروا للسلاطين منذ مئات السنين على إشراكها بالقرآن التي عشقتها الأمة ولابد لهذه الأمة من اختيار مصدر واحد وترك المصدر الثاني في مشروعها الإصلاحي الجديد.

ولكي تستدل على مشروعه المبرمج في مراكز الدراسات الاستشراقية في نيويورك بأن رجال الدين على اختلاف ألقابهم من كهان وأحبار ومشايخ لا يتكلمون في مشاريعهم باسم الله الواحد الأحد بل باسم السلطان الذي يدفع لهم لذا من الصعب التفريق بين رجال السلطة ورجال الدين، ويبرر السبب بأنه أحد المثقفين في العالم الإسلامي اعتقد بعد دراسة شاملة للقرآن دراسة تفصيلية ومعمقة لم يجد ما يعيبه لأنه ناظر به كل العقلاء في العالم كنص سماوي، رغم أن أئمة المسلمين كما كانت طاعة الرسول ﷺ واجبة خلال حياته؛ والمعنى المراد أن طاعته بعد وفاته ليست واجبة كما يدعي وبلا دليل حقيقي. ويعيب على رجال الدين أنهم قالوا إن القرآن من أصعب كتب الأرض على الفهم الإنساني دون الاعتماد على ما جهزوا له من تفاسير وتأويلات مختلفة معتمدين في الغالب على أحاديث بدأ العلماء روايتها بعد وفاة الرسول الكريم.

ولقد عبر بأسلوب قبيح بأن هؤلاء استطاع الشيطان أن يقنعهم على تبديل القرآن الكريم ليس كنص بل في مرحلة بيان المعنى من أجل التطبيق العملي لإيجاد أحاديث مبينة ومفسرة لآيات الله تعالى التي صدقها جهلة المسلمين فاتخذوها مصدراً ثابتاً مبيناً ومفسراً للقرآن الكريم.

وإذا قلنا للمسلمين تعالوا لنتحرر من كل الأفكار الآبائية (وجدنا آباءنا على ملة) المناقضة صراحة للعلم والعقل ولكتب السماء المقدسة.

ومن ثم تحول المسلمون إلى مطبقين لتلك الأحاديث التي نسبت ظلماً للرسول الأمين بقوة الدرهم والدينار من السلاطين وسخروا أقلامهم لتجهيل الناس في بلادنا الإسلامية عن طريق الأحاديث لطاعة الحاكم الطاغي المستبد بأمر من علماء المسلمين حتى وإن قفز على كرسي الحكم بانقلاب عسكري، وبرروا ذلك بأحاديث ملفقة استدلوا على آرائهم بأن إجماع علماء المسلمين في هذا أنه معصوم عن الخطأ. ويهاجم وبتكرار ممل: كيف وصل الأمر للهتاف للحكام والمخابرات والرعية لهؤلاء الحكام بعبارة استهزاء (بالدم بالروح نفديك يا حبيب الشعب) حتى أنه وصل به الاحتقار للأمة بأنه إذا سئل: ألا تؤمن بوجود حديث صحيح عن الرسول ﷺ (حتى في الأخلاق والقيم) فقال: جوابي له نعم ولكن فقط تلك الأحاديث التي رواها الله تعالى بذاته في القرآن الكريم. لأن الله كما يقول المؤلف القدير أن الله استنكر أي حديث مع أحسن الحديث الذي هو القرآن الكريم علماً أن الأمة تخاطب كفار قريش الذين رفضوا لمحمد ﷺ الإيمان بالله الواحد الأحد فاستشهاده بالآية التي ليس لها أي صلة بالأحاديث النبوية لعدة مرات ثم محاولته التأكيد على أهمية العقل والمنطق السليم في مثلث الإيمان والعلم والعمل ويحتقر كل الأئمة والقضاة والمدرسين في مدارس الإسلاميين المتخصصة في الدين (الذي كرسه السلاطين) للشعار الذي يؤكدون عليه (إن الصلاة عماد الدين) وهو شعار يناقضون به العقل والمنطق السليم ويقحم موضوعاً خطيراً يستدل به بأن القرآن الكريم يعترف ضمناً بنسبة التطور ولكنه لا يعترف بكل تفاصيل نظرية

العالم دارون في التطور ويحتقر كل الكتب بأسلوب ساخر قائلاً (التلمود والكبالا والزوهار عند اليهود والأناجيل المختلفة ومكتبات بولس الرسول وأعمال الرسل والقديسين عند المسيحيين وصحيح البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد بن حنبل والترمذي وابن ماجة كلها مؤلفات رجال احترفوا الدين وعملوا كما قيل لهم من السلاطين المختلفة مقابل أجور سخية قبضوها من سادتهم وساستهم) ويعيد ويكرر الهجوم الصاعق على السنة وما جاء فيها من معجزات وبأنها وحي شفهي من صنع الذين كتبوها ودونوها وذلك لأنهم ما زالوا في مرحلة الآبائية المقلدين للتراث الإسلامي.

ويروي عن أستاذ جامعي في الأزهر أنه قال لصديق له يدرس في الأزهر: علينا إذا أردنا النهضة أن نحرق كل هذه الكتب الصفراء الحاوية في ظنهم على ما يسهل فهم الدين وفقه القرآن وإذا لم يفعل لا مجال عندها إلا أن نعيش في ذل وهوان.

ويقحم سورية في هجومه الصاعق على حالة الذل والهوان ويكذب كل الدعاوى التي قيلت بأن حرب تشرين لم تكن في نظره أفضل من الحروب السابقة. رغم اعتراف العالم بالنصر الذي حققه المقاتلون في إعادة قناة السويس على الجبهة المصرية والوصول إلى طبريا ثم تدخل القوى الكبرى لإيقاف هذا العمل البطولي. ورغم تدخل أمريكا إلى جانب العدوان الصهيوني فإنه يمجد أمريكا وأنها خادمة للشعب وهي ليست مجرد شعارات فارغة بل حقائق وليست كما هي في بلادنا العربية والإسلامية ويهاجم السلطة لكونها وصلت إلى الحكم بالقوة أو بالوراثة أو بمساعدة قوى خارجية وهي ليست مؤهلة لمشروع نهضوي معاصر لأنها اعتمدت على طلاب كسالى دخلوا إلى

كلية الشريعة وعلى الكليات العسكرية وبتعاونهم أخضعوا الشعوب بأحاديث ملفقة استمرت تمارس قدسيتها لاستمرار الطاعة العمياء من الشعب.

ولكي يضحك على الناس قال: إن الصحابة سبقوني وعرفوا بالقرآنيين وتركوا الأحاديث. وعندما اعتمد رجال الدين على الأحاديث خدموا الطواغيت ووصلوا إلى البيعة بالقوة لابن أبي سفيان زعيم المشركين وقائد الحرب ضد المؤمنين.

ولذا يبدأ هجومه على السنة وعلى الأحاديث القدسية وعلى المذاهب الفقهية الأربعة التي أوجدت دين السنة البريء أصلاً من دين الله تعالى القرآن ولكي تحقق قصده البعيد أبعاد كل آيات الجهاد التي تعمل لإيجاد مقاتلين ضد الاعتداء الصهيوني والاحتلال الأجنبي في العراق وغيرها فجاء بفكرة الآيات المحكمات وهي فقط الآيات التي كانت تخاطب الرسول والذين عاصروه وخلال استمرار نزول الوحي عليه فقط وبعد وفاة الرسول اعتبرها الله آيات منسية لعدم جدواها ولا حاجة لنا بها.

جاء من نيويورك لتدجين الأمة للقبول بالأمر الواقع وإنساء كل آية فيها قتال للأعداء المحتلين، ولا ينسى الاستهزاء بالمفسرين وحتى في تشكيل بعض الآيات مثل (اتخذ الله إبراهيم خليلاً) ويتكلم بأمور كثيرة حول هذه الآية وهل يعقل عنده أن الله العظيم الخالق الجبار يتخذ عبداً من عباده خليلاً ونسي آيات كثيرة يقول فيها الله عز وجل (يحبهم ويحبونه) (رضي الله عنهم ورضوا عنه).

ولكي يحقق مقصده بالهجوم على الأحاديث جاء بأحاديث موضوعة وليست صحيحة أنكرها ابن عبد البر وابن حزم بإحراق أبي بكر لخمسمائة حديث ولكن المؤسف أن هذه الروايات قال بها بعض العلماء ولم يتحروا

صدقها من كذبها. ولكي يرضي سادته المقيم عندهم يقـول (هـل تـرى في أي دول من دول العالم العربي والإسلامي) حاكماً يحكم بالشورى الديمقراطية بل جميعهم من طغاة مستبدين ولا ينسى أن يهاجم كل الحكام والعلـماء ومـساجد السلاطين والخطباء الذين أوجدوا لتبرير سلطان الحكام وطغيـانهم وظلمهـم بأن جعل الشعب غنماً والـسلاطين والحكـام رعـاة بالعـصا يحكمـون النـاس وحولهم كلاب حراستهم بالحرف الواحد.

ويعود للاستهزاء بكل تعظيم للرسول ﷺ ويبدأ بالسخرية مـن العلـماء والعامة الذين يقولون عن الرسول ﷺ يا حبيب الله، ويا أفضل خلق الله، ويـا شفيعنا عنـد الله ويـضعون اسـمه حـول المنـبر مـع اسـم الله عـز وجـل فهـم مشركون.

كما ينسى ويتناسى كل الآيات الآمرة بطاعة الرسـول فيقـول (طاعـة الرسول كلها آيات محكمة زمانية ومكانية يتوقف حكمهـا بوفاتـه ويخـالف الآيـة فيقـول (الـذين يتبعـون الآيـات المحكـمات ابتغـاء الفتنـة وابتغـاء تأويلها..) ورغم مخالفته للأحاديث يستـشهد بـبعض الأحاديـث الـضعيفة ليثبت أدلته الواهية.

وينكر الصلوات الخمس بل هي في القرآن ثلاث صلوات فقـط والعمـل الصالح أفضل عنده من الصلوات وليست هي عملاً صـالحاً حتـى أن الـصلاة غير فريضة بل تطوعاً لأنه لا إكراه في الدين. وفي حالة من الاضـطراب العقـلي وعدم ترتيب أفكاره يثبت مبررات للأمريكيين بإبادة الهنود الحمر لأنهم كـسالى لأن الأرض يُورثها الله عباده الصالحين ولذلك أورثها الله أناساً جاءوا وأبـادوا أو استغلوا الأرض خير استغلال وهـذا تبريـر للاسـتعمار. ويـشبه الأمـريكيين

باستعبادهم واستعمارهم لأراضي الهنود الحمر بالنبي محمد الذي قاتل المشركين وأخذ أراضيهم ثم استمر صحابته بالفتوحات وتم كل ذلك بعملهم الصالح وليس بالدعاء والابتهال، كما يبرر الاحتلال الصهيوني في فلسطين والجولان والعراق لأنهم كانوا يعملون عملاً صالحاً وشعوب هذه المناطق كلها كسالى.

وهؤلاء الكسالى من طائفتي السنة والشيعة ومذاهبهم وفرقهم الذين يظنون أنهم على دين الله القويم الذي بينه سبحانه في القرآن بل هم أشد ضلالاً من اليهود والنصارى.

ويستشهد بقوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) فقال: هذه آية محكمة أحكم الله زمانها ومكانها لعصر الرسول الكريم مقارناً يهود يثرب وخيبر مع نصارى نجران ويقول: لا يجوز تعميمها على كل الأزمنة زاعماً أن (اليهود في هذا العصر ليسوا أعداء لنا) وكل حديث علينا إنكاره ويشبه الأناجيل المحرفة والتوراة المحرفة لأنه إذا آمن بأي حديث لرسول الله ﷺ مع القرآن فقد أشرك بالله تعالى وإن العلماء هم الفئة اللعينة الذين أوجدوا الفقه كالتلمود لليهود وهم أبالسة الأنس المشرفين على برامج التعليم في المعاهد والكليات الدينية، وهؤلاء يخرجون العلماء الذين يخطبون ويأمون الناس في المساجد، فكل المصلين في مساجد المسلمين اليوم هم من المشركين لأنهم يستخدمون الدين والمساجد لطاعة الشعوب لحكامهم الظلمة المستبدين كما يشبه العلماء بالسامري الذي جعل المسلمين يشركون بالله خلال ألف وأربعمائة عام ونيف ولابد من إبعاد كل كتب التأويل والتفسير قديمها وحديثها الذي يشكل وجودها غشاوة وغطاء فوق حقائق القرآن فلا يراها المؤمن ظالماً نفسه باستخدامها أصلاً.

وأصحاب العمائم هم المشركون بل في ضـلال مبـين ويتجـرأ إلى القـول الذي يريد أن يصل إليه بأن كل الحكام سقطت عنـا طـاعتهم وهـي دعـوة إلى العصيان لأولي الأمر بوقاحة تامة لإيجاد الفتن الداخلية وهي (الفوضى المنظمة التي تديرها أمريكا) وإن هجومه على الفقهاء لأنهم أخذوا فقههم من التلمود.

ولذلك أوجدوا مـسلمين بـدلوا ديـن الله مـع نـسبتهم لـدين الله كـذباً وتحريفـاً إنـه ليـصل بـه إلى الهجـوم عـلى المـيراث في القـرآن وينكـر العـذاب الأخروي قائلاً (ويسميها محرقة كبيرة وهي مجرد صور بيانية تحاول أن تقـرب لعقولنا القاصرة صوراً أخرى) ويعود إلى كتابه السيئ ويجمع كـل نـسيء عـلى نساء ويهاجم المسلمين في تغيير الأشهر القمرية بأسلوب يظن القارئ أنه عـالم بالرياضيات وأن الأشهر الحرم يجب أن تقع دائماً في الربيع.

ويتحكم باجتهاد خاص في أمور كثيرة (العدل بـين الأبنـاء ولـيس بـين النساء) (يجوز للمرأة الـزواج بعـد تـسريحها مبـاشرة وإذا لم تحِضْ) ويهـاجم الفقهاء الطلاق ثلاث مرات والقرآن يقول الطلاق مرتان من أين جاءوا بهذا، ولا بد للشريعة أن تتبدل مع تبدل ظروف الناس فليس في هـذا أي ثبـات بـل تطور دائم للمصلحة.

ويهاجم كل من يحرم أكل كـل ذي نـاب أو مخلـب لأنهـا مـن أحاديـث السلاطين وينكر البرزخ، والمعراج، ويجعل الفتوحـات كلهـا للمغـانم طمعـاً بالسبي للنساء يكرر فيها آراء المستشرقين وكـل الـذين آمنـوا بـصدق رسـالة القرآن يمكنهم أن يتحولوا إلى رسل متطوعين لله تعالى يدعون الناس إلى ديـن الله الواحد (ليبرر لأحمد ميرزا غلام أحمد) ومن خلال تكراره لأهمية رقـم 19 يفهم منه أنه قادياني المذهب.

وخلاصة الأمر:

فالكاتب نيازي عز الدين يحاول إيجاد مشروع متخبط غايته الفتنة وإبعاد المسلمين عن رسولهم محمد ﷺ وإن المتابع لكتبه الستة يرى أنه يدور حول حلقة مفرغة كلها تحقق أغراضاً بعيدة قبل أحداث 11 من أيلول لتهيئة الأجواء لأغراض بعيدة في تمزيق الأمة وسلخها عن هويتها وإبعادها عن مساجد الله لأنه يقول (هذه مساجد بناها السلاطين لتسخير الشعوب والعلماء للتسلط على الشعب بأحاديث كاذبة كما يدعي).

والكاتب يريد إيجاد حزب إسلامي قرآني معاصر لا يؤمن بغير القرآن ويرفض كل الأحكام الفقهية وكل التراث وكل الأحاديث حتى الأحاديث التي تحض على الأخلاق والفضائل والخير والإحسان إلى الفقراء والمساكين واليتامى والتي تأمر بطاعة الوالدين وطاعة أولي الأمر منهم.

وكيف يفسر الآيات التي تأمر بطاعة الرسول مقرونة بطاعة الله قال تعالى: (وأطيعوا الله ورسوله).

والمتابع لقراءة الكتاب يشاهد أموراً غريبة مثلاً: لماذا العراقيون لم يقاوموا ظلم صدام وعندما جاء الاحتلال بدأوا بالقتال والمجابهة؟ ويشعر المرء بأنه يكتب ضمن مخطط تريده منه أمريكا لشيء تريده مستقبلاً.

الحضارة الإسلامية إبان ازدهارها في العصر العباسي، وظهور التدوين للعلوم والفلسفات، وقيام بعضهم بالترجمة عن اليونانية والهندية والفارسية ظهر فلاسفة كبار كان لهم دورهم في الحضارة الإنسانية كابن سينا والفارابي والكندي وابن الهيثم وابن حيان وابن رشد والغزالي وابن طفيل.

كما ظهرت النزعة العقلية عند المعتزلة واعتمادها على المأمون في دعمها ثم بدأ إيجاد المكتبات العامة في بغداد والقاهرة ودمشق ومكة والقيروان والأندلس، كما ظهرت شخصيات صوفية صارت لها شهرة عالمية كابن عربي والحلاج والسهروردي والشيرازي وغيرهم.

ومن ثم بدأ الركود العلمي في العالم العربي والإسلامي بسبب الهجوم المغولي والصليبي، وتمزقت الأمة إلى دويلات وسقطت الأندلس، واستمرت حتى مرحلة الدولة العثمانية التي لم تعمل جاهدة للعمل على نشر الثقافة والفلسفة والمنطق والتعليم إلا في نهاية مرحلتها قبل سقوطها.

إلا أن ظهرت بعض البوادر الإصلاحية الفكرية والثقافية والنهضوية في عهد محمد علي باشا حيث أوفد العلماء والمهندسين والأطباء إلى أوروبا وظهر جيل من الرواد كأمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ورفاعة الطهطاوي ومحمد رشيد رضا، كما ظهرت على الساحة مجموعة ممن تأثروا بالحداثة كأمثال سلامة موسى وطه حسين ومحمد أركون وأدونيس وحسن حنفي وعزيز العظمة وجابر عصفور وفؤاد زكريا وصادق جلال العظم والطيب تيزيني ومحمد شحرور ونيازي عز الدين ومحمد جحا وسيد القمني.

كما ظهر على الساحة العربية والإسلامية إبان النهضة محمد إقبال، وأنور الجندي، وعلي شريقي والجابري والفاسي، ومالك بن نبي ومحمد سعيد رمضان البوطي ومحمد باقر الصدر وعلي الوردي وسميح الزين وعادل العوا، ومحمد عمارة وغيرهم.

إن ما أفرزته النهضة الحديثة، والصحوة الإسلامية، بأن نوقشت الفلسفة الغربية على عدة اتجاهات، بعضهم أيد المقولات العقلية كأمثال الطيب تيزيني، صادق جلال العظم ومحمد شحرور ونيازي عز الدين وأدونيس، ورفاعة الطهطاوي وسلامة موسى، وطه حسين، وسيد القمني. ونصر حامد أبو زيد ونجيب محفوظ، وخليل عبد الكريم والمستشار سعيد العشماوي وعزيز العظمة. ومنهم من نظر إليها أنها فلسفات تخص الغرب ولا تتوافق مع المشروعات الإسلامية وهاجمها أنور الجندي ومحمد قطب وسيد قطب ومحمد الغزالي وأحمد محمد حسين ومحمد أبو زهرة وعادل العوا، ومحمد البهي، ومحمد إقبال وعلي شريقي ومحمد خاتمي ـ وباقر الصدر ومهدي شمس الدين وسميح عاطف الزين، وعبد الكريم اليافي ومصطفى السباعي ومحمد مبارك.

ولكن لم يظهر أي نقد علمي موضوعي إلا في نقد الماركسية وبعض نظريات الإلحاد ولم تناقش هذه الفلسفات بشكل كامل لإثبات الهوية العربية الإسلامية علماً أن العديد من الغربيين ناقش الفلسفة الواقعية، والعقلية والحسية والمادية التاريخية والوجودية والبراغماتية.

لماذا لم تظهر على الساحة العالمية أسماء أعلام مسلمين ساهموا في إيجاد فلسفة إسلامية متميزة فريدة لها ثوابتها وأصالتها أمثال ابن رشد والغزالي والفارابي والكندي وغيرهم.

هل عقمت النساء أن تخرج لنا عباقرة مسلمين يصلون إلى العالمية وتترجم كتبهم إلى اللغات الحية أمثال روجيه غارودي وعلي شريعتي ونجيب محفوظ ويفندون آراء الغرب الفلسفية ويظهرون فلسفة القرآن العملية والأخلاقية لتحقيق العدل العالمي، والحالة الإنسانية والتسامح وإقامة الحق، والمساواة وحقوق الإنسان وحقوق المرأة في الإسلام، وأن الإسلام سبق الغرب بالحرية والديمقراطية وقبول الآخر والحوار العلمي بالتي هي أحسن.

وخلاصة القول: إن فلسفة كانت وديكارت ووليم جيمس وهيوم وجون لوتس ومارس وهيجل ولينين قد قام بعض الفلاسفة أمثال يوسف كرم في كتابه تاريخ الفلسفة الحديثة بتفنيد آراء بعض أصحابها في حوار علمي مدروس لما قام به محمد باقر الصدر في كتابه (فلسفتنا) كما قام محمد الغزالي ومحمد البهي وأنور الجندي بدراسات جيدة حول كل الفلسفات الغربية ولا ننسى محمد إقبال وأبا الأعلى المودودي وأبا الحسن الندوي في الرد العلمي على كل هذه الفلسفات، ونديم الجسر في قصة الإيمان، وأحمد مظهر في بعض كتبه، وظهر على الساحة بشكل رائع د. محمد عمارة وعلي شريعتي ومحمد خاتمي وعمر فروخ ومصطفى الخالدي والعديد في الرد على الفلسفات الغربية المخالفة للإسلام علماً بأن الذين ناقضوا الأديان في الغرب لم يهاجموا الإسلام إلا من قبل بعض المستشرقين أمثال جولدزيهر وشاخت وجب وهنتغتون وفوكوياما ونولدكه. كما تصدى بعض الغربيين للدفاع عن الإسلام أمثال هيدلي ومحمد أسد (ليوسولدفايس) وزيغريد هونكه وشميل، وكارليل، وأرمسترونغ، وتوماس أرنولد وكونيني وجوستاف لوبون وماسينيون وتشاموسكي وول ديورانت وروجيه غارودي ومايكل هارت ومراد هوفمان وواشنطن أرفنج.

إن كل هذه الأفكار التي تبناها بعض الغرب حول الإسلام المعتدل كانت نتيجة دراسة علمية محايدة، وأنها ساهمت في الحضارة الإنسانية كما ظهر بعض الكتاب الحاقدين في العصر الحاضر أمثال هنتغتون وفوكوياما وفريدمان وغيرهم ممن اتهموا الإسلام بالإرهاب والأصولية الجهادية، وهذا مظهر للاهتمام بالدراسات الإسلامية. ولابد من إيجاد مراكز للبحث واستقطاب المعتدلين لاستمرار الحوار معهم للتعمق في الفلسفة الإسلامية العملية الواقعية لتحقيق العدالة الإنسانية والسلام العالمي والحوار العلمي المدروس.

البـــابيـــة
زمن ظهورها ومؤسسها

ظهرت البابية في إيران عام 1260هـ ـ 1844م تحت رعاية الاستعمار الروسي والإنكليزي واليهودية العالمية بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية.

(فهو مذهب كان منشئه من الاثنى عشرية، وإن ذكرنا لذلك المذهب في هذا الكتاب لا يصح أن يتخذ دليلاً على أنه مذهب إسلامي، ولكن لأنه مذهب نشأ بين المسلمين، ومنشئه كان منتمياً لمذهب إسلامي وجب علينا ذكره مع خروجه عن المبادئ الإسلامية التي أجمع عليها المسلمون)[1].

إذاً البابية مذهب نشأ من الاثني عشرية ويمكن أن يعتبر من المذاهب غير الإسلامية وإن نشأ بين المسلمين ومؤسسه كان منتمياً إلى الإسلام. ظهر هذا المذهب في نهاية القرن التاسع عشر ونادى بفكرة المهدي المنتظر.

مؤسس البابية:

(مؤسس البابية هو «علي محمد رضا الشيرازي» المولود في مدينة (شيراز) جنوب إيران عام 1235هـ في أول المحرم الموافق (20) أكتوبر 1819م. في بيت يدعي انتسابه إلى أهل بيت النبي ﷺ، ولكن هذا الادعاء باطل بدليل أن الكتاب والمؤرخين وحتى البابيين والبهائيين أنفسهم يلقبونه بـ(الميرزا) في كتاباتهم مع أن المعروف في إيران وبلاد العجم كلها أن لا يطلق على من ينتسب إلى أهل بيت النبوة لفظة (الميرزا) وغيرها اللهم إلا

---

(1) المذاهب الإسلامية، تأليف محمد أحمد أبو زهرة، ص 357.

«السيد» على الإطلاق ولا غير، ويظهر أنه اخترعت نسبته إلى أهل البيت لتطبيق الروايات التي تخبر أن المهدي يكون من آل البيت والحقيقة أنه لم يكن.

توفي أبوه ثم كفله خاله الميرزا (علي) أحد تجار شيراز ولما بلغ السادسة عهد به خاله إلى الشيخ عابد أحد تلامذة كاظم الرشتي[1] وكان المعلم يسمي مدرسته (قهوة الأنبياء والأولياء)، وفي طفولته تعلم القراءة، وتحصل على التعليم الأولي العادل للأطفال، وتعلم شيئاً من العربية ومن النحو الفارسي إلا أنه برع في الخط براعة مدهشة، فكان أعجوبة أيامه في حسن الخط وسرعة الكتابة ولما رأى خاله أن ابن أخته لا يرغب في التعليم ولا يظهر ميله إلى العلم والتحصيل أشركه في تجارته، ولما بلغ السابعة عشرة من عمره آنذاك اتصل به أحد تلامذة الرشتي)[2].

(وفي سنة 1260هـ في الليلة الخامسة من جمادى الأولى الموافق 23 مارس عام 1844م، بحضور الملا البشروئي[3] أحد تلامذة (الشيخ

---

(1) كاظم الرشتي: (... ـ 1259هـ ـ ... ـ 1843م) كاظم بن قاسم الحسيني الموسوي الرشتي فاضل إمامي من أهل رشت بإيران سكن كربلاء، له كتب منها (رسائل الرشتي، أجاب بها على بعض المسائل، شرح قصيدة عبد الباقي العمري اللامية، في مدح موسى بن جعفر وأصول العقائد) الأعلام، خير الدين الزركلي 5/ 215.

(2) البابية عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير، ص 56.

(3) حسين البشروئي: نسبة إلى مدينة بشروية (خراسان) في بلد فارس وهو أول من آمن بدعوة الباب وكان مساعده الأيمن في نشر هرطقاته، وتنظيم دعوته ولقب «باب الباب» ولقد زار مبشراً بدعوة الباب كلاً من أصفهان ـ قم ـ طهران ـ خرسان، البهائية والقاديانية، الدكتور أسعد السحمراني، ص 62.

الإحسائي)[1] والسيد (كاظم الرشتي) وزميله في الـدرس والمـساهم المخطـط للمؤامرة والذي جاء من كربلاء العراق إلى شيراز إيران لهذا الغـرض ـ أعلـن علي محمد رضا الشيرازي أنه هو الباب الموصل إلى الإمام الغائب المنتظـر عنـد الشيعة وأنه (أي البشروئي) هو (باب الباب) و(أول من آمن به). وكان عمـر الشيرازي في ذلك الوقت خمسة وعشرين عاماً)[2].

سبب التسمية والعوامل المساعدة على الظهور:

سبب تسمية هذه الفرقـة بالبابيـة نـسبة إلى مؤسـسها عـلي محمـد رضـا الشيرازي الذي لقب نفسه بالباب أي أنه البـاب الموصـل إلى الإمـام الغائـب المنتظر عند الشيعة لذلك نسبت إليه وسميت بالبابية.

أما تسمية البهائية فهي نسبة إلى حسين علي الملقب بهاء الله الذي جـاء بعـد علي محمد الشيرازي، أمَّا نسبة البهائية إلى البابية فالبهائية الفرع والبابيـة الأصـل، البابية الأب والبهائية الابن، والأصل أن نـسميها البهائيـة البائيـة بـدون حـرف العطف الواو لأن الواو تقتضي المغايرة والبهائية والبابية وجهان لعملة واحدة.

وإن تسمية هذا البحث «البابية والبهائيـة» مـع ذكـر الـواو لأن البحـث يدرس كل منها على حدة، أي في أسباب ظهور كل واحدة منها.

---

(1) الشيخ الإحسائي: (1166 ـ 1241هـ ـ 1753 ـ 1826م) أحمد بن زين الدين بن إبراهيم بن صقر ابن إبراهيم بن داغر بن راشد الإحسائي البحراني متفلسف إمامي، مؤسس مـذهب «الكـشفية» نـسبة إلى الكشف والإلهام وكان يدعيها وتبعه أتباع ربما قيل لهم «الشيخية» أيضاً ولد في الإحـساء وتعلـم في فارس وتنقل بينها وبين العراق وسكن البحرين ومات حاجاً بقرب المدينة وحمل إليها فدفن فيها. من كتبه (جوامع الكلم) (الفوائد) (مباحث الألفاظ) (ديوان شعر) (معنى الكفر والإيمان) (رسـالة في علم النجوم). الأعلام، خير الدين الزركلي 1/ 129.

(2) البابية عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير، ص 56.

العوامل المساعدة على ظهور هذه الفرقة:

1 ـ نظام الحكم في إيران حتى القرن 19 م كان نظاماً كسروياً استبدادياً طاغياً. فالشاه هو الحاكم المطلق الذي لا يرد قوله الذي أوقع الشعب الإيراني في مهلكة عظيمة فبلغ التذمر مداه نتيجة لهذه السياسة البغيضة.

2 ـ أن أهل إيران منذ صغرهم يعيشون تحت ركام من الإيماءات المستمرة بشأن ظهور المهدي صاحب الزمان الذي يملأ الأرض عدلاً وينقذهم مما هم فيه من فساد السياسة والإدارة والعيش وهذه الفكرة من ضمن عقيدتهم أخذت عليهم مشاعرهم.

3 ـ استقر في كثير من عقول أهل فارس الذين كانت الروح الفارسية تجري في عروقهم فكرة مجيء نبي من العجم في آخر الزمان تنسخ شريعته شريعة الإسلام.

4 ـ لقد كان الجهل في ذلك الوقت بأحكام الدين وحقائق الإسلام سائداً لا في إيران فحسب بل في العالم الإسلام كله.

5 ـ سوء سلوك علماء الدين في إيران في ذلك الوقت فأكثرهم كانوا جاهلين بحقائق الإسلام يعيشون بين كتب خرافية لا ترد باطلاً ولا تقهر فساداً ولا تفتح عيون صاحبها على جوهر الإسلام فكانوا أشبه ما يكونون برجال الكنيسة في الحرص على الدنيا واستقلال الدين للوصول إلى مباهج الحياة.

6 ـ ولعل أهم العوامل التي ساعدت على قيام البهائية البابية وانتشارها هو أن البابيين عندما أعلنوا دعوتهم نشروها أولاً في جو من الحذر والسرية هذا من جهة. ومن جهة ثانية لم يجابهوا الناس بحقيقة دعوتهم بل موهوها

عليهم فظن الناس في البداية أن الدعوة إنما هي دعوة تجديدية إصلاحية ومن هنا انجذب إليها الناس وأيدها الكثيرون.

7 ـ كان يحكم إيران آنذاك ملوك ضعاف ويصرف أمورها وزراء مرتشون إلى جانب مناخ الفساد والفوضى الذي كان يسود البلاد من جراء انتشار الوباء في بعض البلاد الإيرانية[1].

(وأهم سبب مهد لظهور هذه الفرقة في إيران الاعتقاد بقرب ظهور المهدي والإمام الموعود الذي انتشر في إيران بصورة أنه لم يقم أحد من النوم إلا وقد قال أنه رأى الإمام الليلة ورد عليه آخرون أنهم رأوه جهاراً وهم مستيقظون وقال واحد أنه رآه في الصحراء وزاعم أنه نجاه من الغرق، ومن مفتر أنه رآه في مدينة «جابلسا» مدينة الغمام المجهولة عند القوم، ومؤتفك أنه ضل طريقه إلى «جابلقاء» ورأى هناك أبناءه الهاشم والقاسم والطاهر يرأسون المسلمين ويدبرون أمورهم، ويديرون حكومتهم وشاهد شاهده عياناً يناديه باسمه)[2].

حروف الحي:

حروف الحي: اجتمع حول الباب ثمانية عشر شخصاً من كبار تلامذة الرشتي وزعماء الشيعة سماهم «حروف الحي» لأن «ح» و«ي» يعادل الثمانية عشر من العدد بحساب الحروف الأبجدية.

ولأن تلاميذ الباب الثمانية عشر «وبإضافة الباب عليهم يكونون تسعة عشر عرفوا بحروف الحي وهم الذين أرسلهم الباب إلى جهات مختلفة في إيران وتركستان لنشر أخبار مجيئه وظهوره».

---

(1) البابية والبهائية وموقف الإسلام منها، الدكتورة سهير محمد علي الفيل، ص 7.

(2) البابية عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير، ص 48.

وأسماء الثمانية عشر:

1 ـ الملا حسين البشروئي.

2 ـ الملا محمد حسن أخوه.

3 ـ الملا محمد باقر.

4 ـ الملا علي البسطامي.

5 ـ الملا خدا بخش المعروف بملا علي الرازي.

6 ـ الملا حسين بجستاني.

7 ـ السيد حسين اليزدي.

8 ـ الميرزا محمد رد خجائي اليزدي.

9 ـ سعيد الهندي.

10 ـ الملا محمد الخوئي.

11 ـ الملا خليل التبريزي.

12 ـ الملا أحمد أبدال.

13 ـ الملا باقر التبريزي.

14 ـ الملا يوسف الأردبيلي.

15 ـ الميرزا هادي القزويني.

16 ـ الميرزا محمد علي القزويني.

17 ـ قرة العين الطاهرة.

18 ـ محمد علي البارفروشي الملقب بالقدوس)[1].

---

(1) البابية عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير، ص 57.

قتل الشيرازي:

«تقرر تنفيذ الحكم في صبيحة يوم الاثنين في السابع والعشرين من شعبان سنة 1266هـ، الثامن من يوليو 1850م، ولما علم به الشيرازي انهارت قواه وأسقط في يده «وصار يبكي وينوح».

وكان يظن إلى وقته الأخير أن مربيه الروس والإنجليز سيمولون كل الجهد لبقائه وإنقاذه من مخالب الموت وفعلاً بذلوا ما بوسعهم ولكن لم يكن ليرد قضاء الله وقدره.

ونقلوه في ذلك اليوم إلى ساحة الإعدام فأغلق الناس دكاكينهم ومتاجرهم واندفعوا إلى الميدان الكبير الذي اختير لساحة القتل «واحتشد الرجال والنساء حتى لم يبق محل في الميدان فطلع الناس على سطوح البيوت المطلة على الميدان وجدرانها».

ولما رأى كاتب وحيد حسين اليزدي هذا المنظر الرهيب أخذه الرعب والخوف وبدأ يمطره سباً ولعناً ويتبرأ منه ويتنكر للبابية ويرجع إلى الإسلام.

فأطلق سراحه وسيق الشيرازي والزنوزي إلى محل الإعدام، ووثقا بحبل من القنب المحكم بالعمود الغليظ الذي كان بجانب حجرات الثكنة العسكرية فربطوهما به وعلقا على ارتفاع من الأرض.

وكان الباب الشيرازي خائفاً مرتعداً مرعوباً نادماً قلقاً مذعوراً بينما كان صاحبه رابط الجأش باسماً غير آبه بما يجري حوله، وكان من الحاضرين لهذا المشهد القنصل الروسي أيضاً ولم يكن يائساً حتى ذلك الوقت وكان يرى أن عمله وخطته ستجدي وفعلاً كاد أن يظفر وينجح في مقاصده لولا قدرة القادر القهار.

فإنه لما أطلق الجند الرصاص ودوت البنادق الفضاء واغبرت الساحة بالدخان الكثيف رأى الناس بعد انكشاف الدخان قتيلاً واحداً مضرجاً بالدماء ولا أثر للثاني أي الشيرازي هنالك حيث أحكمت الرصاص إلى الحبل الذي كان مشدوداً به وقطعت بالتدبير المجبر من قبل فتهلل وجه القنصل ورفاقه لما كانوا هيؤوا الأسباب لاختطافه من قبل وإخفائه في إحدى المنازل التابعة للقيصرية أو إنقاذه من الموت على الأقل حسب الدستور الرائج «الذي ينجو من الموت مرة لا يعدم ثانية».

ولكنهم فشلوا في المحاولتين حيث لم يستطيعوا الذهاب به إلى المكان الممهد له من قبل والإشاعة بين الناس أن المهدي لا يغلبه أحد ولا يقتله أحد.

ولكن الجنود اقتادوه إلى الساحة مرة ثانية وعلقوا الحبل من جديد وغير الجنود المرتشون وجيء بالوحدة العسكرية الأخرى فلما أطلقوا الرصاص مزق جسده وسقط كتلة واحدة لحماً وعظماً ودماً حيث اخترق جسمه بضع وعشرون رصاصة لم تخطئ منها واحدة فانهار قنصل الروس.

وكان عمر الشيرازي يوم ذاك 31 سنة)[1].

أبرز الشخصيات:

<u>قرة العين</u>: (اسمها الحقيقي «أم سلمى» ولدت في قزوين 1231هـ أبوها أحد علماء الشيعة درست العلوم من والدها محمد صالح وعمها محمد تقي ومالت إلى الشيخية[2]، وتأثرت بها إلى الغاية، واشتهرت بذكائها المدهش

(1) البابية عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير، ص 92.

(2) فرقة من الشيعة الإمامية ظهرت في أواخر النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي وقد سميت بذلك نسبة إلى عميد مدرستها الشيخ أحمد الإحسائي المتوفى عام 1241هـ ـ 1825م وتسمى بالكشفية أيضاً لما ينسب إلى زعيمها من الكشف والإلهام. (الشيخية نشأتها وتطورها ومصادر دراستها، السيد محمد حسن آل الطالقاني، ص 225).

وفصاحتها وطلاقة لسانها بجانب الجمال الفائق والحسن البارع والشباب المتوقد، لقبها الرشتي بقرة العين. وخاف أبوها عليها من جمالها اللامع وشبابها الوحشي في المراهقة، فزوجها مبكراً من ابن عمها الملا محمد بن الملا تقي ولم تبلغ الثالثة عشر من عمرها يوم ذاك. فولدت له ثلاثة من الأولاد ذكرين وأنثى وكانت تكتب الشعر الغزلي الفاجر السافل تشكو لوعة الحب والعشق وظلم البيئة وقسوة الحرمان، وقرة العين هي المؤسس الحقيقي للديانة البابية ـ وإن لم يصح تسمية البابية بالديانة ولكن ننقل عبارة المؤلف للأمانة العلمية ـ ومن قصائدها الغزلية الفاحشة:

يا حبيبي إن حصل الوصال يوماً ما لأخبرك
بما حصل لي من المصائب والمشاق في سبيل رؤيتك
يا حبيبي تجولت بيتاً بيتاً وزقاً زقاً وقرية قرية ومدينة مدينة
لرؤيتك مثل الصبا لرؤية خدك
حبيبي في فراقك جرت عيون الدم من العيون
وأصبغت مياه دجلة وعيوناً وبحورا
حبيبي رمش عينك قتلني وخال خدك أسرني
وجبل ختم على قلبي وسمعي وبصري

فهذه هي قرة العين وقد أرغمت أهلها على السماح لها بسفرها من قزوين إلى كربلاء العراق لزيارة «العتبات المقدسة» على رغم القوم. يرافقها زوج أختها الشاب محمد علي القزويني الذي لم يبلغ العشرين وهي أيضاً في روعة الشباب ولبث الميرزا محمد علي القزويني معها أول الأمر ثم تركها وحدها بين الطلاب والرجال فأفتت أول ما أفتت «يجوز للمرأة أن تتزوج تسعة رجال».

ثم رفعت الحجاب وكانت تظهر سافرة في الأماكن العامة وتختلط بالرجال وتدرسهم وتخطبهم بدون حاجز بينها وبينهم.

ويروى عنها أنها كانت تقول بحل الفروج ورفع التكاليف بالكلية.

وأعلن الشيرازي أنه المهدي بإيعاز منها وأدخلها في حروف الحي مع رفيق سفرها وخائن أختها ومحرم سرها الميرزا محمد علي القزويني.

وطلقت نفسها من زوجها على خلاف شريعة الإسلام.

أحبت الملا محمد علي البارفروشي حباً جنونياً وقدمت نفسها وكل ما تملك وسمحت له أن يستذلها ويرغمها ويستعبدها ولكنها لم تكتف به وحده وسخت بنفسها وجادت للميرزا حسين علي المازندراني البهاء مع امتعاض أخيه الصغير الميرزا يحيى صبح الأزل.

ووهبها الميرزا حسين علي لشاب شيرازي اسمه الميرزا عبد الله.

فقرة العين هذه هي التي كانت تملي على الشيرازي الباب وتأمره أن يعمل هذا وذاك وحتى هي التي كانت قد أمرته باعتلائه عرش الربوبية واستوائه عليه وادعائه الألوهية.

وكتبت قصيدة إلى الميرزا علي محمد الشيرازي الباب وهو سجين في قلعة «ماه كو» في قصيدة غزلية طويلة هذه الأبيات بعضها بالفارسية وبعض منها في بالعربية الركيكة.

لمعات وجهك أشرقت وشعاع طلعتك اعتلى

جذبات شوقك ألجمت بسلاسل الغم والبلا

وإذا رأيت جماله طلع الصباح كأنما

إلى أن قالت بالفارسية:

فلماذا لا تقول «ألست بربكم فنقول بلى بلى»

وعلى أثر ذلك ادعى المأفون المجنون الألوهية والربوبية.

كما يجدر بنا أن نذكر بعضاً من مؤامراتها وجرائمها، فقد اشتركت في مؤامرة قتل عمها (أبي زوجها) الملا تقي.

واشتركت أيضاً في مؤامرة اغتيال الشاه ناصر الدين القاجاري بعد قتل الشيرازي وقبض عليها، وحكم بأن تحرق ولكن الجلاد خنقها قبل أن تلعب النار بالحطب الذي أعد لإحراقها.

ورميت جثتها في حفرة بعدما ملئت بالحجارة والتراب.

وكان ذلك في أول ذي العقدة سنة 1268هـ الموافق 1852م أي بعد شهر من قتل الشيرازي وكان عمرها آنذاك من اثنين وثلاثين إلى سبع وثلاثين.

ولقد أطلنا الكلام في سيرتها لما لها من أهمية خاصة في الديانة البابية أيضاً)[1].

في رجب 1264هـ اجتمعت مع زعماء البابية في مؤتمر بيدشت وكانت خطيبة القوم ومحرضة الأتباع على الخروج في مظاهرات احتجاج على اعتقال الباب، وفيه أعلنت نسخ الشريعة الإسلامية.

الملا محمد علي البارفروشي:

(يلي قرة العين في المرتبة عند البابيين وكان له سيطرة عظيمة وتأثير كبير عليهم حتى أن البشروئي الذي لقب بباب الباب من قبل الشيرازي

---

(1) البابية عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير، ص 239.

وأول المؤمنين به كان يحترمه ويعظمه ويخضع أمامه ويخشع ويقف بين يديه كالعبد الذليل بين يدي طلعة مولاه الجليل «وحتى الباب الشيرازي سجد له مرتين».

ولد محمد علي هذا على فراش الميرزا مهدي البارفروشي أحد أعيان الشيخية في مدينة بارفروش من مقاطعة مازندران، وكان ولد الزنا كما يصرح به أحد أتباعه المخلص والمبالغ في حبه الميرزا جاني الكاشاني الذي كان من أوائل البابيين الذين قتلوا في سبيل هذا.

وقد كانت أم محمد علي حاملاً به ثلاثة أشهر عندما تزوجت، وبعد ستة أشهر أنجبت كما يقول زوجها، ولذالك كان البابيون يفتخرون بهذه المعجزة ويعدونها كرامة للبارفروشي ويعدونه معجزة حكاية عيسى، أي يؤولون على هذا المنوال.

ادعى محمد علي البارفروشي أنه عيسى الذي ولد بلا والد بقدرة الله وإظهاراً للمعجزة الربابية.

وبعد أن صدقوه ادعى ثالثة «أنه هو رجعة رسول الله نفسه والعياذ بالله».

وقتل هذا الزنيم بعد العذاب الشديد بدل ما كان يفعل بالمسلمين ويأمر بنصب رؤوسهم على أبراج القلعة بعد قتلهم خيانةً وغدراً.

فقتل في مدينة بارفروش وأحرق نعشه ورمي في خرابة إحدى المدارس هناك وذلك في أول رجب سنة 1265هـ وكان عمره يومئذ سبعاً وعشرين سنة[1].

(1) البابية عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير، ص 251.

البهائية

مؤسس البهائية (الميرزا حسين علي):

(ولد الميرزا حسين علي في قرية نور من قرى مازندران من إيران وقيل كانت ولادته في طهران يوم 12 نوفمبر سنة 1817م الموافق 2 محرم سنة 1233هـ وأبوه الميرزا عباس بزرك النوري كان موظفاً في وزارة المالية وأمه خانم جاني كانت أولى الزوجات الكثيرة وكان حسين علي الثالث من خمسة عشر طفلاً، ولد الميرزا في أسرة كانت لها علاقات طيبة وطيدة مع السفارة الروسية لطهران حيث كان أخوه الأكبر أول أولاد الميرزا بزرك النوري كاتباً في السفارة الروسية، كما كان زوج أخته الميرزا مجيد سكرتيراً للوزير الروسي بطهران وتلقى الميرزا حسين العلوم الشيعية والصوفية وهو صغير، حتى لما بلغ سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة اشتهر بالعلوم فكان يتكلم في أي موضوع ويحل أي معضلة تعرض له ويتباحث في المجامع مع العلماء ويفسر أعوص المسائل الدينية، فكانت له معرفة واسعة وإلمام تام بالروايات الشيعية وكتبها وخاصة الكتب التي تروي عن المهدي والمهدوية، كما كان مطلعاً على الكتب الصوفية والباطنية والفلاسفة القدامى والفلسفة السفسطائية القديمة، وتأثر بآراء الشيخية وبالشيخ أحمد الإحسائي وكاظم الرشتي وأفكارهما ولما بلغ سن الاثنين والعشرين توفي والده.

أمَّا اعتناقه البابية فكان عام 1260هـ الموافق 1844م لما أعلن الباب دعوته اعتنق أمر الدين الجديد بشجاعة وكان إذ ذاك في السنة السابعة والعشرين من عمره، وذلك لما كان يظن بأنه ينال من وراء ذلك منصباً لائقاً ومقاماً مناسباً، واستطاع الوصول إلى ما أراد من خلال قرة العين، ومن الجدير بالذكر أن قرة العين هي التي سمته (بهاء الله).

ومن مكره وخداعه وخيانته أنه كان على اتصال بالدول الأجنبية وخاصة بالعدوة اللدودة للمسلمين، والمنطوية على النوايا الاستعمارية الاستعبادية لبلادهم الروس والإنكليز الصليبيين.

حصل خلاف بينه وبين أخيه صبح الأزل خليفة الباب وبدأت المنافسة على الزعامة بينه وبين أخيه، وصار كل منهما يطعن في أخيه.

وحاول بهاء الله بكل جهده أن يستولي على رئاسة البابيين وبدأ يضايق الميرزا يحيى صبح الأزل بصورة علنية ويخالفه، وأمسك الراتب عنه وعن أتباعه المعارضين لسيادته والمنكرين لزعامته، الراتب الذي قرر من قبل الحكومة التركية وأمسك عنهم غلتهم أيضاً حتى اشتكى الميرزا يحيى بذلك إلى الحكومة.

وكان البهاء يتميز بالبطش والخيانة لذلك خاف الميرزا يحيى من بطشه وفتكه فطلب من الحكومة العثمانية بأن تفصل بينه وبين رفاقه وبين حسين علي وأتباعه وأن تنزله في محل غير محل البهاء ومنزله فقبلت الحكومة الطلب وفصلت بينهما. وهناك أراد حسين علي كشف اللثام عن وجهه وقام بنشر تعاليمه وجمع حوله الكثيرين وأظهر دعوته علناً للقوم (بأنه من يظهره الله وهو الذي بشر به الباب الشيرازي) فقبلها أكثر البابيين بكل حماسة وتوسموا من ذلك الحين بالبهائيين ولم يتخلف إلا أقلية اتبعت ميرزا يحيى.

وبعد هذا التاريخ الطويل، المليء بالغدر والخيانة وبيع الضمير والعمالة للاستعمار والقتل والفتك وسفك الدماء والعبث بأعراض النساء استطاع البهاء أن ينال تلك المرتبة التي كان يتمناها ويترجاها من أول اليوم الذي اعتنق فيه ديانة الباب وسخافاته. وأخيراً وبعد بلوغه الخامسة والسبعين من

العمر وقضائه 24 سنة تقريباً في فلسطين في عكا وحيفا وبهجة مات بعد ما أصابته الحمى في 28 مايو سنة 1892م، ودفن قرب منزله ببهجة في عكا.

وينقل عن أحد أبناء الحسين علي المازندراني أنه جن في آخر حياته وقبل موته بمدة.

وكان حسين علي البهاء قد تزوج بثلاث نساء وكانت أولى زوجاته نوابة خانم ولقبها أم الكائنات بصفتها زوجة للرب ـ معاذ الله ـ وقد ولدت ابنه الأكبر عباس أفندي الملقب «بالغصن الأعظم» و«عبد البهاء» زعيم البهائية ونبيها بعد أبيه، وآخرين غيره.

والزوجة الثانية مهد علي بنت عمه فولدت له الميرزا محمد علي الملقب «الغصن الأكبر» والميرزا بديع الله وضياء الله والبنت صمدية خانم.

أمّا الزوجة الثالثة فهي كوهر خانم وقد ولدت له بنتاً واحدة سماها فروغية خانم.

ووصى المازندراني بخلافته لابنه الأكبر عباس وبعده للأصغر منه الميرزا محمد علي وكتب بذلك كتاب الوصية وختمه بختمه[1].

أبرز الشخصيات:

عباس عبد البهاء: عباس بن حسين علي نوري «البهاء» ولد في طهران في 5 جمادى الأولى 1260هـ، الموافق 23 أيار 1844م أي في اليوم الذي أعلن فيه الباب دعوته تنقل مع أبيه عندما كان يبعد وينفى من بلد إلى آخر لقبه أبوه «الغصن الأعظم» وهذا هو الاسم الذي استخدمه له في عهده إليه برئاسة الدعوة بعده وعرف بلقب «عبد البهاء».

---

(1) البهائية نقد وتحليل، إحسان إلهي ظهير، ص 7.

تولى عباس عبد البهاء رئاسة هذه الحركة المرتدة بعد موت أبيه عام 1892م ولقد بنى عبد البهاء بعد توليه أمر البهائية علاقات جيدة مع جمعية تركيا الفتاة التي تعمل للقومية والتي عملت على عزل السلطان عبد الحميد الذي حمله ذلك على وضع عبد البهاء وأسرته في الإقامة الجبرية حتى 1908م في عكا بعدها انتقل إلى حيفا ومنها إلى الإسكندرية قاصداً أوروبا حيث وصل لندن في تشرين الأول 1911م وبعدها باريس ثم زار أمريكا سنة 1912م بادئاً نيويورك)[1].

شوقي أفندي: (خلف جده عبد البهاء وهو ابن الرابعة والعشرين من العمر في عام 1921م/ 1340هـ وسار على نهجه في إعداد الجماعات البهائية في العالم لانتخاب بيت العدالة الدولي، ومات بلندن بأزمة قلبية ودفن بها في أرض قدمتها الحكومة البريطانية هدية للطائفة البهائية)[2].

الميرزا محمد علي أفندي: ولد في بغداد سنة 1853م الموافق 1270هـ من الزوجة الثانية للمازندراني «مهد عليا» وسافر مع أبيه إلى إستنبول وأدرنة ثم إلى فلسطين وبقي معه في بيته إلى أن هلك وأخرجه العباس بعد الاختلافات التي حصلت من بيت أبيه وطرد من هناك مع أخوته وأهل بيته.

إبراهيم جورج خير الله: ولد إبراهيم جورج خير الله أول داعية بهائية في أمريكا في جبل لبنان بسورية في بيئة مسيحية في 11 نوفمبر 1849م ودرس في بيروت وتخرج من الكلية الأمريكية في بيروت عام 1870م ثم ذهب إلى مصر وهناك اعتنق البهائية بواسطة الملا عبد الكريم الطهراني وأرسل المازندراني أو

(1) البهائية والقاديانية، الدكتور أسعد السحمراني، ص 76.

(2) موقع صيد الفوائد على شبكة الإنترنت.

أنزل المازندراني حسب تعبيرهم الواحا في حقه ثم انتقل من مصر إلى أمريكا وبدأ يدعو الأمريكان إلى البهائية. كما أقام المركز البهائي في شيكاغو عام 1894م وقد تزوج بامرأة إنكليزية وحضر عكا مع جماعة من الأمريكان ولما رأى العباس وحركاته الشنيعة ودعاويه انحرف عنه واتبع أخاه الميرزا محمد علي وحصل معه ما حصل)"[1].

(1) البهائية نقد وتحليل، إحسان إلهي ظهير، ص 346.

البابية والبهائية
(الأفكار والمعتقدات)

* يعتقد البهائيون أن الباب هو الذي خلق كل شيء بكلمته وهو المبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء.

* يقولون بالحلول، والاتحاد، والتناسخ، وخلود الكائنات وأن الثواب والعقاب إنما يكونان للأرواح فقط على وجه يشبه الخيال.

* يقدسون العدد 19 ويجعلون عدد الشهور 19 شهراً وعدد الأيام 19 يوماً، فتكون السنة 361 يوماً وقد سمى الباب الشهور بأسماء الصفات الإلهية وتبتدئ كل سنة بهائية جديدة في 21 مارس من كل سنة أما الأيام الزائدة فيقضيها البهائيون في تفقد بعضهم بعضاً واستضافة الآخرين ومساعدة من يستطيعون مساعدته إما لاجتذابه وإما لأنه من جماعتهم ولذلك تسمى الأيام الزائدة عندهم أيام الضيافة.

* البابية تأمر معتنقيها إبقاء الأموات في البيت تسعة عشر يوماً وليلة وتفرض زيادة على ذلك أن لا يبتعد عنها أحد من أهل بيتها وتكفن في خمسة أثواب حريرية أو قطنية وتوقد المصابيح عندها، وتدفن في قبر من البلور أو المرمر المصقول منقوش عليه آيات.

* يقولون بنبوة بوذا، وكنفوشيوس، وبراهما، وزاردشت وأمثالهم من حكماء الهند والصين والفرس الأول.

* يوافقون اليهود والنصارى في القول بصلب المسيح.

* يؤولون القرآن تأويلات باطنية ليتوافق مع مذهبهم.

* ينكرون معجزات الأنبياء وحقيقة الملائكة والجن كما ينكرون الجنة والنار ويؤولون القيامة بظهور البهاء.

* يحرمون الحجاب على المرأة ويحللون المتعة وشيوعية النساء والأموال يبيحون أكل الربا.

* يقولون: إن دين الباب ناسخ لشريعة محمد ﷺ.

* والصلاة تؤدى في تسع ركعات ثلاث مرات، وفي هذا يقول البهاء في الأقدس: «قد كتب عليكم الصلاة تسع ركعات لله منزل الآيات حين الزوال في البكور والآصال وعفونا عدة أخرى أمراً في كتاب الله إنه لهو الآمر المقتدر المختار».

* لا يفوتنا أن نذكر أن البهائية في كتبها لم تذكر كيفية أداء الصلاة والباحث يتحير وهو يطالع كتبهم أنه يوجد فيها ذكر الصلاة ولا يوجد فيها طريقة أدائها وكيفية إجرائها اللهم إلا ما قاله المازندراني في كتابه «الأقدس».

* ويعفى من الصلاة من كان على سفر أو في نفسه ضعف من مرض أو كبر كما تعفى الحائض والنفساء ولا قضاء فيها.

* لا توجد صلاة الجماعة إلا في الصلاة على الميت وهي ست تكبيرات يقول في كل تكبيرة (الله أبهى) وسبب منع صلاة الجماعة للاجتناب عن مشابهة المسلمين، وللاختراع وقصد الابتداع.

* الوضوء بماء الورد وإن لم يوجد ماء فالبسملة بسم الله الأطهر خمس مرات.

* الصيام عندهم في الشهر التاسع عشر شهر العلا وهو آخر الشهور البهائية فيجب فيه الامتناع عن تناول الطعام من الشروق إلى الغروب والمعنى

أن الصائم يفعل ما يشاء من الشروق إلى الغروب وحتى المباشرة بالزوجة وليس عليه إلا الكف عن الأكل والشرب من طلوع الشمس إلى غروبها مدة تسعة عشر يوماً (شهر بهائي) ويكون آخرها عيد النيروز 21 آذار وذلك من سن 11 إلى 42 فقط، ويعفى من الصيام المسافر والمريض والحامل والمرضع والهرم والكسول، فعلى من بقي الصوم؟ والناس إما مسافر ومريض أو كسل وهرم.

* الزكاة: هي ركن قائم عند البهائية ومقدارها 19 بالمئة من صافي الربح بعد كل عام والزكاة عندهم تدفع لما يسمونه (بيوت العدل) التي تنفقها على نشر وخدمة دعوتهم المارقة.

* ومن واجب البهائي أن يدعو ويستضيف في منزله 19 شخصاً كل يوم ولو على شربة ماء وفي هذا حض لأتباعهم على التحرك الدائم وسط الناس لاجتذابهم إلى عقيدتهم الفاسدة.

* الحج: واجب على الرجال دون النساء، يبطلون الحج إلى مكة وحجهم إلى قبر ميرزا حسين علي، أمّا في حياته فكان إلى المكان الذي ينزل فيه.

* القبلة: يقول البهاء في الأقدس «إذا أردتم الصلاة ولو وجوهكم شطري الأقدس المقام المقدس الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى» يعني قصره الباذخ في عكا أما بعد هلاكه فقبره هو قبلة البهائية.

* الطلاق يفترق الزوجان عاماً كاملاً فإذا لم يمكن التوفيق انفصلا بالطلاق.

* يحرمون تعدد الزوجات فوق الاثنين، أمّا الزنا فالمفهوم والمستفاد من تعليمات البهائية أنهم لا يعدون الزنا إلا ما لم يرض به أحد الطرفين، أو أن

يكون بدون عوض وبدل مثلما هو معروف في بيئات المنحلين أنهم لا يرون الفحش فحشاً والبغاء بغاء ما دام رضي به الطرفان.

* تحريم الجهاد وحمل السلاح وإشهاره ضد الأعداء خدمة للمصالح الاستعمارية.

* ينكرون أن محمداً ﷺ خاتم النبيين مدعين استمرار الوحي وقد وضعوا كتباً معارضة للقرآن الكريم مليئة بالأخطاء اللغوية، والركاكة في الأسلوب.

* من عقائدهم ضرورة إخفاء الدين عن غير الأتباع وإظهار التقية وهم في ذلك كالشيعة[1].

بعض التقاليد والمفاهيم البابية والبهائية:[2]

الأعياد وهي خمسة:

1 ـ عيد النيروز: ويصادف في 21 من شهر آذار.

2 ـ عيد الرضوان: وعدته اثنا عشر يوماً وهي أيام أعلن فيها بهاء الله دعوته.

---

(1) المراجع التي اعتمد عليها في نقل الأفكار والمعتقدات: (البابية عرض ونقد، إحسان إلهي ظهير)، (البهائية نقد وتحليل، إحسان إلهي ظهير، ص 147)، (البهائية تاريخها وعقيدتها، عبد الرحمن الوكيل، ص 263)، (البابيون والبهائيون همايون همتي، ص 103) (البهائية والقاديانية، الدكتور أسعد السحمراني، ص 102)، (المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، تأليف العميد عبد الرزاق محمد أسود، 3/ 308)، (موقع صيد الفوائد على شبكة الإنترنت: www.saaid.net:.

وقد جمعنا الأفكار والمعتقدات في بحث واحد تجمع بين أفكار ومعتقدات البابية والبهائية معاً وذلك لاشتراكهم في أغلب الأمور وأنَّ البهائية اليوم هي البابية بالأمس والأغلب اليوم ذكر البهائية فقط دون التعرج على البابية لذلك أغلب ما ذكر هنا أفكار البهائية.

(2) البهائية نقد وتحليل، إحسان إلهي ظهير، ص 217.

3 ـ عيد ميلاد الباب: ويصادف أول يوم من شهر محرم.
4 ـ عيد ميلاد المازندراني: ويصادف اليوم الثاني من شهر محرم من كل سنة.
5 ـ عيد المبعث: وهو اليوم الذي أعلن فيه الشيرازي الباب دعوته أمام الناس ويصادف الخامس من شهر جمادى الأولى من كل سنة.

بيت العدل: وهو عبارة عن لجنة تشريعية دولية كبيرة لها حق التشريع الجديد والنسخ والتبديل وكل ما يحتاجه البهائيون، كما أنها هي اللجنة التنفيذية عند القوم، فبيت العدل هو الذي ينفذ الحدود ويجري الأحكام ويأخذ الزكاة والغرامات فبوجوده توجد الديانة وبعدمه معدومة صرفة.

التحية: والتحية عندهم وفق ما جاء في البيان تختلف بين الرجال والنساء، فالرجال يسلمون قائلين (الله أكبر) والجواب على السلام (الله أعظم) أمَّا النساء فيقلن (الله أبهى) والجواب على السلام (الله أجمل).

فرق البابية والبهائية[1]:

1 ـ الأزلية: وهم المجاهدون بخلافة (ميرزا يحيى نور صبح الأزل).
2 ـ البهائية: الذين تمسكوا برئاسة (الميرزا حسين علي بهاء الله).
3 ـ البابية الخالصة: وهم الذين لم يرضوا بما قاموا به بعد إعدام الباب وهؤلاء اكتفوا بتعاليمه ورسالته.
4 ـ البابية البهائية العباسية: وهم أتباع (عبد البهاء عباس أفندي) ويسميهم المؤرخون (المارقون).
5 ـ الناقضون: وهم أتباع «الميرزا محمد علي» أخي عبد البهاء عباس.

---

(1) معجم الفرق الإسلامية، الدكتور عارف تامر، ص 85.

كتب البابية والبهائية:

(ألف الباب مجموعة من الكتب باللغتين العربية والفارسية في التفسير والأدعية وفي أصول الدين وهي تزيد على الـ (24) كتاباً وأهمها (البيان) العربي وضعه الباب للتعريف بمذهب البابية ويعتبر الكتاب المقدس والمرجع الأول لأصحاب هذا المذهب (البهائي).

كتاب (الإتقان) الذي كتبه البهاء وهو تتمة لكتاب البيان كما يقول البهائيون)[1].

الانتشار ومواقع النفوذ:

(تقطن الغالبية العظمى من البهائيين في إيران وقليل منهم في العراق وسورية ولبنان وفلسطين المحتلة حيث مقرهم الرئيس وكذلك لهم وجود في مصر حيث أغلقت محافلهم بقرار جمهوري رقم 263 لسنة 1960م وكما أن لهم عدة محافل مركزية في أفريقيا بأديس أبابا وفي الحبشة وأوغندا ولوساكا بزامبيا التي عقد بها مؤتمرهم السنوي في الفترة من 23 مايو حتى 13 يونيو 1989م، وجوهانسبرج بجنوب أفريقيا وكذلك المحفل الملي بكراتشي بباكستان. ولهم أيضاً حضور في الدول الغربية فلهم في لندن وفيينا وفرانكفورت محافل وكذلك بسيدني في أستراليا ويوجد في شيكاغو بالولايات المتحدة أكبر معبد لهم وهو ما يطلق عليه مشرق الأذكار ومنه تصدر مجلة نجم الغرب وكذلك في ويلمنت النويز (المركز الأمريكي للعقيدة البهائية) وفي نيويورك لهم قافلة الشرق والغرب وهي حركة شبابية قامت على المبادئ البهائية ولهم كتاب دليل القافلة وأصدقاء العلم. ولهم تجمعات كبيرة في

---

(1) المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، تأليف العميد عبد الرزاق محمد أسود، ص 299.

هيوستن ولوس أنجلوس وبيركلين بنيويورك إلى 600 جمعية. ومـن العجيـب أن لهذه الطائفة ممثلاً في الأمم المتحدة في نيويورك فيكتور دي أرخو ولهم ممثـل في مقر الأمم المتحدة بجنيف ونيروبي وممثل خـاص لأفريقيـا وكـذلك عـضو استـشاري في المجلـس الاجتماعـي والاقتـصادي للأمـم المتحـدة أيكوسـكو Ecosco وكذلك في برنامج البيئة للأمم المتحدة Unep وفي اليونيـسيف Unicef وكذلك بمكتب الأمـم المتحـدة للمعلومـات Office of Public information U.N.، ودزي بوس ممثل الجماعات البهائية الدولية لحقـوق الإنـسان في الأمـم المتحدة ورستم خيروف الذي ينتمي إلى المؤسسة الدولية لبقاء الإنسانية)"[1].

(1) موقع صيد الفوائد على شبكة الإنترنت، www.saaid.net

العلمانية

تعريف العلمانية:

العلمانية: ترجمة خاطئة لكلمة (Secularism) في الإنكليزية، وهي كلمة لا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته على الإطلاق..

والترجمة الصحيحة للكلمة هي (اللادينية) أو (الدنيوية). لا بمعنى ما يقابل (الأخروية) فحسب، بل بمعنى أخص وهو ما لا صلة له بالدين أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.

وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف الذي تورده المعاجم ودوائر المعارف الغربية للكلمة، تقول دائرة المعارف البريطانية: مادة (Secularism) هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها.

ويقول معجم أكسفورد شرحاً (Secularism):

1 ـ دنيوي أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً.

2 ـ الرأي الذي يقول أنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية.

ولذلك نرى أن المدلول الصحيح للعلمانية هو: إقامة الحياة على غير الدين[1].

نشأة العلمانية:

ظهرت العلمانية ابتداء في العالم الغربي وكان لذلك النشوء أسباب وعوامل متعددة أهمها:

---

(1) انظر العلمانية، سفر الحوالي، مكتب الطيب، القاهرة، ط 2، 1999م، ص 20 ـ 23.

1 ـ تحريف المسيحية:

إن المسيحية التي أقرها مجمع نيقية عقيدة رسمية للإمبراطورية الرومانية، تختلف اختلافاً تاماً عن المسيحية الأصلية التي أنزلت على عيسى عليه السلام، فلقد تأثرت بالأديان والوثنيات التي كانت سائدة آنذاك، مما جعلها مزيجاً مركباً غير متجانس، فيه من الأصل الصحيح شيء، وفيه أشياء لم ينزل الله بها سلطاناً كعقيدة التثليث والصلب واعتقاد الوساطة بين الله والناس، وتقديس الصور والهروب من الحياة بالرهبانية التي جعلت أصحابها أعداء للفطرة الإنسانية السليمة مغرقين في القذارة والفقر وازدراء أبسط الحاجات الإنسانية.

واستغلت الكنيسة سذاجة أتباعها وفرضت عليهم عقائد غريبة تحت اسم الأسرار المقدسة، مما أدى بالعقول السليمة في نهاية المطاف إلى الثورة العارمة على تلك العادات المكتسبة، والتي بدأت إرهاصاتها منذ فتح الأندلس ووصول شعاع الحضارة الإسلامية إلى أوروبة وانتهاءً بانهيار الكنيسة.

وكان من أهم أسباب تفتح تلك العقول بدعة (صكوك الغفران) التي اخترعتها الكنيسة لتعينها في حربها على أعدائها (المسلمين)، فكان صك الغفران والنجاة يعطى للمشاركين في الحروب الصليبية، أو لمن يملك ثمن شرائه.

فازدادت الكنيسة بذلك ثراءً وسلطة، وأخذت تبطش وتطغى، ولا أدل على ذلك من محاكم التفتيش، التي كان ضحيتها الأولى من المسلمين الأندلسيين الذين أبيدوا إبادة تامة بأقسى وأشنع ما يمكن أن يتخيله الإنسان من الهمجية والوحدانية[1].

---

(1) الهيثم زعفان، العلمانية الانحلالية ومنظومة القيم الإسلامية، مجلة البيان، العدد 194، ص 47.

ولم يكن ضحاياها من المسلمين فقط.. بل أيضاً من المخالفين من المسيحيين أنفسهم، وخاصةً البروتستانت المجددين (حتى بلغت ضحايا هذه المحاكم الدينية منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن عشر ما يزيد على 9 ملايين نسمة)[1].

إن ذلك كله جعل أصحاب الفكر الحر يشعرون بالمهزلة، خاصة عندما يقارنون بين وضعهم ووضع المسلمين الذين كانوا يعيشون عصورهم الذهبية.

(لقد بدأت الحركات الإصلاحية من داخل الكنيسة نفسها وبأقلام المتدينين أنفسهم أمثال مارتن لوثر وكالفن)[2]. مما زعزع نظامها الداخلي المتماسك (فأغرى من خارجها من منتقديها أن يرفعوا أصواتهم منادين بفصلها عن الحياة)[3].

2 ـ الصراع بين الكنيسة مع العلم:

تتردد كثيراً مقولة (الصراع بين الكنيسة والعلم) ويرددها كثير من مثقفي المسلمين اليوم دون أن يعلموا أن الدين الإلهي الحق لم يدخل هذه المعركة (وأنه لو كان الدين الأوروبي حقاً خالصاً. والعلم الأوروبي يقيناً مجرداً لما حدثت معركة على الإطلاق)[4]. ولذلك كانت المعرفة بين الكنيسة والعلم، لا بين العلم والدين، ذلك لأن الكنيسة بعد تحريفها للدين الصحيح جعلت لنفسها سلطة على كل مجالات الحياة، حتى ما لم يكن من اختصاصها، (فجعلت لبعض النظريات العلمية القديمة قدسية كقدسية النص الإلهي،

---

(1) محمد كاظم حبيب، مؤامرة فصل الدين عن الدولة، دار الإيمان، بيروت 1974م، ص 19.

(2) المصدر السابق، ص 28.

(3) المصدر السابق، ص 35.

(4) سفر الحوالي، العلمانية، ص 146.

وحاربت من ينتقدها، أو يأتي بجديد عليها وعرضته لمحاكم التفتيش، حتى إن (جاليليه) وبعد ثلاث سنوات من السجن ركع أمام رئيس المحكمة معلناً توبته من القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض)[1].

لكن خلفاء جاليليه ازدادوا قناعةً بآرائه، ثم بدأت تظهر (مدرسة النقد التاريخي) وهي نظرية ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية، أي على أنها تراث بشري وليست وحياً إلهياً وهي لم تعفِ الكتاب المقدس من نقدها.

(ومن ثم جاء الفكر (الطبيعي) المستند إلى النظرية القائلة أنه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون الحاجة إلى تدخل قوى خارجة عنها. الذي أيده نيوتن بقانون الجاذبية وكان له الأثر الأكبر في الحياة الأوروبية وهو الذي وضع أساس الفكر المادي الغربي)[2].

ثم جاء عصر التنوير، العصر الذي عبد العقل... والطبيعة! وبدأ يسخر من العقائد الكنسية ويعضها تحت دائرة النقد التاريخي والطبيعي... (فبدأت بفكرة الإقرار بوجود إله خالق مع إنكار وحيه أو تحكمه بشؤون البشر، ثم انتهت بفكرة إنكار الله تعالى أصلاً!؟ وكان رواد هذه الطبقة المتنورة من الفلاسفة والأدباء مثل ديكارت وفولتير وروسو)[3].

ولا يخفى عن كل ذي بصيرة الدور الذي لعبه اليهود في ذلك كله، فإبعاد الشعوب عن دينها وإغراقها في المادية الدنيوية من بروتوكولاتهم الأساسية.

---

(1) المصدر السابق، ص 151.

(2) المصدر السابق، ص 156.

(3) محمد كاظم حبيب، مؤامرة فصل الدين عن الدولة، ص 28.

بالإضافة إلى كل ذلك، لعبت نظرية داروين دوراً كبيراً في إحداث شعور بتفاهة الحياة وماديتها، وكانت الضربة القاصمة للكنيسة وسلطتها، ونشرت فكرة أن لا غاية من الخلق وإنما القضية مجرد صدفة؟! لقد كان لهذه النظرية آثار اجتماعية وثقافية خطيرة، اتجهت بعدها أوروبا إلى الابتعاد عن كل ما يتعلق بالغيب أو بهدف الوجود، وأصبحت الحياة الدنيا هي (مبلغهم من العلم)!

الثورة الفرنسية وأفكارها وولادة الفكر العلماني:

أولاً: أسباب اندلاع الثورة:

إن النظام الذي هيمن على الحياة الأوروبية طوال القرون الوسطى هو نظام الإقطاع وهو يأتي في طليعة الأنظمة الجاهلية التي لا ينفك عنها الظلم ولا ينفصم عنها الطغيان، والإنسان في ظله مسلوب الإرادة، مهدر الكرامة، ضائع الحقوق، وكان المجتمع الأوروبي مؤلفاً من طبقتين: الأولى: طبقة السادة الملاك، ورجال الكنيسة، وهي في قمة الترف، والثانية: طبقة العبيد ورقيق الأرض، والزهاد من رجال الكنيسة، وهي في حضيض العوز والفقر.

وقد خلق الله الإنسان رافضاً للظلم، نافراً من الطغيان، منتظراً أدنى فرصة للثورة على ظالميه، وارتبطت أولى محاولات الإنسان الأوروبي للانفلات من المظالم الإقطاعية بالاحتكاك بالمسلمين عن طريق الفتوحات الإسلامية في أوروبة، وبلغ ذلك ذروته إبان الحروب الصليبية، وليس غريباً أن يكون أرقاء فرنسا هم رواد الثورة على الإقطاعيين فإن موقعها الجغرافي المحاذي للجزء المسلم من أوروبا: الأندلس، ثم حملاتها الصليبية الكثيفة، مضافاً إليها البعد النسبي عن مركز البابوية في روما، كل ذلك جعلها أقرب إلى التمرد والانطلاق.

وهكذا قامت في فرنسا أول ثورة فلاحية (الجاكريه) في القرن الرابع عشر للميلاد، وهي وإن أخفقت كالشأن في المحاولات الأولى، فقد هيأت للأذهان إمكان القيام بعمل ناجح مستقبلاً. وكان من العوائق الكبرى التي خيبت جهود الثائرين أن الكنيسة (أكبر الإقطاعيين) وقفت ضدهم وأجهضت محاولاتهم)[1].

وإلى جانب ذلك كله، كانت المذاهب والتيارات الفكرية الجديدة تلعب دورها، خاصة بعد ظهور الورق وأثره في انتشارها... ولما بلغ الفساد السياسي والاقتصادي مداه وازدادت أحوال الطبقات المسحوقة سوءاً، لم يكن للشعب البائس سوى القيام بعمل يزيح كابوس الظلم، ويودي بالطبقات الظالمة المنعمة في ملذاتها والمؤلفة من رجال الدين والأشراف؟! فقامت الثورة الفرنسية عام 1789م كنتيجة طبيعية لكل العوامل السابقة.. ابتداءً بانحراف الكنيسة وظلمها للشعب وانتهاءً بانتشار الفكر اللاديني الذي طبع عصر التنوير، (أضف إلى ذلك ما قامت به القوى الخفية (يهود وماسونية)، فقد عانى اليهود من المسيحيين الاحتقار والازدراء، وكانوا موقنين أن تحقيق أحلام السيطرة على الأمميين لن يتم ما دام في الكنيسة عرق ينبض، فكانوا يتحينون الفرصة للإجهاز عليها وعلى دينها وأخلاقها والسيطرة على أتباعها، واعترف اليهود أنفسهم بأنه كان لهم يد في الثورة وإن لم يكونوا هم صانعوها كما يدعون بغرورهم المعهود)[2].

ثانياً: شعارها وأبرز مطالبها:

(عندما اندفعت الجموع الغوغائية في باريس لهدم سجن الباستيل رمز العبودية والاستغلال لم تكن ترفع سوى شعار واحد هو: الخبز.. والخبز

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 166.

(2) المصدر السابق، من ص 166 ـ 175.

وحده، فقد كان العامل الرئيس في خروجها هو جوعها وجوع أبنائها، وهي لم تكن تفهم أفكار الكتاب العلمانية وفلسفاتهم، لكنها خرجت ضد الكنيسة لما آلت إليه من ظلم واستبداد وثراء فاحش.

إلا أن القوى الخفية كانت تعمل بجد ونشاط، ووجدت الجماهير الغوغائية نفسها تهتف بشعار الحرية ـ المساواة ـ الإخاء. وهو شعار الماسونية ـ وقد لقنت هذا الشعار تلقيناً.. وبرز أيضاً شعار آخر لم يكن الرعاع ليصنعوه، وهو (لتسقط الرجعية) وهي كلمة ملتوية تعني الدين)[1].

ويعترف اليهود في بروتوكولاتهم أنهم وراء شعار (المساواة ـ الحرية ـ الإخاء) الذي رددته ببغاءات جاهلة ـ حسب تعبيرهم ـ (وهم يقصدون بالحرية: تحطيم القيود الأخلاقية، ويقصدون بالإخاء والمساواة تحطيم الحواجز وإذابة الفروق الدينية بينهم وبين غيرهم ليسهل عليهم الانسلال إلى أجهزة الدولة وتنظيماتها)[2].

ثالثاً: نتائج الثورة:

تمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية... تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب، وليس (باسم الله) وعلى حرية التدين بدلاً من (الكثلكة)، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلاً من قرارات الكنيسة.

(وقامت الثورة بأعمال غريبة على عصرها، فقد حلت الجمعيات الدينية، وسرحت الرهبان والراهبات وصادرت أموال الكنيسة وامتيازاتها، وحاربت

---

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 173.

(2) المصدر السابق، ص 177.

العقائد الدينية هذه المرة علناً وبشكل واضح بشدة، وأصبح رجل الدين موظفاً مدنياً عند الحكومة)[1].

وعلى الرغم من ذلك... (لا ينكر أن الثورة الفرنسية أحيت الغرب وكانت سبباً لبعثة نهضته العلمية)[2].

تأثر العالم الإسلامي بالعلمانية وأسبابه:

الحديث عن تأخر الأمة الإسلامية وانحطاطها في القرون الأخيرة طويل ومتشعب، ولكن السمة البارزة في ذلك التأخر تلك التي تجعله يتدنى عن مستوى فترات الانحطاط السابقة، هي الانحراف عن فهم الإسلام نفسه، وانحسار مفهوماته التصورية في معان ضيقة ومدلولات محدودة، وهذا الانحراف هو نتيجة وسبب في آن واحد.

وأهم مظاهر انحراف المسلمين قد تجلت على مستويين:

أولاً: الانحراف في مفهوم الألوهية:

غفل المسلمون عن قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ سورة الأعراف: 3.

وبذلك صرفوا هذا النوع من العبادة إلى الحكام والولاة وعلماء المذهب المتعصبين، ومشايخ الطرق الصوفية، إضافة للمشعوذين الذين تهيأ لهم الجو بما كان يسيطر على الأمة الإسلامية من جهل وسذاجة، وقد كانت ثلاث دول تتقاسم العالم الإسلامي، وهي الدولة المغولية في الهند، والدولة الصفوية في فارس، والعثمانية في بلاد حوض البحر المتوسط.

---

(1) المصدر السابق، ص 169.

(2) محمد كاظم حبيب، مؤامرة فصل الدين عن الدولة، ص 89.

بالنسبة للدولة الصفوية يمكن القول أنها كانت منحرفة انحرافاً يجعل انتسابها للإسلام اسمياً فقط فقد كانت شيعية رافضية، وكان الحكم فيها على أهواء علماء الشيعة المتعصبين (وليس العلماء المعتدلين).

أما الدولة المغولية فكانت ـ باستثناء بعض الملوك ـ جاهلة بحقيقة الإسلام، وكان فهمها مختلطاً بكثير من الانحرافات والتصورات الخاطئة، هذا الجهل ـ إضافة إلى كون المسلمين أقلية في الهند ـ جعل إلغاء الشريعة من قبل الإنكليز لا يقابل بكبير معارضة.

أما الدولة العثمانية فعلى الرغم من أنها أصلح الدول الثلاثة عقيدة وسلوكاً، فإنها كانت بعيدة عن منهج الخلافة الراشدة بعداً يزداد أو يقل حسب نوعية خلفائها.

(ولا نستطيع أن ننكر مآثر الدولة العثمانية ومزاياها التي تستحق الثناء والتقدير فهي التي أحيت المد الإسلامي في أوروبا الشرقية بعد أن فقد المسلمون بلادهم في أوروبا الغربية بسقوط الأندلس، غير أن تلك المآثر لم تجنب الدولة العثمانية الاستمرار في خط الانحراف الذي ورثته عن أسلافها، ثم الزيادة فيه بحسن نية ودون وعي.

ومن مظاهره أن الدولة كانت تتبنى عملياً المذهب الحنفي بتعصب مر، وعارض علماؤهما فتح باب الاجتهاد الذي أغلق منذ القرن الرابع)[1].

ثانياً: الانحراف في مفهوم الإيمان بالقدر:

(لقد كتب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة: طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه

---

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 508 ـ 515.

وقدره، والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار. وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان:

في العصر الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت الجندي إلى روح الفداء، وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقذف به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية)[1].

وليس من شأننا الآن مناقشة هذه الأفكار وإنما هدفنا أن نعرضها بإيجاز بالغ لنصل إلى النتيجة وهي أن (هذا الانحراف في التصورات الإسلامية كان المنفذ الذي تسربت منه العلمانية كإحدى مظاهر الغزو الفكري لتقول للناس أن الدين لا علاقة له بالحياة. وإنما هو رابطة قلبية بين العبد وربه يستحق بها النجاة والفوز في العالم الأخروي)[2].

(صحيح أن العلمانية فكرة أجنبية وفدت إلينا مع الاستعمار ودعمت بأذياله، لكن شيئاً من ذلك ما كان ليحدث لولا أننا مصابون بما أسماه مالك ابن نبي (قابلية الاستعمار)[3].

انبهار بعض المثقفين المسلمين بالحضارة الغربية:

مما لا شك فيه أنه كان للثورة العلمية التي عاشتها أوروبا صدى في جميع أنحاء العالم، والمذاهب الفكرية التي سادت الثورة الفرنسية بدأت تجد آذاناً صاغية لدى المتذمرين من أحوال أقطارهم وتخلفها ومن ذلك المشرق الإسلامي كله.

---

(1) باول شمتز، الإسلام قوة الغد العالمية، ت د. محمد شامية، القاهرة 1394هـ، ص 78.

(2) سفر الحوالي، العلمانية، ص 522.

(3) مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، بيروت، لا تاريخ نشر، ص 13.

لقد انعكست أفكار الثورة الفرنسية انبهاراً أو إعجاباً لدى كثير من المسلمين، بل وشكلت لديه عقدة نقص لازمته فترة طويلة وفرضت عليه سكتة عقلية فحاول الكثير المقاربة بين الإسلام، والنظم الأرضية، والنظريات، والفرضيات محاولة منهم لعدم الانسلاخ من الهوية، وفراراً من الواقع الثقافي والاجتماعي المسيطر والذي أدى إلى جمود النشاط العقلي للأمة الإسلامية.

ولقد كان للبعثات العلمية التي قام بها محمد علي باشا في عهده لتطوير التعليم أثرها في عودة أولئك المفكرين مبهورين بالحضارة الإسلامية الغربية ومنهم شيوخ أجلاء، ونرى مثالاً لذلك رفاعة الطهطاوي في قوله: (ما يسمى عندنا علم أصول الفقه يسمى عندهم الحقوق الطبيعية، وهو عبارة عن قواعد عقلية تحسينية وتقبيحية، وما نسميه العدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية، وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته يسمونه محبة الوطن)[1].

ومن أوضح الأمثلة على تأثر المسلمين بالغرب وتقبلهم للفكر الدخيل ما نراه في كلام إمام كالأفغاني، في محاولة لعلها الأولى في التاريخ الإسلامي للتقريب بين الإسلام، والمذاهب البشرية الوضعية: (وهكذا دعوى الاشتراكية... وإن قل نصراؤها اليوم، فلا بد أن تسود العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح، ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع، والاشتراكية هي ملتحمة بالدين الإسلامي ملتصقة في خلق أهله منذ كانوا بداوة وجاهلية، وأعظم المحرضين على الاشتراكية من أكابر الصحابة)[2].

---

(1) رفاعة الطهطاوي، المرشد الأمين، مصر، 1289هـ ص 36 ـ 38.

(2) علي الحوافظة، الاتجاهات الفكرية السياسية والاجتماعية، بيروت 1972م، ص 112.

ويقول أحد المتأثرين به وهو عبدالله النديم (إن الشورى لا تنجح في الشرق لأن الشرقيين غير عقلاء، وإنما ثار الغربيون على الشورى حتى تربت الملكات وتصورت المطالب أمامهم بصور الواقعيات)[1].

وكذلك الشيخ محمد عبده يستحسن الأنظمة الجمهورية النيابية معتقداً أنها الوسيلة الحديثة للشورى الإسلامية، فيقول: (المبايعة لا تتوقف صحتها على الشورى ولكن قد يحتاج فيها إلى الشورى لأجل جمع الكلمة على واحد ترتضيه الأمة، فإن أمكن ذلك بغير تشاور بين أهل الحل والعقد كأن جعلوا ذلك بالانتخاب المعروف الآن في الحكومة الجمهورية وما في معناه حصل المقصود)[2].

وإنما نورد هذه الأقوال لغرض واحد وهو انبهار الأمة الإسلامية بالغرب ونظمه، واستعدادها الذاتي للتلقي عنه تلقياً تدل عليه الشواهد وغيرها، وهؤلاء وأمثالهم تطوعوا بتسويغ النظم اللادينية في أمتهم، وهيؤوا النفسية الإسلامية لتقبلها مندفعين بدوافع نفسية ذاتية.

رواد الفكر العلماني في العالم الإسلامي:

من أهم القضايا التي يجدر الانتباه إليها أن الانحراف غير المقصود قد بدأ من منطلق التخلص من جمود الفقه الإسلامي أمام المتغيرات الحيوية، ومن توهم المسلمين أن سبب تخلفهم هو عجزهم التنظيمي والإداري. وأن محاكاة أساليب الحياة الغربية جديرة بالقضاء على ذلك التخلف. وعلى هذا الأساس قامت الحركة المسماة (حركة الإصلاح) في جناحي العالم الإسلامي تركية ومصر.

---

(1) المصدر السابق، ص 104.

(2) علي الحوافظة، الاتجاهات الفكرية السياسية والاجتماعية، ص 100.

هذه السذاجة عند منفذي الإصلاح الأوائل أصبحت عند الشباب الـذين تلقوا دراستهم في أوروبا فكرة واعية ومبدأ مرسـوماً، ومـن ثـم أصـبح مفهـوم الإصلاح هو نبذ الإسلام والتمسك بركاب أوروبـا الكـافرة.وسرت في قلـوب أولئك روح التفرنج، وتطور الأمر حتى نشأت حركات ثورية تطالب بالإصلاح الداخلي. ولا غرابة أن تكون اليد الطولى في هذه الحركـات لأولئـك التلمـوديين الذين وسعتهم سماحة الإسلام في حين ضيقت عليهم إسبانيا النصرانية[1].

واستمر الحال كذلك حتى استلم الحكـم مـصطفى كـمال وقـام بإلغـاء الخلافة الإسلامية، وفرض النموذج الغربي للحياة في جميع المناحي، حتـى أنـه تدخل في لبس الطربـوش وفـرض بـدلاً عنـه القبعـة الغربيـة، وفـرض بقـوة السلاح المسخ الفكري. وحطـم بـصورة اسـتبدادية مظـاهر الحـشمة والحيـاء الإسلامي.

وأما مصر فبدأت بالاصطباغ بالصبغة الأوروبية منـذ أيـام محمـد عـلي، وكان الخديوي إسماعيل مفتوناً بالغرب، ومهـدت سياسـته الفاشـلة لتـدخل بريطانيا في شؤون مصر ثم احتلالها نهائياً.

كان زعيم الإصلاح في مصر هو الشيخ محمد عبده الـذي أثـاره تقـدم الغرب وتخلف المسلمين في كـل ميـدان، فهـب يـدعو إلى الإصـلاح متـأثراً بأستاذه جمال الدين أفغاني، ولم يجد حرجاً مـن اقتبـاس القـوانين التـشريعية الغربية ما دام ذلك يحقق الإصلاح في نظره؟! كما أن إعجابه بالثقافة الغربية هو الذي جعله يبالغ في انتقاص الأزهر مطلقـاً عليـه لفـظ (الاصـطبل) أو (المارستان).

---

(1) محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، بيروت 1970، ص 78.

حقيقة أن الرأي العام الإسلامي ثار على بعض فتاويه التي أباح بها موالاة الكافرين، وإباحته لفوائد البنوك. وأخيراً فإن الشيخ ـ بقصد وبدون قصد ـ قد أوجد القاعدة التي ارتكز عليها من يسمون دعاة الإصلاح للتعلق بأذيال الغرب وإقصاء الإسلام عن توجيه الحياة.

وكان ممن ادعى أنه من دعاة الإصلاح طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي الذي طعن فيه في عقائد المسلمين، حيث شكك في النص القصصي القرآني عن الأنبياء والكعبة، وتساءل عن السبب الذي يدعونا إلى عدم اعتبارها من أساطير الأولين؟ وأن في القرآن أسلوبين مختلفين أحدهما جاف، وهو مستمد من البيئة المكية، ولما هاجر النبي إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً، فقد كان في المدينة طوائف اليهود فأصبح ذلك الخطاب ليناً وديعاً مسالماً، تلوح عليه إمارات الثقافة والاستنارة.

والكتاب الثاني (مستقبل الثقافة في مصر) دعا فيه المسلمين إلى الأخذ بحضارة الغرب حلوها، ومرها ما نريده منها وما لا نريده.

يقول فيه: (ولو أن الله عصمنا من الفتح العثماني لاستمر اتصالنا بأوروبا ولشاركناها نهضتها، ولتغير وجه العالم... نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة يوماً بعد يوم حتى نصبح جزءاً منها، لفظاً ومعنىً، حقيقة وشكلاً)[1].

ومثل طه حسين سلامة موسى الذي يقول متحدثاً عن نفسه: (إنه شرقي مثل سائر مواطنيه لكنه ثار على الشرق عندما أيقن أن عاداته تعوق ارتقاءه)[2].

---

(1) محمد إبراهيم مبروك، مواجهة المواجهة، ص 180.

(2) سلامة موسى، الأدب للشعب، مصر 1961م، ص 131.

ثم جاء بعد ذلك أستاذ الجيل ـ كما أسموه ـ محمد لطفي السيد الذي كان أحد تلاميذ محمد عبده وهو أول من فاوض «كتشز» على أن تنفصل مصر عن تركية وتصبح دولة مستقلة[1]. (وأما فكره فكان متأثراً إلى درجة كبيرة بدارون وجاك روسو من الغربيين وكان مع كل من دعا إلى التفرنج والعصرية. فقد حظيت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة بتأييد لطفي السيد أكثر من أي كاتب أو صحفي.

وذكر مؤرخ حياته حسين النجار أنه كان لا يؤمن بالغيبيات والقوى الخفية)[2] وعلل تأخر مصر وتقدم الغرب بأن مصر لها لغتان: لغة للثقافة ولغة للتخاطب، والحل الذي رآه (هو النزول بالفصحى إلى مستوى العامية حتى يتم توحيد اللغتين في لغة واحدة مع الزمن هي العامية)[3].

ثم فشت بعد ذلك بين العلمانيين ظاهرة الإلحاد والجهر به في المجتمع المسلم، ومنهم «إسماعيل أدهم» الذي جاء إلى مصر من تركية وحاول نشر الإلحاد وذلك برسالة: لماذا أنا ملحد. ووجدت بعض المذاهب الفكرية الأدبية طريقها إلى الشرق، فالروسية وجدت طريقها في روايات جرجي زيدان التي شوه بها التاريخ الإسلامي ليحاكي الرومانسيين الإنجليز (قد أسهمت وسائل الإعلام التي يدير معظمها العلمانيون إسهاماً قوياً في تنمية الاتجاه الإباحي، كما في كتابات إحسان عبد القدوس في النثر ونزار قباني في الشعر)[4].

---

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 605.

(2) حسين النجار، أحمد لطفي السيد، ص 187.

(3) علي وافي، فقه اللغة، القاهرة 1388هـ ص 184.

(4) سلامة موسى، الأدب للشعب، مصر 1961م، ص 131.

العلمانيون المعاصرون وأشهر أفكارهم:

إذا كان من ذكرنا من الإسلاميين قد تطوعوا بتسويغ النظم اللادينية في أمتهم، وهيؤوا النفسية الإسلامية لتقبلها، مندفعين بدوافع نفسية ذاتية، فقد جاء بعدهم أناس مغرضون صرحاء، اتخذتهم القوى المعادية للإسلام أصابع لمخططاتها ومعاول لهدم الكيان المادي ـ المعنوي للأمة الإسلامية. ومن هؤلاء:

1 ـ صادق جلال العظم: ملحد سوري من أصل تركي يدين بالفكر الشيوعي البائد، ولد في دمشق 1934م، يعترف العظم أنه نشأ في بيئة علمانية متحررة لا تعرف الأحكام الدينية ولا ينفذها كما ذكر في كتبه، درس الفلسفة وكانت رسالته عن الفيلسوف (كانت) عمل في الجامعة الأمريكية ببيروت ثم أستاذاً بجامعة عمان 1968م، ثم باحثاً في مركز الدراسات الفلسطيني، ثم عاد إلى دمشق وتولى رئاسة قسم الفلسفة جامعة دمشق.

اعتنق الفكر الشيوعي وجهر بإلحاده في كتابه (نقد الفكر الديني) عام 1969 الذي خلاصة زعمه أن الدين (لا سيما الإسلام) يناقض العلم الحديث، ويعقد في كتابه فصلاً خاصاً عن إبليس ويدافع عنه (مأساة إبليس)، ردد فيه شبهات إبليس التي نقلتها بعض الكتب السابقة في اعتراضه على القدر مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني.

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية قال في الفتاوى «هذه المناظرات بين إبليس والملائكة التي ذكرها الشهرستاني في أول المقالات ونقلها عن بعض أهل الكتاب ليس لها إسناد يعتمد عليه».

ورد عليه من العلماء: الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة في كتابه «صراع مع الملاحدة حتى العظم» وكذلك الشيخ عبد اللطيف فرفور في كتابه «تهافت

الفكر الجدلي». والأستاذ جابر حمزة فراج في كتابه «الرد اليقيني على كتاب نقد الفكر الديني».

2 ـ المستشار محمد سعيد العشماوي: هو رئيس محكمة الجنايات ومحكمة أمن الدولة العليا بمصر، تخرج من كلية الحقوق عام 1955م، ثم عمل بالقضاء بمحاكم القاهرة، عمل بالتدريس محاضراً في كلية أصول الدين والشريعة والقانون في عدة جامعات منها: الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وجامعة أرسيا بالسويد، ومعهد الدراسات الشرقية في لينينغراد، وجامعة السوربون بفرنسا.

بدأت كتاباته الشرعية بكتابه (أصول الشريعة) 1980م، ثم كتابه (الربا والفائدة في الإسلام)، ثم توالت كتبه الأخرى (الإسلام السياسي)، (جوهر الإسلام) (الشريعة الإسلامية والقانون المصري)، (معالم الإسلام).

ـ يعد العشماوي من دعاة فصل الدين عن الدولة، وتحوي كتبه التشنيع على نظام الحكم الإسلامي، والتهجم على دعاة تطبيق الشريعة (إن تديين السياسة من أعمال الفجار أو الأشرار، وتاريخ الإسلام تاريخ قمعي دموي يدور على الصراع بين القبائل والفرق والأجناس، والفقه الإسلامي خال من أي نظرية إسلامية وصفر من أي نظام سياسي متكامل). ويطرح نفسه كاتباً إسلامياً مستنيراً يقف في وجه الظالمين على حد زعمه.

وتولى المفكرون الإسلاميون الرد عليه، فأشهرهم الدكتور محمد عمارة في كتابه (سقوط الغلو العلماني)، والدكتور عمر عبدالله كامل في كتابه (قراءة نقدية في أفكار العشماوي)، والدكتور المفكر صلاح الصاوي في كتابه (تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية)، وكذلك الشيخ الشعراوي في (الأنوار الكاشفة).

3 ـ فـرج فـودة: مواليـد الزرقـاء ـ دميـاط 1945م ـ حـصل عـلى بكـالوريوس الزراعـة 1967م، ثـم حـصل عـلى الـدكتوراه في الفلـسفة في الاقتصاد الزراعي من عين شمس عام 1981م، عمل مدرساً بجامعـة بغـداد ثم خبيراً اقتصادياً في بيوت الخبرة العالميـة، ثـم أصـبح يـدير (مجموعـة فـودة الاستشارية). كان يدعو للتعايش مـع إسرائيـل وبـدأ هـو بنفـسه في التعامـل بالاستيراد والتصدير، وضع نفسه أمـام الـرأي العـام أنـه ضـد إقامـة الدولـة الإسلامية وتطبيق الشريعة، وكان ذلك واضحاً في مناظرته مع الدكتور (محمد أحمد خلف الله) في معرض الكتاب عام 1982م. وفي مواجهـة الـشيخ محمـد الغزالي، والمستشار مأمور الهضيبي، والدكتور محمد عمارة.

ومـن مؤلفاتـه: الملعـوب ـ قبـل الـسقوط ـ الحقيقـة الغائبـة ـ النـذير ـ الإرهاب. وتوالت ردود العلماء عليه وأهمها:

1 ـ عبد المجيد حامد صبح في كتابه (تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه).

2 ـ منير شفيق في كتابه (بين النهوض والسقوط).

3 ـ مفرح القوسي في كتابه (المنهج السلفي والموقف المعاصر منه).

4 ـ د. جابر عـصفور: (المـسؤول الأول في المجلـس الأعـلى للثقافـة في مصر، وهو المشرف على أهم الندوات العلمية والنقدية والفكرية التي تعقد في العالم الغربي اليوم قاطبة، له كتاب «نظريات معاصرة»، «تنوعنا الخلاق».

ولا تتعدى صولاته الفكرية وقدراته الإبداعية نطاق الفكر الغربي الذي تأثر به وتمرس داخل حدوده وهو يدافع عن الفكر العلماني ورواده من بعـض المثقفـين العرب الذين يقدحون في الوحي والشريعة والعقيدة والقيم والمبادئ الإسلامية[1].

---

(1) طارق منينة، أقطاب العلمانية، دار الدعوة، ص 117.

وهو يؤكد أن (النص على أن الإسلام دين الدولة قد فرق بين المسلمين المصريين وأنشأ في مصر قوة سياسية دينية تؤيد الرجعية وتجر مصر جراً عنيفاً إلى الوراء)[1].

ولقد تصدى للرد على فكره ونقد شبهاته عدد من العلماء على رأسهم الدكتور محمد عمارة، والباحث طارق منينة حيث فند شبهاته وتوقف عند كل منها بالرد والتمحيص، مبيناً زيف أفكاره ومنابعها الغربية في كتابه أقطاب العلمانية في العالم العربي والإسلامي.

5 ـ أدونيس: (أحمد سعيد علي شاعر سوري معروف في الأوساط الفكرية والشعرية في عالم الشرق والغرب وهو امتداد للشعراء الإباحيين، كما هو امتداد للمنظومة الفلسفية الغربية التي تستمد معاييرها من سلطة البشر واستقلالية الإنسان. هذه الرؤية الكونية لا تعتمد على المرجعية الدينية أو العقائد الإيمانية وإنما هي رؤية علمانية حديثة هدفها تهجين الأفكار والتقاليد)[2]. ومما يدعو للريبة في المدعو أدونيس رسالته التي أعدها لنيل الدكتوراه تحت عنوان الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب قدم فيها تشويهاً لوقائع التاريخ الإسلامي، وقدم دراسته عن الخلافة ومفادها أن تولية أبي بكر الصديق للخلافة، تأسس والنبي يحتضر في مناخ اقتتال بل يمكن القول إنها تأسست بمبادرة شبه انقلابية، أي بشكل من أشكال العنف الأقوى، وكان المشرف على الرسالة نصرانياً، وقد ترشح أدونيس من قبل دوائر الاستشراق لنيل جائزة عالمية بوصفه شاعراً ومفكراً إسلامياً ثائراً

---

(1) محمد إبراهيم مبروك، مواجهة المواجهة، ص 235.

(2) مقالة لأدونيس بعنوان «الأرض هذه الجنة الضائعة»، جريدة الحياة، الثلاثاء 1998م.

ويدعو إلى نقد القرآن (وهو النص الديني الأول الذي أسس على الذاكرة العربية ـ كما يدعي ـ.

ولقد تولى الرد على ذلك الهراء والسخف الأستاذ أنور الجندي في كتابه شبهات التغريب الذي يقول فيه: كل حضارة تبدأ من نقطة التحرر والانقلاب من الضوابط والقيم الأخلاقية لابد أن تنهار وتتمزق)[1].

6 ـ محمد أركون: مفكر جزائري حصل على الدكتوراه من السوربون، وهو من عبيد السوربون وأفكاره، يحتذي طريقة أستاذه (ميشيل فوكو) في التحليل التفكيكي كما ينتمي إلى المدرسة الاستشراقية في طريقة تعرضه ودراسته للإسلام وعلومه. ويصرح بجرأة بأنه أحد رواد الفكر العلماني وذلك تحت عنوان «نحو ممارسة علمانية للإسلام»، ويدعونا فيها إلى النقد المستمر للدين والشريعة والتراث الإسلامي، وأنه كما نَقد فيتشر المسيحية لابد لنا من نقد الإسلام والألوهية والوحي والشريعة[2].

وهو لا يقتصر على نقد الأحاديث والتفاسير، ولا يكتفي بتفكيك المنظومة الفقهية، بل يتوغل في نقده وصولاً إلى الأصل الأول وهو القرآن الكريم ـ الوحي الإلهي: ولقد قال في حلقة دراسية دولية للدبلوماسيين: (إننا نهدف إلى قلب المنهجية التي تنطلق من الدين)[3].

عين مديراً لمعهد الدراسات الإسلامية والعربية في السوربون بفرنسا.

ولعل خير من تصدى لهذا الفكر الأستاذ فهمي هويدي في كتابه المقالات المحظورة وكتاب عن العلمانية وتجلياتها.

(1) سليمان الخراشي، دراسة شرقية لفكر منحرف، موقع صيد الفوائد.

(2) طارق منينة، أقطاب العلمانية، دار الدعوة، ص 151.

(3) طارق منينة، أقطاب العلمانية، دار الدعوة، ص 153.

7 ـ د. محمد شحرور: مهندس سوري، خريج الاتحاد السوفييتي، حاول تفسير القرآن الكريم بشكل عصري عقلاني في كتابه الذي أصدره مطلع التسعينات من القرن الماضي، متأثراً فيه بفكر أستاذه جعفر دك الباب، أستاذ اللسانيات الذي تتلمذ على يد عالم اللسانيات السوفياتي خراكوفسكي، الذي يحمل شهادة دكتوراه باللغة العربية. حاول الشحرور تطبيق قواعد الجرجاني في اللغة العربية. حول الثابت والمتغير وأن النص القرآن يخضع للمرحلة الزمانية والمكانية، وأن فهم الصحابة والسلف للقرآن غير ملزم، وأن التفسير النبوي للقرآن الكريم فهم خاص به ﷺ، وبتطبيقه لقواعد أستاذه السوفياتي للغة العربية خرج بأحكام فقهية غريبة، منها أن لا عورة للمرأة أمام محارمها وأن العورة من باب العيب وليس من باب المحرم. كما أنكر حجية السنة في الأحكام الشرعية، وأنها محكومة بالزمان التي وجدت فيه وأهله.

ولقد انبرى للرد عليه لغوياً الأستاذ يوسف الصيداوي في كتابه بيضة الديك، ورسالته العربية بين خراكوفسكي ودك الباب، وفند آراءه الشاذة بمقاييس اللغويين. كما كتب الأستاذ المحامي منير الشواف كتابه تهافت القراءة المعاصرة، والذي تتبع فيه أفكار الدكتور شحرور في كتابه الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ورد على شبهاته تفصيلاً، كما وضح الأستاذ محمد صياح المعراوي حقيقة هذا المنهج وأهم أفكاره في كتابه الماركسلامية والقرآن.

8 ـ عبد الرحمن الشرقاوي: وهو اشتراكي ماركسي النزعة في أوائل الستينات، ثم اتجه إلى الإسلام يدرسه ليسقط عليه وعلى تاريخه المعايير الماركسية، يقول في كتاب رأيهم في الإسلام: (إن التعاملات المصرفية كلها

حلال، والاستفادة من الفائدة عمل مشروع وليس ربا لأنـه لا يتعـارض مـع أحكام الشريعة)[1].

ويرى أن النبي هدم الأصنام ليس لـسبب شرعـي وإنـما لـسبب مـادي ليقطع الطريق على التجار والمرابين،ويرى أن الصحابة كـانوا أميـل إلى تطبيـق الاشتراكية الماركسية، وأن عثمان وعلي وعمـر اتفقـوا عـلى أن يعيـدوا توزيـع الثروة على المسلمين، ويتهم الصحابة في نياتهم مركزاً عـلى عائـشة، ويـشير إلى انتقاص حق علي في الخلافة.

تأثر بعض الإسلاميين بالفكر العلماني:

إذا كانت العلمانية في بداياتها قد تذرعت بالعلم وآثـاره ومناهجـه فإنهـا من هذا الباب اتكأت على قضية (العقلانية) ـ وهـي طريقـة في التفكـير تعنـي الحركة الاستدلالية التي ينتقل بهـا الـذهن في مقدمـة إلى نتيجـة ـ: إن القـرآن الكريم يطالب الإنسان بالاحتكام إلى العقل حتى أن مادة عقل قـد ذكـرت في القرآن أكثر من خمسين مرة، ولعل العقلانية كانت هي الباب الذي استطاع أن ينفذ منه الفكر العلماني إلى عقول كثـير مـن رجـالات الـشريعة الثـائرين عـلى أوضاع بلادهم الفكرية والواقعية، وإلا كيف تستطيع العلمانية مـع مناقـضتها الواضحة للفكر الديني التسرب لعقول دعاة كبار أمثال محمد عبده.

ابتـدأ محمـد عبـده عملـه الإصـلاحي بمهاجمـة الأزهـر ونقـد الحيـاة الاجتماعية، ولا شك أن الأزهر كان بحاجة للإصلاح، لكن الإصلاح الـذي يريده الإنجليزي كان من نوع آخر غفـل عنـه الـشيخ، لقـد كـان مـن خطـط

(1) سليمان الخراشي، العصرانيون وظاهرة نقض أصول الشريعة.

الإنكليز للقضاء على الشريعة إنشاء مجلس شورى القوانين الذي كانوا يحكمون مصر من خلاله.

لم يكن محمد عبده علمانياً، ولكن أفكاره تمثل بلا شك حلقة وصل بين العلمانية الأوروبية والعالم الإسلامي، ولذلك باركها المخطط الصليبي اليهودي، وأما الجماهير الإسلامية فقد اتخذت أفكار الشيخ الإصلاحية مبرراً نفسياً لتقبلها للتغيير العلماني المتدرج في الدول العربية.

ويلاحظ من تفسيره أنه يميل مع ما يتناسب مع المعارف الغربية السائدة في عصره، فهو يفسر الطير الأبابيل بأنها جراثيم الجدري يحملها نوع من الذباب، ويقول عن منهجه في التفسير في كتابه الإسلام والنصرانية: (الأصل للإسلام النظر العقلي لتحصيل العلم، وهو وسيلة الإيمان... والأصل الثاني للإسلام تقديم العقل على النقل).

غير أنه وبعد الشيخ محمد عبده وجد من رجالات الأزهر من أضحى ينادي صراحة بالفكر العلماني وضرورة فصل الدين عن الحياة.

وأول النقاط التي أثير حولها الخلاف كانت مبادئ الإسلام في قضية الحكم وإدارة الدولة فقد خرج أزهري بفكرة غريبة مريبة كان لها الفضل في تخفيف الوطأة لما خلعه أتاتورك على مشاعر المسلمين، ذلك هو الشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

لقد جمع عبد الرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواجبات وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد، وسرد نبذاً من سير الطواغيت، وعمد إلى مغالطات عجيبة كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالمسيحية المحرفة علاقة روحية بين العبد وربه لا

صلة لها بواقع الحياة، ودلنا في كتابه على أحد مراجعه الأساسية وهو السير توماس أزيلد[1].

وقد كان لهذا الكتاب آثار بعيدة فقد ترجم إلى عدة لغات وأصبح مرجعاً معتمداً للدراسات الإسلامية في الغرب، وأما الكتب التي ألفت للرد عليه فقد حاصرتها الدوائر الاستعمارية وأهملتها وسائل الإعلام.

ومن بين من تأثر بفكرة فصل الحكم عن الإسلام الكاتب خالد محمد خالد في كتابه من هنا نبدأ، هادفاً إلى ما قصد علي عبد الرازق من قبل ولكن بأسلوب أذكى وأحدث، ولقد تولى الرد عليه الشيخ محمد الغزالي في كتابه من هنا نعلم.

وأما الشيخ محمود أبو رية أحد طلاب محمد عبده النجباء، فقد سخر من أهل الحديث والسنة في كتابه أضواء على السنة المحمدية، وزعم أنه بذل مجهوداً كبيراً في دراسة مصادر السنة الصحيحة، حتى انتهى إلى نتائج عجيبة خطيرة، وقال في كتابه: (لو أن الصحابة فعلوا في تدوين حديث رسول الله كما فعلوا في تدوين القرآن لجاءت هذه الأحاديث على غير ما هي عليه الآن، فتكون كلها متواترة، ليس فيها شيء اسمه الصحيح والضعيف).

وقد تولى الرد عليه محدث اليمن الشيخ محمد المعلمي اليماني، مبيناً أن شبهاته مخالفة لصحيح المنقول وصريح المعقول.

(ومن قبل كان الشيخ عبد المتعال الصعيدي يحاول هدم الحدود الإسلامية المستقرة في الكتاب والسنة زاعماً أن الأمر بها للندب لا للوجوب، وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم إلى آخر هذا اللغو المتهافت)[2].

---

(1) سفر الحوالي ـ العلمانية ـ ص 582.

(2) محمد الغزالي، من هنا نعلم، مصر 1373هـ ص 584.

ونادى المتحررون من علماء الأزهر أن الوسيلة المثلى للخروج من أزمة مصر هي تطوير الأزهر، أي أن يفقد رسالته في الاحتفاظ بوجوده.

وصدرت القوانين عام 1936م حتى سنة 1961م بشأن تطوير الأزهر، واستطاع دعاة اللادينية أن يُدخلوا تاء التأنيث على الجامع الأزهر، وبذلك تحول إلى مركز ثقافي عصري مدني؟!!"[1].

وسرت هذه اللوثة الفكرية في العالم الإسلامي، ففي لبنان جاء الشيخ عبدالله العلايلي مفتي جبل لبنان، وقدم كتاباً بعنوان أين الخطأ؟؟ يريد فيه تصحيح بعض الأخطاء من وجهة نظره!! مثل إباحة التعامل المصرفي، وإنه لا رجم في الإسلام ولا قطع ولا جلد إلا بعد معاودة الجريمة وتكرارها، ودعا إلى صهر المذاهب الفقهية في بوتقة واحدة وذلك بالتسليم بكل ما قالت المدارس الفقهية على اختلافها وتناكرها حتى الضعيف منها، بقطع النظر عن أدلتها...

ثم يقول: (والمرجح هو الظرف فقط ما دمنا قد سلمنا بأقوال الفقهاء جميعاً، وما هجرناه اليوم من قول في مسألة ما ثم اقتضاه الظرف بعد حين نعمد إلى ترجيحه والأخذ به)[2].

ومن العلماء المعاصرين الأزهريين الذين تأثروا بفكرة العلمانية د. خليل عبد الكريم، وهو ماركسي مصري نال شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر، وهو يدعو إلى اليسار الإسلامي ومعظم كتاباته حول التاريخ الإسلامي. ومن مؤلفاته:

---

(1) سفر الحوالي، العلمانية، ص 603.

(2) سليمان الخراشي، العصرانيون وظاهرة نقض أصول الشريعة، ص 23.

النص المؤسس ـ شدو الربابة في معرفة أحوال الصحابة ـ فترة التكوين في حياة الصادق الأمين ـ الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية ـ الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية.

وأهم أفكاره أنه يحاول أن يثبت أن القرآن نص تاريخي جدي وليس وحياً سماوياً، وإنما هو من اختراع محمد (ﷺ) فهو نص يخضع للمرحلة التاريخية التي أنتج فيها، ثم إن القرآن مع تاريخيته لم ينتج كنص كامل منذ الوهلة الأولى، وإنما تأثر بالظروف التي كانت تمر بمجتمع النبي (ﷺ) فهو نص جدلي تناله التغيرات بالزيادة والنقصان تبعاً للمواقف التي كان يواجهها النبي منتج القرآن؟!

ويقدم عبد الكريم أدلة على دعواه ببشرية مصدر القرآن متلخصة في أسباب النزول، فالقرآن ينزل حسب الطلب على حد تعبيره؟!

وقد قام بالرد على جميع كتبه د. إبراهيم عوض أستاذ النقد الأدبي بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس وذلك في كتابيه.

ـ اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله ورسوله وعلى الصحابة.

ـ لكن محمداً لا بواكي له.

ومن الإسلاميين المعاصرين الذين تأثروا بهذا الفكر ـ وللأسف ـ الدكتور الحقوقي حسن الترابي، زعيم الحركة الإسلامية في السودان، الذي يقول في كتابه تجديد الفكر الإسلامي: (من المعوقات أنه هناك من يقول أنه عندنا ما يكفينا من الكتاب والسنة، وهذا وهم شائع، إذ لابد أن ينهض علماء فقهاء، فنحن بحاجة إلى فقه جديد لهذا الواقع الجديد)[1].

(1) سليمان الخراشي، العصرانيون وظاهرة نقض أصول الشريعة، ص 20.

ونقل الأستاذ سرور زين العابدين في كتابه دراسات في السيرة أنه سأل الدكتور الترابي عن إنكاره الحديث المتواتر بوجوب رجم الزاني، فأجاب بأنه لا يناقش الحديث من حيث السند وإنما يراه يتعارض مع العقل، وأنه يقدم العقل على النقل عند التعارض. ويقول في محاضرة بعنوان قضايا أصولية فكرية: (لابد لنا أن نعيد النظر في الضوابط التي وضعها البخاري، فليس هناك داع لهذه الثقة المفرطة فيه. والمسلمون اليوم إعجابهم بالبخاري زائد وليس هناك ما يوجب ذلك!!).

ومن العلماء الذين تتبعوا أفكاره بالتمحيص والرد، الدكتور محمود الطحان في كتابه مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد المعاصر.

والأستاذ الأمين الحاج محمد أحمد في كتابه مناقشة هادئة لبعض أفكار الدكتور الترابي.

كلمة إلى دعاة العلمانية:

لاحظنا من خلال السرد التاريخي لتطور الفكر العلماني ودخوله المشرق الإسلامي أن العلمانية فكرة مستوردة، لا يشك في ذلك أعداؤها، ولا يماري فيه دعاتها. ومعنى ذلك أنها ليست من صميم الإسلام ولا من إنتاج المنتسبين له. فلذلك هي بضاعة نحن في غنى تام عنها، ومن الحماقة والغباء أن نستجلبها لمجتمعاتنا، لأنها وإن كانت مفيدة ومجدية للظرف الذي نشأت فيه إلا أنها ما دخلت ميداناً من ميادين الحياة إلا وأثمرت الشقاء المطبق والضياع المرير لأن أساسها قائم على إبعاد الإنسان عن فطرته وهي غريزة التدين التي أودعها الله فيه، ومن ثم تحويله لأداة مادية قائمة على الشهوات والنفعية، وقبل هذا يجب أن تفهم خصوصية الدين الإسلامي الذي يتفق كل الاتفاق مع

الطرح العلمي ولا يتعارض أو يتناقض معه، خلافاً للمسيحية التي كان جمودها ومحاربتها للعلم سبباً أساسياً لنشوء العلمانية وأن الشريعة الإسلامية سلمت من عبث العابثين وتحريف المبطلين.

وأما علمانيو العالم الإسلامي فإننا نقول لهم: إن كل حمل يتم خارج رحم الأمة هو حمل مشوه، وأن مسألة نقد الدين والتراث ليست من قبيل الثقافة العامة التي يتناولها الكتاب والمثقفون بالنقد كما يتناولون نقد القصيدة أو المقالة وإنما هي مسألة علمية تتعلق بدين الله وديانة أمة بأسرها ومن حق أي مسلم أن يرفض القبول بهذه العبارات المطلقة التي تشيع بين الكتاب والمفكرين، تحوطاً لدينه، وإن لهذه الأبحاث خطورة لا تقف عند حد الأوراق والخلل في البحث الأكاديمي وإنما تتعداه إلى التأثير في الواقع الحي المتجدد من حيث إيقاعها الخلل والاضطراب في نظرة الإنسان العربي المسلم لتاريخه الذي يمثل مستودع تجارب أسلافه ومعالم مقوماته الحضارية. وكلمة أخيرة نوجهها لعلماء الأمة وهي ضرورة قيامهم بواجب البيان في هذه المسألة لقطع الطريق على الأفكار القلقة المشوشة حتى لا تؤذي أجيالنا الجديدة لأن السبب المباشر في انتشار هذه الأفكار وشيوعها في أوساط المثقفين يرجع إلى انشغال أهل العلم عن معالجة هذه القضايا، اعتماداً منهم على أنها من المعلوم من الدين بالضرورة فلا يلزم إعادة النظر فيها.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: في ظلال المجتمع العلماني يتمزق الإنسان بناءً على تمزق مصيره، وتزدوج شخصيته اعتماداً على الثنائية التي اصطنعها بين المادة والروح والجدران التي أقامها بين الحس والوجدان والجفاء الذي باعد به زيفاً بين عالمي الحضور والغياب بين ما هو قريب مرئي وما هو

بعيد لا تراه العيون، فتغدو طاقات الكون والإنسان والحياة وما بينها جميعاً من وشائج وارتباطات ـ تغدو في حس العلماني وتصوره فوضى يسودها الانفصال والصداء والجفاء[1].

وفي الختام أقول: ها نحن أولاء بحمد الله نمشي بثبات يقيني، واستعلاء قطعي فوق أشلاء المنهج العلماني بطرفيه الملحد الكافر، والضال المنتسب أهله إلى الإسلام، وندوس بحجج الحق فوق ركام باطلهم الآفك، ونرتفع بإباء إيماني فوق كل الشبهات التي تفتق عنها ذهن أساتذة الفكر العلماني في الغرب والشرق.

والله الهادي إلى سواه السبيل

---

(1) عماد الدين خليل ـ تهافت العلمانية ـ بيروت ـ 1395هـ ـ ص 81 ـ 82.

الديكـارتـيــة

حياة ديكارت:

ولد رينيه ديكارت في 31 مارس من عام 1596م بمدينـة لاهـاي بـإقليم التورين بفرنسا على بعد نحو 300 كيلومتراً من الجنوب الغربي لبـاريس؛ وعـلى بعد 50 كيلومتراً من مدينة تور عاصمة التـورين، وأبـوه يـواقيم ديكـارت كـان مستشاراً بمحكمة بريتاني؛ الإقليم الواقع في الشمال الغربي من التورين (أمـا أمـه فهي جان بورشار، كانت بنت حـاكم مقاطعـة بواتييـه في جنـوب تـور، ينتمـي ديكـارت إذن إلى أسرة بورجوازيـة، إلى أسر نـبلاء الثـوب. وقـد ولـد ليـواقيم ديكارت من هذا الزواج صبي وبنت كل منهما أكبر من الفيلسوف، ثم ولد له ابن بعد ميلاد الأخير بأكثر من سنة؛ ولم يعش هذا الابن إلا أياماً بعد وفاة والدته.

فقد ديكارت والدته وهو لم يجاوز سنته الأولى بكثير كما فقـد بـسكال[1] أمه وهو في سن الثالثة، إلا أنه لم يكن لموت والدته الآثار نفسها التـي كانـت لوفاة والدة بسكال؛ لعدة أسباب نعرف منها واحداً على الأقل وهو أن والـد ديكارت جعل له مرضعة عنيت به أفضل العناية، وبقي ديكارت مخلـصاً لهـا طول حياته)[2].

يبدو حسب ما رأى الباحث أن ديكارت اهتم بالاحتفاظ بأخبـار وفـاة والدته بدليل أنه أشار إلى تلك الوفاة في خطاب كتبه للأميرة أليصابات وهو في سن الخمسين[3].

---

(1) بسكال أحد فلاسفة القرن السابع عشر ميلادي وهو صاحب نظريات عملية وكان معاصراً لديكارت.

(2) ديكارت/ نجيب بلدي/ ص 21.

(3) ينظر خطاب ديكارت إلى الأميرة أليصابات في مايو أو يونيه سنة 1645 ص 948.

ولكن لأمر ما أخطأ في ذكر تلك الأخبار وتفسيرها، فهو إذ يرشد الأميرة إلى علاج نفسي لمرض ألم بها، يذكر لها أنه اتبع العلاج نفسه في سعال لازمه حتى سن العشرين، وكان قد ورثه عن مرض رئوي ألم بوالدته أثناء حملها به وتوفيت منه بعد ذلك الميلاد بأيام.

وغريب أن يقارن ديكارت مرض الأميرة بمرض والدته، إلا أن تكون تلك المقارنة دليلاً على ما يكنه للأميرة من مودة عميقة.

ولكن الأغرب من ذلك أن يخطئ على النحو المذكور بصدد موت والدته الذي أعقب ميلاده، بأكثر من سنة والتي تلي مباشرة ميلاد ابن جديد لم يعش طويلاً، وربما أخفيت أمر هذا الميلاد على ديكارت كما أخفيت عليه تفاصيل ذلك الموت.

ثم بعد ذلك (يقص علينا ديكارت في السنين الأخيرة من حياته شيئاً من ذكريات طفولته: يحدثنا أحياناً عن الريف الذي كان يعيش فيه، وعن عادات المزراعين في ذلك الريف، وعن جمال القرى الفرنسية التي لا يعدلها في نظره شيء مما زاره في العالم، بل لا تعد لها تلك العزلة الهولندية التي اختارها لنفسه العشرين سنة الأخيرة من حياته)[1] هذا دليل صارخ على أن ديكارت لم ينس في يوم من الأيام أنه فرنسي، وأنه كان مخلصاً لوطنه.

ويقص ديكارت على صديقه شانو حادثاً من أحداث طفولته يؤيد به رأيه في أن العاطفة وليدة أحداث الماضي البعيد وعاداته: أحب بنتا من سنّه كانت حولاء، ثم أصبح بعد ذلك ميالاً إلى كل فتاة أو امرأة حولاء[2] أعود

(1) يراجع خطابه إلى براسيه في 23/ 4/ 1649م.

(2) ينظر خطابه إلى شانون في 6/ 8/ 1647م.

وأؤكد أن هذه الذكريات التي رأى ديكارت تسجيلها فيما كتب لأصدقائه إنما هي دليل على أن الرجل لم ينبذ ماضيه ولم يكرهه، وإن أخطأ في تفاصيله أو تفسيره.

دراسته:

وإذا انتقلنا من تلك القصص عن طفولته إلى سني مدرسته، وجدنا هنا أيضاً صعوبة كبرى في ذكر وقائع دقيقة خاصة؛ بحياة الفيلسوف، وهناك اختلاف حتى بصدد ميعاد تاريخ دخوله المدرسة حيث نجد أن مؤرخه بابيه يذكر أنه دخل مدرسة (لافيلس) للآباء اليسوعيين في إبريل 1604[1]، أي بعد أشهر قلائل من افتتاح تلك المدرسة، ولكن الدقة التاريخية تجعل أحدث مؤرخي ديكارت يسجلون دخوله المدرسة، في عام 1606م[2]، ومما يؤيد هذا أن خروجه من المدرسة كان في عام 1614م. على وجه التأكيد، ولم يكن من المعقول أن يبقى بها أكثر من ثماني سنوات، ولم نعرف أنه رسب أو توقف عن الدراسة زمناً ما.

وعن الدراسة وبرنامجها ومراحلها ومدى إفادة ديكارت منها؛ لدينا نص (المقال في المنهج)[3] يبدو فيه ديكارت صريحاً واضحاً كل الوضوح، غير أن هذا النص لم يكتب إلا في عام 1637م. ويبدو واضحاً في أسلوبه من أن مراحل تلك الثقافة كانت في نظر ديكارت نماذج لها قيمتها الدائمة، وإن لزم إحلال أخرى محل بعضها على الأقل. ويذكر لنا أنه درس القصص والتاريخ

---

(1) ديكارت/ أدريان بابيه/ ج 1 ـ ص 16 ـ 19.

(2) ديكارت/ الكييه/ باريس 1956/ ص 16.

(3) ص 93 ـ 97.

القديم دراسةً كافية[1] أمّا عن الشعر والخطابة فهو لا ينكر جمالها وروعتها وأثرهما في حياة النفس[2]، وكان تدريس اليسوعيين لتلك المواد في مدارسهم بفرنسا يفوق أي تدريس لها في العالم الأوروبي كله[3].

وإذا نظرنا إلى ديكارت في هذه المرحلة نظرة فاحصة نجده في نهاية المطاف يضع قاعدة أولى لفلسفته ويجعل منها منطلقاً حيث يقول (أن يخضع الفيلسوف لتشريع بلده وتقاليده وأن يبقى على الدين الذي أنعم الله عليه به)[4].

وطبيعي بعد كل ما ذُكر أن يكون ديكارت، أديباً، محافظاً، متبعاً لما يرى من قواعد، لكن في حرية، فلم يطالبه معلموه بأكثر من ذلك. هذا بوجه عام موقفه من ثقافتهم الأدبية ومبلغ تأثيرها فيه.

أما (نقده للثقافة العقلية في ناحيتها الرياضية والفلسفية، فقد كان كما هو معروف لاذعاً شديداً)[5].

أحلام ديكارت ومداها:

لما رآه الباحث من أهمية هذه الأحلام التي اعتصرت عقله؛ ومداها في حياة الفليسوف، رأى الباحث أن يوردها ومن ثمَّ يتكلم بإيجاز عن علاقتها بتلك المشروعات العلمية لديكارت. كان ديكارت في الحلم الأول يسير في الطريق، فأحس فجأة أثناء سيره بفزع وارتعاب شديدين أفقداه توازنه، فحاول مُسرعاً استرجاع هذا التوازن، وعندئذٍ فاجأته ريح عنيفة قلبت

(1) المقال في المنهج ص 95.
(2) المقال في المنهج ص 94.
(3) المقال في المنهج ص 94.
(4) المقال في المنهج/ 106 ـ 107.
(5) ديكارت/ نجيب بلدي/ ص 26.

جسمه رأساً على عقب، فجرى في شيء من التعثر إلى مدرسته ليصلي في كنيستها، ولكنه تذكر عند دخوله إليها أنه لمح أثناء جريه في الطريق رجلاً كان يعرفه، فخرج فوراً من الكنيسة ليلحق به ويحييه، ولكن ريحاً أقوى من السابقة دفعت بجسمه إلى جدار الكنيسة، وعندئذٍ جاءه رجل آخر وطلب منه في أدب ولطف أن يقابل صديقاً يريد إهداءه شيئاً ثميناً؛ فظن ديكارت أن الهدية لم تكن إلاّ شمامة مستوردة من الخارج. وكان ديكارت، طول الحلم متعجباً من احتفاظ جميع الناس بتوازنهم؛ إلا هو، وتيقظ في النهاية أن هذه ألعوبة من روح خبيث؛ وعندئذٍ دار في سريره ورقد على جانبه الأيمن ورفع إلى الله صلاة قصيرة، ثم نام ففوجئ مباشرة بحلم ثان أعنف من الأول وإن كان أقصر منه؛ سمع قصف الرعد، وخيل إليه أن عينيه مفتوحتان وأنه يرى غرفته تلمع كلها بأشعة نور قوي، وتيقظ بعد ذلك وفكر في هذه الرؤيا واطمأن إليها شيئاً ما.

ثم نام من جديد فحلم لثالث مرة حلماً ارتاح له ارتياحاً كاملاً: رأى على منضدته كتابين أحدهما اغتبط له أشد الاغتباط والآخر مجموعة من مختارات الأشعار تصفحها مباشرة؛ فأعجب ببيت فيها إعجاباً قرر بعده أن يتخذ البيت شعاراً لحياته في المستقبل وهو بيت لشاعر لاتيني اسمه أوزونيوس يتساءل فيه (أي طريق في الحياة أتبع)[1].

لا نستطيع، أو لا يسمح لنا المجال بتأويل عام لتلك الأحلام، وقد ذهب في ذلك المؤرخون مذاهب شتى[2].

---

(1) هذه الأحلام الثلاثة مختصرة من كتاب ديكارت/ باييه ج 1 ـ 81 ـ 86.

(2) حلم ديكارت/ جاك ماريتان/ ص 119.

ويكفينا تفسيراً لما سبق أن نعلم أن الحلمين الأولين يعبران عن قلق الفيلسوف وحيرته بين اتجاهات مختلفة، قد تتخذها حياته.

وقد سجل بابيه مؤرخ ديكارت أن الفيلسوف اكتشف في تلك الليلة (أسس العلم العجيب)[1].

ولكن في نهاية المطاف ثمة أمر يمكن تأكيده:ـ

أن مخطوطات ديكارت في ذلك الوقت تدل على أنه كان بين موقفين عقليين: موقف هندسي ميكانيكي اتخذه بعده بيكمان وأدى به بعد سنين إلى تعميم المبدأ الآلي وإلى اتخاذ تفسير رياضي كامل في الطبيعة؛ ثم موقف آخر غير واضح تماماً أشار فيه إلى وحدة الطبيعة وإلى الحب والانسجام اللذين يقربان أجزاء الطبيعة فيما بينها، وقد نبذ ديكارت هذا الموقف الأخير حتى إننا لا نجد له أثراً في مخطوطاته بعد ذلك أو في مؤلفاته"[2].

حياته العلمية:

تعتبر هذه الحقبة من أهم أحداث حياته في ذلك الوقت، وهي التي تمّت في خريف سنة 1627م. عند القاصد الرسولي بباريس، وحضره ديكارت حيث اجتمع كبار العلماء والمفكرين؛ واستمعوا إلى حديث رجل اسمه دي شاندو حيث تكلم عن أسس العلم الذي يجب في نظره أن يحل محل العلم المدرسي، (ولم يقنع الحاضرين بكلامه الذي جمع إلى الغموض ادعاءات غريبة؛ بعيدة عن العلم كل البعد، وهنا طلب الكردينال دي بيرول من ديكارت رأيه في الموضوع، فأجاب هذا في حذر عظيم بادئاً بتفنيد ادعاءات الرجل، ثم أشار

(1) ج 1 ص 81.

(2) مستفاد من كلام الكييه/ الاكتشاف الميتافيزيقي للإنسان عند ديكارت. ص 45 ـ 46.

في اقتضاب إلى مبادئ أخرى تكفل للعلم استقلاله وتقدمه وخصبه، وللدين جلاله وعظمته)[1].

الذي يتطلع على رد ديكارت مفصلاً[2] يجد أن ديكارت لم يصرح بأي اعترافات في هذا الموضوع، فالأغلب أنه لم يصرّح أثناء حديثه بأي نظرية ميتافيزيقية جديدة، إنما اكتفى بالكلام عن أمله في قيام علم طبيعي ميكانيكي عام، يستخدم الاستدلال الرياضي في جميع نواحيه[3].

ثم ننتقل إلى شطر آخر من حياة الفيلسوف العلمية حيث نجده ابتدأ حياته في هولندا في عام 1629م، في مدينة فرينكر وذلك بعد عدة تنقلات بين هولندا وفرنسا، حيث يسكن قصراً صغيراً بالقرب من أبواب المدينة حتى لا يكون بعيداً عن الريف، ثم انتسب إلى جامعتها حيث تابع فيها دروس علم الطبيعة وخاصة دروس علامة متخصص في المجاهر، ثم ترك فرينكر في نهاية هذا العام، واتجه إلى أمستردام حيث أقام بها إقامة شبه مستديمة إلى عام 1635م، مع تنقلات من منزل إلى آخر في المدينة، ورحلات تطول أو تقصر في بعض المدن الهولندية الأخرى، فنعرف مثلاً أنه انتسب في عام 1631م إلى جامعة ليدن، واتصل فيها بالرياضي والمستشرق جوليوس الذي عرض عليه بعض مسائل هندسية، لم يحلها المهندسيون القدماء، فاهتدى ديكارت أثناء حلها إلى اكتشاف مبادئ الهندسة التحليلية، وتعرّف ديكارت عن طريق جوليوس بقسطنطين هويجنز والد عالم الضوء الشهير كريستيان هويجنز، وكان

---

(1) ديكارت/ نجيب بلدي/ ص 37.

(2) رأيت عدم الإتيان به لطوله وكثرة تشعبه ولكن لخصته وأخذت المهم منه.

(3) يراجع بهذا الصدد/ حياة ديكارت/ بايبه/ ج 1، 160 ـ 166.

وربما لم يتكلم ديكارت بحريّة لأنه كان يخاف من الكنيسة.

الأب يشغل في ذلك الوقت منصباً هاماً في البلاط الهولندي كما كان علاوة على ذلك علامة في الطبيعة والرياضية مغرماً بالفن والأدب والموسيقى"[1].

مراحل التأليف عند ديكارت:

إذا نظرنا إلى تاريخ التأليف الديكارتي لاحظنا أولاً أنه ينقسم انقساماً طبيعياً إلى مراحل ثلاث أو أربع متباينة زمناً وموضوعاً؛ ولاحظنا ثانياً أن التمييز الزمني بين المراحل المذكورة مرتبط بأحداث هامة في حياة ديكارت الفكرية وغير الفكرية؛ ثم لاحظنا أمراً ثالثاً غاية في الأهمية وهو اختلاف في الأسلوب واختلاف في لغة التعبير؛ لاتينية كانت أو فرنسية.

لنلخص تأليف ديكارت في ضوء هذه الملاحظات الثلاث:ـ

هناك مرحلة افتتاحية أو تمهيدية لا يلزم اعتبارها مرحلة تأليف بالمعنى الضيق؛ لأن ديكارت لم يقصد أثناءها نشر أي كتاب، وهي تلك التي عاصرت أحلامه ومشروعاته الأولى في عامي 1618م و1619م.

وتلت تلك المرحلة الافتتاحية مراحل رئيسة:ـ

الأولى: وهي مرحلة المنهج والعلوم: لم تبدأ فعلاً إلا بعد اجتماعات ديكارت بالكردينال دربيرول في عام 1627م. وعزمه من ذلك الوقت على التقدم في مشروعاته العلمية من ناحية، وإنشاء فلسفة تتفق والدين وتؤسس العلم من ناحية أخرى، وأول مؤلفات هذه المرحلة كتاب (القواعد لتوجيه العقل) وهو كتاب ديكارت الرئيس في المنهج ألفه في عام 1628م ولم ينته منه ولم ينشره[2]، وآخر مؤلفات هذه الفترة (المقال عن المنهج) مع الكتب العلمية

---

(1) ينظر التأملات = ديكارت/ ترجمة كمال يوسف الحاج/ المقدمة، ص 20.

(2) انظر المؤلفات الكاملة لديكارت/ طبعة أدام وتانري.

الثلاثة (في انكسار الضوء) و(الآثار العلوية) و(الهندسة) كتبت كلها بالفرنسية ونشرت في عام 1637م وجميعها في المنهج والعلوم.

والمرحلة الثانية التي تلت مباشرة نشر (المقال عن المنهج) هي مرحلة التأليف الفلسفي البحت، تفرّع خلالها ديكارت لمعالجة الموضوعات الفلسفية المختلفة، وذلك أولاً في محاولته الرد على أسئلة قراء (المقال عن المنهج) وخاصة قراء الصفحات الفلسفية في المقال، وقد تقدم ديكارت في بحثه كلما تقدم به الزمن ومهما اشتدت عليه وطأة الأحداث وخصوصاً بعد مهاجمة الخصوم لنظرياته، وبعد وفاة أعز الناس لديه بنته أولاً ثم أبيه بعد ذلك بمدة قصيرة، (وقد عالج في هذه الفترة مسائل اليقين، والوجود في طبيعته وأصله ومصيره)[1].

وامتازت المرحلة الثالثة والأخيرة من تأليف ديكارت وهي مرحلة الفلسفة الأخلاقية برسائل ديكارت بين عام 1643 و1649م. إلى الأميرة أليصابات في مشكلة اتحاد النفس بالبدن، وفي مشكلة الانفعال وضبط النفس، ثم في الحيز الأسمى والسعادة، ونشر ديكارت في عام 1644م. كتاب (مبادئ الفلسفة) باللغة اللاتينية في أجزاء أربعة:

الأول في مبادئ المعرفة، والثاني في مبادئ الأشياء المادية، والثالث في العالم المنظور، والرابع في الأرض، وفي كل منهم عبّر عن آرائه الفلسفية والعلمية كما نجد ذلك في (التأملات) وننهي هذه الفقرة بكلام لأحد تلاميذ ديكارت حيث يقول (وجميع خطابات ديكارت باللغة الفرنسية ـ أي في آخر مراحل التأليف ـ وأسلوب هذه الخطابات رائع حقاً، صورة لتفكير ديكارت،

---

(1) المؤلفات الكاملة لديكارت/ ج 11 ـ 209.

وشخصيته وعلاقاته مع الغير، وسواء لما احتوته تلك الخطابات من نفحات إلهام أو نكات طريفة، فهي أصدق تعبير عن القوة التي رأيناها فيها طابع ديكارت الرئيسي)[1].

مؤلفاته:

معلوم أن ديكارت قد أثرى الحياة الفلسفية في ما يسمونه عصر أوروبا الحديث فقد ألف كتباً أهمها هي:

1 ـ قواعد لهداية العقل؛ وصدر في عام 1628م، وهي رسالة في المنطق الجديد المعارض لمنطق (أرسطو).

2 ـ الخواطر الخاصة؛ صدر في 1669م. Cogitation Private، وهي خواطر شخصية وتأملات خاصة بالفيلسوف؛ دونت في صورة مذكرات في كراسة باسم (الأفكار الخاصة)، كان ينشد من خلال سطورها؛ وضع أصول علم جديد وعجيب.

3 ـ ملخص الموسيقى Musica Compenduim، وهو مخطوط لم ير النور بعد، اهتم فيه بدراسة فن الموسيقى وصلته بالإنسان.

4 ـ الأولمبيات 1619م Olympica، وهي كراسة صغيرة على غرار المذكرات التي كتبها؛ وهذه المؤلفات كتبها في مطلع حياته العلمية[2].

5 ـ رسالة في العالم والضوء Lemond وهي الرسالة التي أهداها إلى العالم، وقد انتهى منها عام 1629م، وكان على وشك نشرها غير أنه امتنع عن ذلك خشية بطش الكنيسة، إذ كان قد أثبت فيها عن طريق البراهين العلمية

---

(1) خطابات في الأخلاق عند ديكارت/ جاك شفاليه/ طبعة سنة 1937م. ص 21

(2) ديكارت والفلسفة العقلية/ د. راوية عبد المنعم عباس/ ص 63.

دوران الأرض حول الشمس؛ وكانت هذه النقطة (وهي دوران الأرض حول الشمس محور البحث في جميع أجزاء الرسالة).

6 ـ بعد ذلك نشر ديكارت كتابه في الطبيعة؛ وبحث فيه انتقال الأشعة الضوئية في الأوساط المختلفة، وهي المعروفة بنظرية (انكسار الضوء) Deoptriques، ثم قام بكتابة مقالين أحدهما عن الظواهر الجوية (الآثار العلوية) Meteores حيث عرض فيه لنظريته عن موضوع (الشموس الخدّاعة) والآخر عن قوس قزح. أما المقال الثاني فكان يبحث في الهندسة Ceometrie ثم نشر المقالين مضيفاً إليهما افتتاحية بعنوان (مقال في المنهج) Discours de la methode (يبين فيه كيف يمكن للإنسان أن يستخدم عقله، بحثاً عن الحقيقة في العلوم مضيفاً إلى ذلك علوم الانكسار والظواهر الجوية والهندسية؛ التي تمثل محاولات لتطبيق هذا المنهج، وقد ظهر هذا الكتاب في عام 1937م، ومما يذكر عن المؤلف أن ديكارت قد استخدمه في محاولة لمعرفة اتجاه الرأي العام، فلاقى نجاحاً منقطع النظير ويرجع ذلك إلى سببين: أولهما: ظهوره بدون اسم مؤلفه، وثانيهما: كتابته بلغة فرنسية، وطرحه لموضوعات ومسائل يستحيل علاجها إلا من خلال كتابتها باللغة اللاتينية)[1].

7 ـ (التأملات في الفلسفة الأولى) Meditations Metaphysique وقد نشرها عام 1641م، وهي تمثل أروع ما كتب ديكارت في الميتافيزيقا وفي النفس الإنسانية؛ وفي الأدلة على وجود الله وكان الهدف من تأليفها هو التوسع في الفلسفة، التي أبرز معالمها الرئيسة، ولذلك فقد كتبها باللغة اللاتينية مهدياً

---

(1) المرجع السابق/ ص 65.

إياها إلى عمداء كلية اللاهوت المقدسة؛ وأساتذتها بباريس، ورأى الفيلسوف أن يعرضها على فلاسفة عصره، قبل أن يقوم بطبعها من أمثال (جاسندي) Gassendi و(أرنو) Arnould و(هوبز) Hobbes لإبداء آرائهم فيها، ثم يقوم هوبز بالرد على اعتراضاتهم في مخطوطته وهي الاعتراضات التي نشرها مع ردوده عليها، لذلك فقد ظهرت التأملات متضمنة لبراهين وجود الله وخلود النفس الإنسانية في عام 1641م.

وقد ظهرت في باريس في عام 1947م. ترجمتان للكتاب، أحدهما الترجمة الفرنسية التي قام بها الدوق لونيس Luynes والأخرى هي ترجمة (كلير سلييه) Clerselie، صديق الفيلسوف للاعتراضات والردود؛ وقام الفيلسوف بمراجعتها وذلك في عام 1647م.

ويحتوي التأملات على ستة تأملات يعرض في الأول منها: للبحث عن الأشياء التي يمكن أن توضع موضع الشك، أما الثاني فيبحث فيه عن طبيعة النفس الإنسانية مبرهناً على أن معرفتها أيسر من معرفة الجسد؛ وفي التأمل الرابع يعرض الفيلسوف لمشكلة وجود الله وصفاته، وفي الخامس: يتأمل في جوهر الأشياء المادية، وفي التمايز الحقيقي بين النفس والجسد الإنساني، ويذكر ديكارت في رسالة إلى الأب مرسين P. Mersenne، أن التأملات تتضمن الأسس التي يقوم عليها علم الطبيعة، ولكنه طلب منه ألا يصرح بمثل هذا الرأي حتى لا يثار في وجهه الصعوبات من قبل المدرسين.

فلسفة ديكارت:

لابد لي كباحث قبل أن أغوص غمار فلسفة ديكارت أن نعرفها قبل كل شيء، («إن كلمة الفلسفة تعني دراسة الحكمة ولسنا نقصد بالحكمة مجرد الفطنة

في الأعمال؛ بل معرفة كاملة بكل ما في وسع الإنسان معرفته. بالإضافة إلى تـدبير حياته وصيانة صحته واستشكاف الفنون» «ولكي تكون هذه المعرفة كما وصفنا؛ فمن الضروري أن تكون مستنبطة من العلل الأولى وهذه الفلسفة»«قسمها الأولي الميتافيزيقيا وهي تشمل على مبادئ المعرفة التي منها تفسير أهم صفات الله وروحانية نفوسنا وجميع المعاني الواضحة المتميزة الموجودة فينا، والقسم الثاني من الفلسفة العلم الطبيعي وفيه بعد أن نكون وجدنا المبادئ الحقة للماديات؛ نفحص عن تركيب العالم على العموم ثم على الخصوص عن طبيعة هذه الأرض؛ وجميع الأجسام وبالأخص عن طبيعة الإنسان»)[1].

من المعلوم لدى أي باحث أن دراسة الفلسفة الديكارتية تبدأ من الشك إلى اليقين، ومن النفس إلى الله، وعلى هذا نجد كلاماً واضحاً جلياً عن فلسفة ديكارت ونظرته العامة للأشياء للشيخ كامل عويضة؛ وقد لخصته وعقبت عليه في بعض الأمور.

أول هذه الأشياء التي اعتنى بها ديكارت في فلسفته:

1 ـ **وجود النفس**: بعد أن شك ديكارت في كل شيء، وجد حقيقة لا تقبل الشك، حقيقة يدركها بالحدس، وهي أنه في شكه مدرك لوجوده، ووجوده متضمن في فكره، لذلك قال ديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود)، ولكن هذا الوجود الذي أدركه ديكارت ليس وجود الجسم، وإنما هو وجود النفس المفكرة، فقوله (أنا أفكر) معناه أنه موجود يتعقل ويشك، ويثبت وينفي، ويريد ويحس ويتخيل، فكل هذه الظواهر النفسية تفيد وجود النفس[2].

---

(1) تاريخ الفلسفة الحديثة/ يوسف كرم/ ص 62 و63.

(2) ينظر ديكارت رائد الفلسفة في العصر الحديث/ كامل عويضة/ ص 59 ـ 60.

وقد اتخذ ديكارت هذه الحقيقة أساساً أقام عليه فلسفته بأسرها، وقال ديكارت: إن كل قضية تبلغ من الوضوح والتحديد ما بلغته قضية (أنا أفكر، أنا موجود) لا يجوز أن نشك في صدقها ويقينها.

2 ـ **وجود الله:** لم يحاول ديكارت أن يبرهن على وجود الله عن طريق العالم بل زعم أن معرفة الله هي التي توصلنا إلى إدراك العالم الطبيعي، فهو لم يحاول أن يستخدم الأرض للصعود إلى السماء، بل استخدم السماء للنزول إلى الأرض وهو لم يستشهد بالكون على وجود خالقه، بل استشهد بالخالق على وجود المخلوق.

براهين ديكارت على وجود الله:

البرهان الأول: قال ديكارت: إني كائن ناقص، ذلك لأني أشك، والشك مظهر من مظاهر النقص، وما كان لي أن أعرف أني ناقص، إلا إذا كانت لدي فكرة عن الكمال المطلق، ولا يعقل أن تكون فكرتي عن الكمال المطلق قد تكونت في عقلي نتيجة تكبير لأنواع الكمالات الناقصة، لأن الكمال الناقص مهما اتسع فهو محدود، وإذن فهذه الفكرة لم يضعها في نفسي إلا موجود كامل لا متناهي؛ هذا الموجود اللامتناهي هو الله.

البرهان الثاني: وإذا كنت موجوداً ناقصاً، وفي ذهني فكرة عن الموجود الكامل فما هي علة وجودي إذن؟

لا أستطيع أن أتصور أنني خلقت نفسي بنفسي، وإلا لوهبتها كل صنوف الكمال، وبرأتها من كل نقص، ولم يخلقني كذلك إله ناقص، وإلا لكان الأجدر به أن يمنح نفسه الكمال، وإذن فخالقي كامل وهو علة وجودي.

البرهان الثالث: إذا كان الله هو الكائن الكامل، وكان الوجود كمالاً فالله إذن موجود، فديكارت يرى أن ماهية أو فكرة الكائن الكامل يستلزم بالضرورة الوجود الخارجي[1].

الذي يراه الباحث أن البرهنة على وجود الله عند ديكارت غاية ووسيلة في آن واحد؛ غايةً لأن العقيدة الصحيحة لا تتحقق بدونها، ووسيلة لأنه ليس ثمة يقين إلا ما بني على وجود الله.

ـ صفات الله: الله هو المبدأ الأول، وهو الموجود بذاته، وليس لذاته علة إلا ماهيته؛ والله هو الكائن اللامتناهي؛ الواحد؛ الأزلي؛ الأبدي؛ مبدع الأشياء وخالقها، وأهم صفة عند الله في نظر ديكارت الصدق، ومن ثم يمتنع على الله أن يكذب؛ أو يضلل؛ وليس مصدر الخطأ الذي يقع فيه العقل؛ إلا أنه يفكر في ميادين يعوزها الوضوح والجلاء ولو فكر العقل في ميدان واضح لانتهى إلى الحقيقة ووصل إلى اليقين.

ـ وجود العالم: وجود الله هو الذي يضمن لنا وجود العالم الخارجي، وهذه الأشياء الخارجية لم تصل إلينا إلا عن طريق الحواس، والله هو الذي منحنا هذه الحواس، والله صادق لا يخدع؛ وإذن فالعالم الخارجي موجود حقيقة.

ـ العالم بين أرسطو وديكارت: هذه الأشياء المادية جميعاً، مهما اختلفت عناصرها، وتعددت أشكالها تتصف بصفة واحدة مشتركة بينها هي الامتداد، فهي جميعاً، تشغل حيزاً من المكان، وديكارت في هذا يخالف أرسطو، الذي يرى أن كل جسم طبيعي يتألف من صورة تحدد طبيعته وخصائصه، وهيولى تقبل وتحمل هذه الصورة وتكون محلاً لكل تغيّر.

---

(1) ينظر التأملات/ ديكارت/ التأمل الثالث.

أما ديكارت فيرى أن كل جسم طبيعي أياً كانت صفاته وشكله وحجمه يشغل حيزاً من المكان، وإذن فطبيعته الامتداد؛ والامتداد هو الفكرة الواضحة الجلية التي يستطيع العقل أن يدركها من المادة. وعلى العكس المادة ـ العقل ـ وأهم صفاته الفكر، وهو لا يشغل حيزاً في المكان ولا يتصف بالامتداد، وإنما هو فكر محض، فالمعقول والنفوس والله، كل هذه أفكار.

ـ الإنسان: ليس الإنسان جسماً فحسب، ولكنه جسم ونفس؛ جسم أهم صفاته الامتداد، ونفس أهم صفاتها الفكر، هذان عنصران متناقضان فكيف أمكن أن يجتمعا معاً في الإنسان؟ القوة المفكرة (العقل) لا تتدخل في عمل الجسم، والجسم لا يستطيع أن يتدخل في الإدراك الذهني، فكيف أمكن أن يرتبط الواحد بالآخر؟

لا يستطيع ديكارت وقد شطر الوجود إلى شطرين لا تجد الوحدة إليهما سبيلاً لا يستطيع هذا الثنائي المتطرف أن يوجد حلاً لهذه المشكلة إلا أن يرجع إلى الله.

فالله هو الذي جعل النفس تتحد بالبدن، وهو الذي أوجد هذا النظام ليحيا الإنسان، ولذلك فالنفس تؤثر في البدن بواسطة الإرادة، والبدن يؤثر في النفس بواسطة الإحساس، وسبيل هذا التأثير الغدة الصنوبرية التي توجد في مؤخر المخ، والتي تتلقى الإرادة وتبلغها إلى أجزاء الجسم، ولكن كيف تربط هذه الغدة الصنوبرية بين النفس والبدن، هذان الطرفان المتناقضان كيف يتحدان؟ هذه هي المشكلة التي لم يستطع ديكارت أن يوجد لها حلاً، ذلك لأن ديكارت وقد فرق بين النفس والجسم، وشطر الكون إلى قسمين: فكر وامتداد، عجز عن أن يربط بينهما، ولذلك جاء تلميذه اسبينوزا وجمع هذين

العنصرين المتناقضين في حقبة واحدة ذات مظهرين: فالامتداد فكرة مرئي، والفكر امتداد خفي"[1].

نستطيع أن نحلل الكلام الآنف ونناقشه:

1 ـ اتخذ ديكارت الوضوح أساس اليقين، مع أن الوضوح أمر نسبي يختلف من إنسان إلى إنسان.

2 ـ كانت قسمته ثنائية ولم يستطع أن يربط بين المادة والفكر، بين الجسم والنفس إلا بالرجوع إلى الله، فحكمة الله هي التي شاءت أن تربط بين النفس والجسم.

3 ـ يلاحظ أن ديكارت بدأ من نقطة هي نفسها التي انتهى إليها، وهذا دور برأي، وذلك لأن ديكارت أثبت وجوداً مستنداً إلى الأفكار الواضحة؛ ثم أكد بعد ذلك أن هذه الأفكار الواضحة صادقة لأن الله قد ضمن صدقها، وهذا هو الضمان الإلهي.

4 ـ استطاع في آخر المطاف ـ والحمدلله ـ أن يعيد اليقين إلى النفوس، بعد أن زعزعها شك الشكاك في مبدأ العصر الحديث.

ضرورة المنهج عند ديكارت:

هناك أمور هامة تجلي لنا ضرورة المنهج ومدى أهميته عند ديكارت:

1 ـ تميّز القرن السابع عشر ميلادي بميزة هامة: وهي عناية المفكرين فيه؛ بمسألة المنهج الواجب اتباعه في البحوث العقلية، والواقع أن الكتب على المنهج في ذلك العصر كثيرة، وخصوصاً ابتداءً من سنة 1620م ففي ذلك التاريخ ظهر كتاب (الإرغانون الجديد) لفرنسيس بيكون؛ وبعد ذلك بنحو

---

(1) التأملات/ التأمل الرابع/ الترجمة العربية.

سبع عشرة سنة نشر ديكارت (المقال في المنهج) وفي ذلك العصر أيضاً نشر سبينوزا رسالته في إصلاح الذهن، كما أصدر تشرنهاوس كتاب (طب العقل)، ونشر فلاسفة (يورويال) منطقهم المشهور المسمى (فن التفكير) ونشر (مالبرانش) كتاب (البحث عن الحقيقة) وكتب ليبنتز مصنفاً من عدة رسائل نجد في عنوان بعضها لفظ المنهج، فالعناية بالمنهج إذن ميزة من ميزات القرن السابع عشر[1]، والذي يجده الباحث أن جل مفكري ذلك العصر؛ كانوا مؤمنين بفائدة المنهج، وأثره في العلوم وفي الحياة، ولقد بيّن لنا هاملان سبب ذلك؛ إذ قال (إن أهل ذلك العصر كانوا قد ألقوا عن كواهلهم عبء الخضوع للسلطات في الفلسفة، بل أحياناً في الفكر على العموم، وفي المعتقد أيّاً كان ـ كما هو الحال عند سبينوزا ـ فكان لا بد لهم من شيء يطمئنون إليه، والمنهج هو الكفيل الذي لا غناء لفكرهم عنه، لذلك اهتموا قبل كل شيء بتحصيل منهج يهتدون به)[2].

2 ـ وكذلك رأى ديكارت أن البحث في المنهج هو أهم المشكلات وأولاها بالعناية في مهمة الفيلسوف، وأراد أن يجعل بداية إصلاحه الفكري؛ الظفر بطريقة قويمة للحصول على المعرفة الحقيقية؛ بواسطة ذلك النور الفطري المبثوث فينا جميعاً وهو نور العقل.

لم يرض ديكارت عن منهج (المدرسيين) الذي كان لم يزل قائماً في عصره، وكان قد تلقنه أيام طلبه العلم في مدرسة (لافليش)، وكان ذلك المنهج المدرسي؛ عبارة عن محاولة حل المشاكل الفلسفية أو العلمية؛ بذكر طائفة من

---

(1) ملخص من كتاب ديكارت/ عثمان أمين/ ص 105 ـ 106.

(2) مذهب ديكارت/ هاملان/ ط 2/ ص 33، الترجمة العربية.

أقوال المؤلفين السابقين، سواءً كانوا معروفين أو غير معروفين، بدلاً من الإقدام على معالجة المشاكل نفسها، ولا شك أن مثل ذلك المنهج كان يتطلب اطلاعاً كثيراً، وقسطاً كبيراً من الحذق والمهارة للملاءمة بين الآراء المتباينة والمصادر المشتتة، ولكن مثل ذلك المنهج أيضاً ليس من شأنه أن يستحث الناس على حرية الفكر والاستدلال في البحث.

ولاحظ الفيلسوف بادئ الأمر ما كان سائداً في زمانه من اختلاف في النظر وفوضى في الآراء في الفلسفة، أو في العلوم حتى قال (لا نكاد نجد شيئاً هو من البداهة واليقين؛ بحيث لا يدع مجالاً للمناقشة والجدال)[1]. هذا الأمر هو الذي جعل ديكارت يضع منهجاً واضحاً ـ برأيه ـ يستنير به على طريق فلسفته ثم يعرج ويبرهن على أن أكثر فوضى الفلاسفة واضطراب العلماء مصدره أنهم جميعاً يسيرون في مباحثهم على غير هدى، ويتخبطون فيها خبط العميان، وكان أكبر اعتمادهم في بلوغ مراميهم على مواتاة الصدف والحظوظ، دون أن يكون لهم في ذلك خطة مرسومة أو منهجاً معيناً، ولذلك يقول ديكارت (الناس مسوقون برغبة في الاستطلاع عمياء، حتى أنهم يوجهون أذهانهم غالب الأمر في طرق مجهولة، لا تحقيقاً لأمل صائب، بل لكي يجربوا إذا كان ما يبحثون عنه شيئاً حقاً؛ مثلهم في ذلك مثل رجل استولت عليه رغبة جنونية في أن يكتشف كنزاً ما: فتراه لذلك يقضي وقته منقباً في كل مكان، ليرى لعل أحد السائحين أو العابرين قد ترك كنزاً)[2] إذن هنا أراد ديكارت أن يبين لزوم الشعور بضرورة المنهج.

---

(1) المقال في المنهج/ ديكارت/ ص 19.

(2) القواعد لهداية العقل/ ديكارت/ القاعدة الرابعة.

مما سبق يتبين لزوم المنهج بالفعل، ومن ثمّ تطبيقه على النظر والعمل، عن شعور ووعي ورؤية، ولذلك يقول ديكارت (أنا أعنى بالمنهج؛ قواعد بسيطة إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة؛ كان في مأمن من أن يحسب صواباً ما هو خطأ، واستطاع دون أن يستنفذ قواه في جهود ضائعة، بل بالعكس مع ازدياد علمه زيادة مطردة؛ أن يصل بذهنه إلى اليقين جميع ما يستطيع معرفته)[1].

3 ـ أراد ديكارت أن ينبهنا أن قصد الفيلسوف ليس هو تعلم الرياضة لذاتها، أو لايجاد خصائص (أعداد عقيمة وأشكال وهمية)، بل لتعويد الذهن على مناهج وطرائق، يصح بل ينبغي أن تتسع وتمتد إلى أشياء أكبر أهمية، وأكثر قيمة، فالرياضيات عند ديكارت هي ثمرة المنهج، وليست هي المنهج نفسه والناس جميعاً يعلمون أن المعرفة التي تقنع الفكر وتشفي غليله؛ إنما هي المعرفة الرياضية ذلك هو (المنهج الشامل) وهو ممكن التحقيق، ولذلك يقول ديكارت (ليست العلوم جميعاً إلاّ العقل البشري الذي يبقى هو هو بعينه، مهما تتنوع الموضوعات التي يبحثها، دون أن يغير ذلك الاختلاف من طبيعته؛ أكثر مما يغيّر اختلاف الأشياء من طبيعة الشمس؛ التي تلقى على الأشياء نورها)[2].

الشك المنهجي عند ديكارت:

من خلال دراستي المتفحصة لمنهج الشك عند الإمام الغزالي الموجود في كتابه المنقذ من الضلال[3] ومنهج الشك عند ديكارت، وجدت أنه ليس هناك

---

(1) المصدر السابق/ ص 371 ـ 372.

(2) قواعد هداية العقل/ ديكارت/ القاعدة الأولى.

(3) ص 75 وما بعدها، تحقيق د. عبد الحليم محمود.

كثير اختلاف بينهما لا في الوسائل ولا في التفكير، ولكن نجد أن النتائج قد بعدت بعضها عن بعض حيث نجد أن ديكارت قد اشتط جداً عن المنهج الصحيح؛ والحقيقي؛ ولذلك سأعرض فيما بعد الشك المنهجي بين الغزالي وديكارت والمعتزلة.

أما الآن فنريد أن نعرض مفهوم الشك عند ديكارت:ـ

استبعد ديكارت شهادة الحواس: لأنها تخدعنا أحياناً ومن الفطنة أن لا نأمن أمناً تاماً لمن خدعنا مرة ثم أقرّ ـ كالغزالي رحمه الله ـ بأننا نعتقد في النوم أموراً ونتخيل أحوالاً ونحسب لها ثباتاً واستقراراً ثم نستيقظ فنعلم أن ما رأيناه أثناء النوم كان حلماً، وإذن فما المانع من أن تكون تصوراتنا في اليقظة كتصوراتنا في النوم كلها خيالات لا حاصل لها؟ وإذن فقد اتضح له أنه ليس هناك إمارات يقينية يمكن أن نميز بها اليقظة من النوم بوضوح وجلاء"[1].

ثم استبعد أيضاً شهادة العقل نفسه: لأن بعض الناس قد يخطئون في الاستدلال ولو في أبسط القضايا الهندسية، وزاد على ما تقدم فافترض فرضاً لم يسبق إليه فقال ما معناه: ربما كان هناك (شيطان ماكر) مخادع يعبث بعقلي، فيريني الباطل حقاً والحق باطلاً، ويجعلني بحيث أخطئ على الرغم مما قد يكون لدي من يقين نفسي"[2].

2 ـ يدعي ديكارت أن شيئاً واحداً يلبث قائماً وفيه منجاة من الشك وهو الفكر، أنا أفكر، وأنا واثق أنني أفكر، وحتى لو شككت في أنني أفكر، فمثل هذا الشك يقتضي أن أفكر أيضاً، وبعبارة أخرى (إذا صممت على أن أشك في

---

(1) ينظر التأملات/ ديكارت/ التأمل الأول.

(2) ينظر التأملات/ ديكارت/ التأمل الأول.

كل شيء، فأخليت ذهني من كل معتقد؛ وتوقفت عن كل حكم بقي أمامي مع ذلك أمر مؤكد: وهو أنني مهما أشك ومهما أفكر، فلست بمستطيع أن أنكر حين أشك وإنني في لحظة تفكير، بل في لحظة خطئي في تفكيري، لابد أن أكون موجوداً، أنا أفكر وإذن فأنا موجود)[1].

مقارنة بين شك ديكارت والغزالي والمعتزلة:

لابد لي كباحث أن أستخلص النتيجة وأن أبين مدى تأثير الشك المنهجي في فلسفة ديكارت، وهل هناك من أثر في فلسفته، وأهم شيء هو ما الذي وصل به ديكارت من خلال شكه المنهجي، مما سبق يتضح لنا أنه لابد أن نعقد مطلباً للمقارنة بين ديكارت وغيره؛ حتى يتبين لنا إلى ماذا وصل ديكارت، وكما يقولون (وبالضد تتضح الأشياء)، حيث يقول أحد من قارن بين ديكارت وغيره (اتفق الغزالي مع المعتزلة في ضرورة الشك؛ بمعنى نبذ التقليد والاتباع، وضرورة البحث العقلي لإقرار العقيدة الصحيحة، كما اتفق معهم أيضاً في أن اليقين هو اتباع طريق التصوف، بينما اشترط المعتزلة الاحتكام إلى العقل لبلوغ اليقين، أما ديكارت فقد بدأ بداية شبيهة ببداية الغزالي، حتى شك في شهادة الحواس والعقل، فأعلن عجزنا عن التمييز بين اليقظة والحلم[2]، لكنه انتهى من شكه نهاية معتزلية؛ أي نهاية عقلانية وليست صوفية، وفي ذلك اختلاف ديكارت عن الغزالي، وهو أمر لم يحدث للمعتزلة أو للغزالي؛ وحين وصل ديكارت إلى اليقين صاغ قواعد المنهج المؤدي في رأيه إلى اليقين في شتى العلوم؛ ولا نجد شبيهاً لذلك عند الإسلاميين).

---

(1) التأملات/ ديكارت/ بداية التأمل الثاني.

(2) هذا تماماً ما نراه عند الإمام الغزالي؛ وهو موجود في المنقذ من الضلال بتحقيق د. عبد الحليم محمود ص 106 وما بعدها، وكأن ديكارت أخذ هذه الفكرة من الإمام الغزالي والله أعلم.

مما سبق يظهر لنا جلياً أن الإمام الغزالي وصل إلى نتيجة غير التي وصل إليها ديكارت، حيث وصل الإمام الغزالي إلى أن العقل عاجز تماماً على أن يصل إلى اليقين بذاته؛ وإن الحدس هو أساس اعتماد الإمام الغزالي، حيث عبر عنها فيما سبق بـ (نهاية صوفية)، أما ديكارت فكانت نهايته عقلية بحتة، واعتمد على العقل اعتماداً كاملاً، واستنتج قاعدته المشهورة التي هي برأيه أساس اليقين ألا وهي (أنا أفكر، إذن أنا موجود). هذه تقريباً مقارنة بسيطة بين الإمام الغزالي وديكارت ولم نتطرق إلى المعتزلة لأنها ليست محل بحثنا.

دراسة نقدية لبعض جوانب فلسفة ديكارت:

يحسن بنا في بداية هذا الكلام أن نتعرض لبيان موقف ديكارت، من الدور في حد ذاته، قبل أن يُتهم بالوقوع فيه؛ من قبل غيره من الفلاسفة، ولأجل هذا الأمر سنرجع إلى نصوصه لننظر؛ وعساها أن تخبرنا بما نريد ولنا منها نص في مقالة الطريقة ينفي فيه أن يكون (وقع في الخطأ الذي يسميه المناطقة دوراً)، وهو يتحدث عن الحجج التي تتعاقب (تعاقباً يبرهن فيه على الأواخر بالأوائل التي هي عللها، وعلى الأوائل بالأواخر التي هي معلولاتها؛ لأن التجربة ما دامت تجعل هذه المعلولات يقينية جداً؛ فإن العلل التي استنتجت منها هذه المعلولات؛ لا تصلح لإثبات وجودها بقدر ما تصلح لتفسيرها، بل الأمر على عكس ذلك، أي أن العلل تثبتها المعلولات)[1].

ولنا أيضاً نص آخر في التأملات يقول فيه: (إننا لا نستطيع أن نعرض على الكافرين أنه ينبغي أن نعتقد بوجود الله؛ لأن هذا هو ما جاءت به الكتب السماوية المقدسة، وأنه ينبغي من جهة أخرى أن نؤمن بالكتب المقدسة لأنها

(1) مقالة الطريقة/ ديكارت/ ص 218.

جاءت من عند الله؛ لأنهم قد يرون أن الاستدلال على هـذا النحـو؛ وقـوع في الغلط الذي يسميه المناطقة دوراً)[1].

فهذان النصان يبينان لنا أن ديكارت لا يعتبر الدور برهاناً، وأنه ينفي أن يكون قد وقع فيه، ويريد أن لا يتهم بالوقوع فيه.

وهنا نبحث فنجد أن كاتباً معاصراً قد بيّن وجهة نظر ديكـارت بالنـسبة للدور وقال ما نصه (إنها فلسفة أقامها صاحبها بعناية كبيرة ليناصر الدين ضد الملاحدة بالحجج الدامغة، ويؤسس العلم عـلى أصـول ثابتـة ضـد الفلاسـفة المدرسين؛ ولكن ذلك لم يفده شيئاً، وإنما جعل منه هدفاً لهؤلاء وأولئك؛ لأنهم كانوا يرون فيها بين أيـديهم مـن علـم وفلـسفة الحقيقـة التـي لا جـدال فيهـا، فمعارضوه كثيرون وأصحاب مشارب مختلفة، ولقد عارضوه في كل جزء مـن أجزاء فلسفته وفي عدة من قضاياها بحماسة كبيرة؛ تكشف لنا عـما أثارتـه مـن اهتمام بين علماء عصره، ومن جملة مـا عارضـوه بـه الوقـوع في الـدور، وهـي معارضة خطيرة تهدم فلسفته من أصلها إذا ثبت فيها ما تدعيه)[2].

يعالج د. عثمان أمين هذه المشكلة فيرسم صورتها، ويذكر الاعتراضـات على ديكارت فيما يتعلق بها، وأجوبته عنها، ويبين الإشكالات التي تلـزم هـذه الأجوبة ويحاول رفعها أو الحد منها، ثم يخلص إلى إبداء رأيه فيها فيقـول: (إن الوضوح والتميز مع أنهما آية اليقين، محتاجـان إلى سـند مـن الـصدق الإلهـي، والحقائق الرياضية نفسها ليس في وضوحها وتميّزها ضمان (كافٍ) ولن يكـون لها قيمة إلاّ إذا كان الله صادقاً غير مخادع، وظاهر أن في تلك العملية ضرباً مـن

(1) التأملات/ ديكارت/ ترجمة عثمان أمين/ ص 40.

(2) مشكلة الدور الديكارتي/ الربيع ميمون/ ص 85 ـ 86.

الدور، ولكن كل معرفة حقيقية لا تخلو من بعض الوجوه من دور، ويشبه أن يكون الدور موجوداً في الطبيعة؛ وفي الأشياء نفسها، ألسنا نرى أن العصفور قبل أن يجرب جناحيه يقذف بنفسه خارج العش؟ وكل كائن حي يقوم بشيء من المصادرة على المطلوب؛ حين يستخدم أعضاء جسمه بلا تردد، وإن كان يجهل بعد إذا كانت تلك الأعضاء قد جعلت لبقائه أو هلاكه..

ثم يسترسل في الكلام ويقول: فالمعرفة الواضحة المتميزة يقينية ولكنها لا تستغني عن ضمان الله الصادق الثابت؛ لأن الإله الماكر الذي فرضه ديكارت يسطو على الحقائق كلها، ويمكنه أن يوقعنا في الخطأ كلّما قمنا بعمل فكري، ولذلك فلا بد لنا من نقض فرضه لنطمئن إلى معرفتنا ويكون ذلك بإثبات وجود الله الصادق؛ ولكننا إذا أثبتناه وقعنا في ضرب من الدور، وهو على كل حال لا ينقص من قيمة التفكير الديكارتي، لأن المبالغة في الاحتراس هي التي توقعنا فيه)[1].

إن عثمان أمين فيما أرى يظهر لنا متردداً نوعاً ما؛ في هذه المسألة، فهو يثبت ضرباً من الدور وقع فيه ديكارت عندما طلب ضمان الصدق الإلهي للحقيقة حتى يخلصها من براثن الإله الماكر المفروض، ولكنه لا يقف عند هذا الحد لأنه يجعل الدور من بعد ذلك شيئاً لا تخلو كل معرفة منه من بعض الوجوه!!

علاقة ديكارت بالغزالي:

لا زالت مستمرة الدراسات التي تعقد للمقارنة بين الغزالي وديكارت، منذ كتب زكي مبارك يقارن بينهما حتى اليوم، إلاّ أن الدراسة الأساسية التي كتبها محمود حمدي زقزوق «المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت» ــ وهي

(1) ديكارت/ عثمان أمين/ ص 193 وما بعدها.

موضوع رسالته للدكتوراه بالألمانية[1] ـ هي أوفى ما كتب في هذا المجال ويهدف زقزوق من كتابه كما يخبرنا إلى:

1 ـ بيان مدى تطابق أفكار كل من الغزالي وديكارت فيما يتعلق بالشك المنهجي وفي النتائج التي خرج بها كل منهما.

2 ـ الدعوة إلى إعادة النظر في الحكم على الغزالي الذي قيل عنه أنه هدم للفلسفة في الشرق، بينما أحيا ديكارت الفلسفة في أوروبا في العصر الحديث، ويرى أن الغزالي لو كان قد فهم جيداً لكان له تأثير إيجابي في مسار الفكر الإسلامي يوازي تأثير ديكارت في الفلسفة الحديثة[2].

ولتدعيم رأيه يشير إلى الأستاذ المؤرخ التونسي عثمان الكعاك، الذي اكتشف في مكتبة ديكارت ترجمة كتاب «المنقذ من الضلال»، وقد وضع خطاً تحت عبارة «الشك أول مراتب اليقين» وكتب على الهامش «يضاف إلى منهجنا»، ويضيف أن هذا ما أكده الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده[3]. ويشير أيضاً إلى كتاب سلفادور غومت نوجالس «الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب أثناء العصور الوسطى»؛ الذي ترجمه الأستاذ عثمان الكعاك[4] والذي يوضح فيه صاحبه تأثيرها الميتافيزيقا الإسلامية في أوروبا، ويبين أن كتاب المنقذ من الضلال للغزالي؛ قد ترجم منذ عهد مبكر إلى اللاتينية وأن عبارة الغزالي (الشك أول مراتب اليقين) صارت عند ديكارت وهو

(1) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت/ د. محمود حمدي زقزوق/ النسخة العربية. وهي من ترجمة الدكتور محمود زقزوق نفسه.

(2) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت/ د. زقزوق/ ص 5.

(3) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت/ د. زقزوق/ ص 7.

(4) الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب أثناء العصور الوسطى/ سلفادور غومث نوفالسي ترجمة عثمان الكعاك.

يقصد من وراء الكشف عن تأثر ديكارت بالغزالي، أن يكون دافعاً لنا إلى نهضة فلسفية جديدة[1]، وهو يرى أن ما بين الغزالي وديكارت من وجه شبه لا يقتصر فقط على منهج الشك، بل يتعداه إلى نطاق أوسع وأعمق، وهو أهمية هذا الشك المنهجي في تأسيس فلسفتهما وهو موضوع لم يلتفت إليه أحد من الباحثين حتى الآن، وقد كتب د. زقزوق عدة أبحاث في هذا المجال[2].

ويبين محمد شريف في «الفكر الإسلامي منابعه وآثاره» تأثير الغزالي على ديكارت ـ بل يتجاوز ذلك التأثير كل الفلسفة الحديثة ـ ويرى أنه يمكن تقدير فلسفة الغزالي وأفكاره إذا لاحظنا حقيقة مهمة هي أن الغزالي وضع كل الملامح الرئيسة للفلسفة الغربية مبتدئة من ديكارت إلى برجسون، ويستشهد بآراء هنري لويس الذي تحدث في كتابه (تاريخ الفلسفة عن إحياء علوم الدين) «للغزالي فأبرز إلى مدى ما اعتمد عليه الفلاسفة الغربيون على آراء الغزالي في دراساتهم، قال: إن هذا المؤلف يحمل العناصر العلمية؛ وطريقة البحث التي ظهرت فيما بعد في كتاب ديكارت المقال في المنهج»[3] ويوضح لنا أن الالتقاء بين أفكار ديكارت؛ وأفكار الغزالي لم يجيء عفواً، وإنما نتيجة طبيعية لتعرف الأول على أفكار الثاني خلال الترجمات المتعددة[4] وإنهما يتفقان في بعض الخطوات الفكرية عن الشك[5]، وأن الشك عند كليهما لم يكن للهدم؛ وإنما كان وسيلة للمعرفة والوصول إلى الحقائق...

---

(1) المنهج الفلسفي/ د. زقزوق/ ص 8.

(2) الشك المنهجي عند الغزالي وديكارت/ د. زقزوق/ ص 205 ـ 250.

(3) الفكر الإسلامي منابعه وآثاره/ ترجمة أحمد شلبي/ ص 121.

(4) المصدر السابق/ ص 122.

(5) المصدر السابق/ ص 124.

وإن ديكارت وتلميذه اسبينوزا يتبعان رأي الغزالي، فيما يتعلق بـصفات الله وصلتها بالذات"[1].

ويقارن زكي نجيب محمود؛ الغزالي بديكارت وبيكون، لقد عاش الغزالي في القرن الحادي عشر الميلادي؛ وجاء بعده بأكثر من خمسة قرون إمامان في أئمة المنهج العلمي؛ هما ديكارت في فرنسا، وبيكون في إنجلترا، ومع ذلك فيكاد لا يكون في منهجهما نقطة واحدة لم يوردها الغزالي شرطاً من شروط النظرة العلمية، ويقارن في صفحات طويلة الغزالي بديكارت في المعقول واللامعقول[2] كما في قوله: «اقرأ للغزالي العبارات الآتية وقارنها بما تعرفه عن أصول المنهج عند ديكارت وبيكون»[3].... ولتعد إلى المنهج الديكارتي المعروف في هيكله وتفصيلاته واقرأ للغزالي عن هذه الخطوات نفسها، الشك في المعلومات التي سبق لنا أن حصلناها عن طريق العقل"[4]، لنعد إلى تشكك الغزالي وديكارت.... وهكذا رسم لنا الغزالي طريقاً للشك المنهجي لا نرى بعده شيئاً ننسبه إلى ديكارت"[5].

ونجد مثل تلك الإشارات في كتاب محمد إبراهيم الفيومي[6]، وفي الدراسة التي خصصها محمد مبارك لـ «منهجية الشك بين الغزالي وديكارت»[7] إلا أن الموقف المتميز الذي ينبغي أن نشير إليه والذي ينتقل بنا من التأثير بين الغزالي

(1) المرجع السابق/ ص 125.

(2) المعقول واللامعقول/ د. زكي محمود/ ص 320 ـ 330.

(3) المرجع السابق/ ص 320.

(4) المرجع السابق/ ص 322.

(5) المرجع نفسه/ ص 324.

(6) الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل/ د. محمد إبراهيم الفيومي/ ص 112 ـ 113.

(7) دراسات في الفكر العربي الإسلامي الوسيط/ محمد مبارك/ ص 55 ـ 64.

وديكارت إلى التشابه بينهما؛ هو الذي يقدم محمد عزيز الحبابي في (ورقات عن فلسفات إسلامية)، يقول موضحاً في القسم الثالث من كتابه (إلى أي مدى أثر الغزالي في الفكر الأوروبي)، لقد وقع شيء بين الغزالي وبعض المفكرين (ديكارت وبسكال) يصعب تسميته (تأثيراً) لكنه تشابه مدهش[1]، فالتشابه جلي بين الغزالي وديكارت بالذات في قضايا منهجية، على الخصوص الشك للوصول إلى الحقيقة، وقواعد المنهج وبتخصيص فقرة هامة عن ديكارت والغزالي[2]؛ حيث يبين نقاط الالتقاء بين النسقين الديكارتي والغزالي، وأن المقارنة بين الغزالي وديكارت التي تتكرر كثيراً والتي تستحق أن ينظر إليها نظرة متمعنة هي قضية الشك.....

إن التشابه (التأثير) بين الغزالية والديكارتية جلي لا مراء فيه؛ من حيث منهج الشك؛ الذي يقرب بين النسقين ويجعلهما يهدفان معاً إلى تحقيق غاية تقربهما بقدر ما تبتعد عنهما[3]؛ وإن نقاط الاتفاق بينهما أكثر من نقاط الاختلاف.

من المنهج إلى ضد المنهج:

يقرر ديكارت أن ثمة مبادئ أربعة يجب مراعاتها في كل منهج يبحث عن الحقيقة، وتكفي هذه المبادئ إذا ما تم اتباعها بدقة للوصول إلى اليقين، وأول مبدأ يحدده ديكارت بقوله «الأول ـ ألا أقبل شيئاً ما على أنه حق، ما لم أعرف يقيناً أنه كذلك، بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك»[4].

---

(1) ورقات عن فلسفات إسلامية/ محمد عزيز الحبابي/ ص 107.

(2) المرجع السابق/ ص 109 ـ 130.

(3) المرجع السابق/ ص 114.

(4) مقال عن المنهج/ ديكارت ص 75. ترجمة د. محمود محمد الخضيري.

ومع هذا، فإن ديكارت سرعان ما يأتي بقاعدة تتناقض مع هـذا المبـدأ، عندما يعود إلى وجهة نظر القـديس تومـا الأكـويني[1]، ويـصرح بـأن حقـائق الإيمان المسيحي يجب أن تكون أول ما نصدق به، دون البحث عن بداهتها ولا عن وضوحها وتميّزها، بل ويجعـل هـذه القاعـدة فـوق كـل مبادئـه المنهجيـة الشهيرة؛ فيذهب إلى وجوب أن نتخذ لنا قاعدة معصومة؛ وهي أن مـا أوحـى الله به؛ هو أوثق بكثير ممّا عداه[2]، ولا يـسأل ديكـارت نفـسه: مـا هـي طبيعـة الأدلة على أن هذه العقائد تعبّر عن وحي إلهي؟ ولا يستدعي أي مقيـاس مـن مقاييس النقد التاريخي التي من وظيفتها فحص المنقول عن السلف لبيان مدى مصداقيته التاريخية، وهذا ما نراه عند علماء الحديث النبوي؛ وخـصوصاً عنـد علماء الجرح والتعديل، وهنا نرى أحد الكتّاب يقـول: (إن ديكـارت إذ يـضع أصول الممارسة العقلانية في المبدأ الأول من مبـادئ منهجـه، فـإن سرعـان مـا يضع أصول الممارسة اللاعقلانية؛ عندما يضع فوق هذا المبدأ وغيره من المبادئ قاعدة عصمة الوحي المسيحي، ولقـد أدى هـذا إلى منافـاة منهجـه العقـلاني؛ الذي نادى فيه بطرح الأفكار الصادرة عن السلطات؛ أيّاً كانت وجعل معيـار البداهة معيار الحق والحقيقة)[3].

من خلال ما سبق يظهر لنا جلياً، أنه يقبل سلطة الإيمان المسيحي؛ ويـؤمن بعقائد المسيحية على أنها حقائق لا ريب فيها مع أنها فوق العقل؛ يقول ديكارت:

---

(1) D.E. Cooper, World Philosophies pp. 174 - 5.

وقد قام بترجمة نصوصه صديق لي يوجد عنده هذا الكتاب.

(2) ذكر ديكارت هذا المعنى في أكثر من نص قطعي الدلالة وذلك في كتابـه (مبـادئ الفلـسفة)، ينظـر: الترجمة العربية، ص 70، وص 107.

(3) أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط/ د. محمد عثمان الخشت/ ص 32.

«يجب علينا أن نؤمن بكل ما أنزله الله، وإن يكن فوق متناول مداركنا» ويفسر هذا بقوله: «إذا أنعم الله علينا بما كشفه لنا أو لغيرنا من أشياء تجاوز طاقة عقولنا في مستواها العادي، كأسرار التجسد والتثليث، لم يستعص علينا الإيمان بها مع أننا قد لا نفهمها فهماً واضحاً؛ ذلك لأنه لا ينبغي أن يقع لدينا موقع الغرابة أن يكون في طبيعة الله وفي أعماله أشياء كثيرة تجاوز متناول أذهاننا»[1].

الآن نريد أن نفسر كلامه ونفهم ما الذي أراده؛ فنجده ادعى في منهجه أنه لن يقبل شيئاً على أنه حق إلا إذا كان واضحاً ومتميزاً، يدعو لتكريس اللامعقولية والغموض بحجة أنه ليس من الغريب أن يكون في طبيعة الله وفي أعماله أشياء كثيرة تجاوز متناول أذهاننا؛ ولم يسأل نفسه ولو للحظة ـ وهو الفيلسوف العقلاني ـ ما طبيعة الدليل على أن تلك العقائد تعبر فعلاً عن حقيقة الله؟ وما الدليل على صدق الوحي في التعبير عن الإرادة الإلهية؟ والغريب أن ديكارت لا يجعل الفكر مقياساً لعقائد التنزيل المسيحي، بل يجعل تلك العقائد مقياساً يقيس به مدى صحة الفكر أو خطئه، يقول ديكارت «إننا ينبغي أن نفضل الأحكام الإلهية على استدلالاتنا، ولكن فيما عدا الأشياء المنزلة ينبغي أن لا نعتقد شيئاً لم ندركه إدراكاً واضحاً جداً»[2].

ويزيد على هذا الأمر فيقول: «ينبغي قبل كل شيء أن نستمسك بقاعدة تعصمنا من الزلل، وهي أن ما أنزله الله هو اليقين الذي لا يعدله شيء آخر، فإذا بدا أن وضمة من وضمات العقل تشير إلينا بشيء يخالف ذلك وجب أن يخضع حكمنا لما يجيء من عند الله»[3].

---

(1) مبادئ الفلسفة/ ديكارت/ ص 70.

(2) المصدر السابق/ ص 107.

(3) المصدر السابق/ ص 108.

الخلاصة التي ننتهي إليها أن الحقيقة الدينية عند ديكارت فوق الحقيقة العقلية، وهذه الأخيرة لا قيمة لها إلا في الحقائق التي لم يتحدث عنها الوحي، بل أن الحقيقة العقلية عنده ستفقد نصيبها من الحق إذا ما تعارضت مع الحقيقة الدينية.

استنتاجات:

الحمدلله التي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الكائنات محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار.

فقد أرسى بنا البحث على شاطئ الخاتمة، بعد رحلة جالت أغلب أفكار ديكارت، ونستنتج الآن عصارة البحث:ـ

1 ـ أن ديكارت كان توجهه دينياً، ولم يخرج عن ذلك أبداً أبداً، مع ادعائه وإعلانه العقلانية مراراً وتكراراً، فإذا تعرض لموروث مسيحي فإنه يسارع بالقول بأن هذا الأمر لا دخل للعقل فيه؛ وغالباً ما كان هذا الأمر يخالف بداهة العقل السليم.

2 ـ تأثره الواضح بغيره كالإمام الغزالي، حيث أخذ نظرياته، واستفاد منها وحاول أن يطورها وقد نجح في ذلك، هذا الأمر بالذات لم يفعله أحد من المسلمين، بل تركت آراء الإمام الغزالي بدون أي تطور إلى أن جاء ديكارت وطورها وجعلها أصلاً لنهضة أوروبا الحديثة.

3 ـ السبب الذي أنجح ديكارت هو عدم معاداته لأحد؛ وعمله الدؤوب للوصول إلى هدفه؛ وهذا برأيي أهم سبب لنجاح فلسفة ديكارت.

والحمد لله رب العالمين

الوجودية

الوجودية مذهب ومنهج جديد للدراسة حول وجود الإنسان دون تحليل مادتيه المجردة والوجودية القديمة عند جبريل مارسيل وبسكال وموريس بلونديل، كلهم يؤمنون بموضوعية المعرفة ويفسرون الإنسان طبقاً للمبادئ الفعلية.

أما الوجودية الجديدة فقد نشأت احتجاجاً على الإسراف في العقلية كما نشاهد عند هيجل الذي يرد الموجود إلى الماهية المجردة، وتنكر أن يكون الوجود عين الماهية، وتنفر من المذهب والمذهبية وتقتصر على وصف الظواهر النفسية[1] ومن الوجوديين البارزين سرون كيركجارد الدانمركي (1813 ـ 1855) كان شديد التدين سوداوياً مرهف الحس.

وأشهر الوجوديين وأكثرهم إنتاجاً وضجيجاً جان بول سارتر الذي يعرف الوجودية بأنها مذهب إنساني وهو مادي ملحد.

ومتى كان الوجود سابقاً على الماهية لم يبق في الإنسان شيء يعين سلوكه ويحد حريته بل يكون حراً كل الحرية يعمل ما يشاء ولا يتقيد بأي شيء.

ويقول د. عبد الرحمن بدوي: (هي أصدق تعبير في حالة القلق العام الذي تملك العالم الشعور المادي به بعد الحرب العالمية الأولى والثانية)[2].

---

(1) تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ص 456.

(2) دراسات الفلسفة الوجودية د. عبد الرحمن بدوي ص 19.

المبادئ الأساسية التي تقوم عليها الوجودية:

القلق، الألم، الحزن، العدم قال جان بول سارتر (إن الوجود ليعلن صراحة أن الإنسان يحيى في قلق ويكابد القلق)[1] ويضاف أثر القلق اليأس والسقوط.

والحرية هي المبدأ المادي للوجوديين وعليهم ممارستها بكل أبعادها وهذا ما يؤدي إلى الفوضوية، والتحلل، والضياع، والجريمة والمخدرات والانتحار وإنكارهم لوجود الله يجعل عندهم كل شيء مباحاً.

---

(1) الوجودية مذهب إنساني ص 23.

البراغماتية

الحياة العقلية والتجربة ليس الغرض منها العلم بل المنفعة، وتعمل الصيغ العقلية لحفظ وجوده واستكماله، فالعقل عند البراغماتيين غائي في جوهره يتجه إلى العمل لا إلى النظر وظهرت هذه الفلسفة في إنكلترا وأمريكا.

وأكبر الفلاسفة الذين أكدوا على هذه الفلسفة النفعية (البراجماتية) وليم جيمس وسماه الفلسفة العملية وذلك في كتابه (مبادئ علم النفس).

واعتبر أن أهم قانون في علم النفس هو قانون المنفعة لأن أفعالنا التلقائية مرتبة بالطبع لخيرنا، وقلب وليم جيمس علم النفس رأساً على عقب.

وأما البراجماتزم فمذهب يضع العمل مبدأ مطلقاً فالمذهب العملي أوسع نطاقاً من المذهب الواقعي ويتوصل إلى التجربة الدينية لأننا نشكل عوناً إلهياً لمعاناتنا لتغيير مصير الإنسان، والحياة الباطنة فيها حدس أصيل لها آثار نافعة والإله الذي نقبل منه المدد والعزاء ليس إلهاً مفارقاً ولا إلهاً متحداً بالعلم لأن الإله المفارق الكامل الثابت لا يدخل في علاقة مع الإنسان، وإذا بدت الأحادية مقاربة بين الله والإنسان فليس الأمر كذلك في الحقيقة، إذ أنها تميز بين الله بما هو لا متناه والله بما هو صانع الطبيعة؛ أي بين الوحدة الميتافيزيقية للوجود وكثرة الموجودات المتناهية. ويؤكد على النزعة الصوفية ما يراه جون ديوي وهو هيجلي يرى أن قلق الفكر الحديث ناشئ من التعارض بين المثل الأعلى والواقع، أو بين الروح والطبيعة، وأراد أن يحقق الوحدة الروحية. له كتاب (العقل الخالق) (طلب اليقين) وهو يعتبر المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة وهو داعية قوي التأثير إلى الإيمان بفاعلية الفكر وبالروح الديمقراطية وهو ماض مع العقلية الأمريكية المتجهة إلى العمل والحرية.

وجون ديوي هو الزعيم الروحي للبراجماتية أو (الذرائعية) وتأخذ الكثير من مبادئ الميكيافيلية (الغاية تبرر الوسيلة) وجون ديوي كان له أكبر الأثر في التعليم وخاصة في كتابه (الديمقراطية والتعليم).

النشأة والتطور:

لبثت الفلسفة دهراً طويلاً تسبح في سماء الفكر المجرد، لا تصغي بآذانها إلى الحياة العملية التي تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً، ولا تحفل بالواقع الذي تراه الأبصار إلا قليلاً. فقد قصرت جهودها على جوهر الأشياء في ذاتها، وتنوعت نظرياتها وكان مصير الكثير منها الفشل.

حتى جاء زمن صعود نجم الولايات المتحدة، التي بدأت تفرض نظامها ونظرتها في جميع مرافق الحياة على العالم أجمع، بما فيها الفلسفة التي لم تنج من تأثيرها. والفلسفة بصبغتها الأمريكية تمقت البحث النظري المجدب العقيم، وتريد أن تنحو بالفكر منحاً جديداً لا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره؛ بل نتيجته وعقباه.

فكانت الفلسفة البراغماتية، وهي أكبر تجسيد للنظرة الأمريكية للفكر والمعرفة، فهي فلسفة أمريكية بامتياز.

ولا شك أن دراسة هذا المذهب مهمة للغاية، لا سيما إذا علمنا أنه المحرك الأول للسياسة الأمريكية في عصرنا هذا، مع العلم أن نشأته الأولى كانت على أرضها.

والبراغماتية: اسم مشتق من اللفظ اليوناني (Pragma) ومعناه العمل، وهي مذهب فلسفي يحاول تطبيق الأساليب العلمية على الفلسفة، وتتركز فكرتها الأساسية على أن أي معنى أو حقيقة لأي فكرة ما تتحدد بتأثيرات

الفكرة في الممارسة والسلوك، كما أن حقيقة كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية.

وتقرر أن العقل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجع. فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحققها التجربة، وكل ما يتحقق بالفعل فهو حق، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية[1].

ومعنى ذلك كله أنه لا يوجد في العقل معرفة أولية تستنبط من خلالها نتائج صحيحة بصرف النظر عن جانبها التطبيقي؛ بل الأمر كله رهن بنتائج التجربة العملية التي تقطع مظان الاشتباه، وإذا كانت الحقائق العلمية تتغير بتغير العصور، فالصادق في الحاضر قد يصبح غير صادق في المستقبل، ونتيجة ذلك واضحة جداً وهي أن صدق القضايا يتغير بتغير العلم، وأن الأمور بنتائجها، وأن الحق نسبي أي: منسوب إلى زمان معين ومكان معين ومرحلة معينة من مراحل العلم. فليس المهم أن يقودنا العقل إلى معرفة الأشياء؛ وإنما المهم أن يقودنا إلى التأثير الناجح فيها.

ومن فروع البراغماتية: مذهب «الأداة»، وهو الذي يرى أن النظرية أداة أو آلة للتأثير في التجربة وتبديلها، والمعرفة النظرية وسيلة للسيطرة على المواقف الشاذة، أو وسيلة لزيادة قيمة التجارب السابقة من حيث دلالتها المباشرة، كما تسمى أيضاً: «الذرائعية» لأنها تتخذ من الأفكار ذريعة للحياة على نحو أفضل[2].

---

(1) انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا (1/ 203 ـ 204).

(2) انظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين (10/ 620).

التأثر والبيئة:

تعد الولايات المتحدة الأمريكية موطن البراغماتية الأم، حيث ظهرت هناك كما تبين، ولقيت انتشاراً لم تصادفه فلسفة من قبل، وقد تبلورت الخطوط العريضة لهذه الفلسفة في سبعينيات القرن التاسع عشر، في مؤلفات عالم المنطق الأمريكي تشارلز بيرس، ثم تطورت على يد وليم جيمس، ويعتبر جون ديوي الزعيم الروحي للبراغماتية المعاصرة في أمريكا.

والأمريكيون مغرمون بالعلم والتفكير والبحث وراء القضايا والنظريات العلمية، ولهم في كل مجال رأي ونظر، ويتميزون عن غيرهم بغرامهم للتطبيق، وافتتانهم بالنتائج الواقعية للأشياء. ونجدهم يسارعون إلى تطبيق أي نظرية علمية تُكتشف؛ بغية معرفة صدقها، وماهية الآثار الناتجة عنها وفائدتها في الحياة الراهنة، فإذا لم يكن لها نتائج في الحياة والبيئة التي يعيش فيها الأمريكي، فهي مجرد نظرية تضاف إلى سابقاتها وتركن جانباً.

ويتميز الشعب الأمريكي بحب المجازفة والاستهتار بالمخاطر، وليس ذلك عن شجاعة؛ بل لمجرد الرغبة في مشاهدة النتائج العملية التي تترتب على هذه المخاطرة، كما أنهم يحبون الاستمتاع بالحياة، ويشكل النجاح المادي لهم غاية في ذاتها لأنه نوع من تطبيق النظريات والآراء على البيئة التي يعيشون فيها، والإنسان معني قبل كل شيء بحياته الراهنة، يذود عنها الأضرار ويجلب لها المنافع؛ أما الذي لا ينفع الناس، ولا يكون له أثر في حياتهم، فوجوده وعدمه سيان في رأيهم[1].

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 192.

وهكـذا تـأثرت الفلـسفة الأمريكيـة بملامـح الحيـاة الأمريكيـة هـذه، ودخلت في تكوينها.

ومع أن الفلسفة الأمريكية اتخذت مسارها التاريخي مـن خـلال متابعـة الفلاسفة الأمريكيين للـتراث الفلـسفي العـالمي؛ إلا أن تطورهـا تميـز بميـزة أساسية هي: أنه شمل كل جوانب الحياة (السياسة والاقتصاد والثقافة والدين والأخلاق...)»[1].

وقد تأثرت أيضاً تأثراً بالغاً بتطور العلوم عامة، وعلم الأحياء والـنفس خاصة، لا سيما أبحاث عالم الأحياء الإنكليزي تشارلز داروين[2] ونظريتـه في النشوء والارتقاء، وهي النظرية المعروفة بـ «نظرية التطور»، وتقوم على القول بأن أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مـشترك، وبـدأت مـن خلايـا بسيطة تكونت عن طريق المصادفة عبر عمليات كيميائية مركبة، ثـم تطـورت إلى كائنات كبيرة معقدة.

واستنتجت النظرية ما يعرف بقانون الصراع بين الكائنـات، أو التنـازع من أجل البقاء، الذي نتج عنه تعبير «البقـاء للأصـلح» أي أن الأفـراد التـي تتمتع بصفات تميزها عن غيرها، ستكون لهـا الفرصـة الأفـضل للبقـاء، بعـد صراعها مع بقية الكائنات الأضعف منها، حيث يبقـى القـوي وهـو الـصالح ويهلك الضعيف[3].

---

(1) انظر: تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، بيتر كاز، ص 373.

(2) تشارلز روبرت داروين (1809 ـ 1882م): باحث وعالم بريطاني عكف على دراسة علوم الطبيعة، واقترن اسمه بنظرية «النشوء والارتقاء» التي بينها في كتابه الأشـهر: «أصـل الأنـواع» عـام 1859. (انظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 10/ 219).

(3) انظر: المرجع السابق (25/ 250).

كما أن البراغماتية تستمد الكثير من مبادئها من مقولة ماكيافيللي[1] الشهيرة: «الغاية تبرر الوسيلة».

والحديث عن البراغماتية لابد أن يسبقه تعريف برجالها الذين صاغوا نظريتها، وجعلوا منها المنهج الذي تتولاه أكبر قوة في العالم. وهذا ما سنحاول عرضه تالياً.

فلاسفة البراغماتية:

أولاً: تشارلز بيرس[2]:

فيلسوف أمريكي ولد في ولاية ماساشوسيتس في الولايات المتحدة، وشجعه والده الذي كان عالم رياضيات على دراسة العلوم والفلسفة، وقد تخرج من جامعة هارفارد عام 1859 وله إسهامات فكرية تأثرت بنظرية النشوء والتطور، ودور المصادفة في نشأة الكون، والعقل البشري وحقيقة الوجود الإلهي.

ويعد من الرواد الذين طوروا المنطق الرياضي، كما ساعد في تطوير دراسات الرموز وهي التي تعنى بالدلالات الرمزية للعلامات، إضافة إلى الكلمات، وقام بعرض أفكاره الأساسية لمذهبه الذرائعي (البراغماتي) في مقال بعنوان: «كيف نجعل أفكارنا واضحة»، والذي شكل نقطة البداية التي تلقفها من بعده من الفلاسفة، وصاغوا منها فلسفة البراغماتية المختلفة عما سبق.

---

(1) نيقولا ماكيافيللي (1469 ـ 1527م): رجل دولة وكاتب إيطالي، وأحد المفكرين السياسيين في عصر النهضة، فسر السياسة على نحو مختلف عما سبق، ودعا إلى استخدام كل الوسائل الضرورية في الحكم للحفاظ على الدولة بما فيها الوسائل القذرة، أوضح أفكاره في كتابه الشهير: «الأمير»، ومنه اشتق مصطلح «الماكيافيللية» الذي يعني المكر والتجرد من المبادئ الأخلاقية. (انظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 24/ 47).

(2) انظر: المرجع السابق (5/ 390).

ومع ذلك لم يلق بيرس الاهتمام أثناء حياته لأنه لم يعن بتدوين فلسفته، وقام لفيف من الفلاسفة بعد وفاته عام 1914 بسنوات، بإصدار أعماله في ثمانية مجلدات تحت عنوان: «مجموعة أوراق تشارلز ساندرز بيرس».

ثانياً: وليم جيمس[1]:

ولد وليم جيمس في نيويورك عام 1841، وتلقى العلم والفلسفة في المدارس الأمريكية، ثم سافر إلى فرنسا لمتابعة دراسته، وهنالك اطلع على بعض المصنفات في علم النفس، فاتخذ لنفسه هذا الاتجاه، ثم عاد بعد أن أكمل دراسته إلى وطنه أمريكا، ولم يلبث أن صعد إلى ذروة الشهرة، فذاع اسمه ذيوعاً لم يعهد لأمريكي من قبله. وقد نال إجازة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1870، وعمل بالتدريس في تلك الجامعة من عام 1872 حتى وافته المنية عام 1910. فحاضر أول ما حضر في الجامعة في التشريح وعلم وظائف الأعضاء، ثم في علم النفس، وأخيراً حاضر في الفلسفة.

ومن أشهر آثاره: «مبادئ علم النفس» عام 1890، و«إرادة الاعتقاد» عام 1897، و«الفلسفة العملية» عام 1907، و«معنى الحقيقة» 1909، و«مقالات في التجريبية المتطرفة» 1912.

ثالثاً: جون ديوي[2]:

ولد جون ديوي عام 1859 في برلينجتون فيرمونت، وتلقى دراسته هناك. ودرس الفلسفة في جامعة مينيسوتا بين عامي 1888 و1889، وانتقل بعدها إلى أكثر من جامعة، ثم ترأس قسم الفلسفة في جامعة كولومبيا. ويمتاز

---

(1) انظر: الموسوعة العربية، مجموعة مؤلفين (7/ 856).

(2) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 625.

ديوي بأنه جال في أنحاء أمريكا كلها، ودرس إمكانياتها وقواها وحدودها، واطلع على ثقافتها المتنوعة. لذلك يعد ديوي واضع فلسفة القارة الأمريكية كلها لا فلسفة ولاية بعينها.

استلفت ديوي أنظار العالم لأول مرة أثناء تدريسه في جامعة شيكاغو، حيث كشف عن أفكاره في السنوات التي قضاها هناك. ويعد كتابه «الديمقراطية والتعليم» من أعظم كتبه حيث جمع فيه خطوط فلسفته، وركزها حول مهمة النهوض بالتعليم لتخريج جيل أفضل، وتأثرت بنفوذه معظم المدارس والجامعات الأمريكية. كما أبدى نشاطاً فائقاً وجهوداً كبيرة في تجديد المدارس في أنحاء مختلفة من العالم، وأمضى سنتين في الصين يحاضر فيها حول إصلاح التعليم، وقدم تقريراً إلى الحكومة التركية حول تجديد تنظيم المدارس الوطنية في تركيا.

وقد توفي ديوي عام 1952، بعد أن رسخ دعائم البراغماتية في أمريكا، وانتقل تأثيرها إلى مختلف بلدان العالم.

قصة نشوء البراغماتية:

طور البراغماتية ثلاثة فلاسفة أمريكيون كما بيّنا، وسأعرض للمراحل التي مرت بها البراغماتية ـ على أيديهم ـ حتى وصلت إلى فلسفة متكاملة، تم تبنيها في جميع جوانب الحياة الأمريكية.

أولاً: الخطوة الأولى مع بيرس:

يعد تشارلز بيرس أول من صاغ هذا الاصطلاح في مقالة نشرت عام 1878 في مجلة بوبيولار ساينس مونثلي (Popular Science Monthly) وكان موضوع المقال «كيف نوضح تفكيرنا»، وفيه وضع بيرس أساس فلسفة

البراغماتية، وبهذا وجه التفكير الفلسفي الحديث إلى جهة غير التي كان يسير فيها، وفتح له طريقاً مغلقة لم يكن يدري لها وجوداً قبل الآن، وإذا بهذا الطريق يحدث انقلاباً على كل ما سبق من نظريات فلسفية.

واعتمد بيرس في مقاله على ما ذكره هربرت سبنسر[1] من أن معظم معتقدات الإنسان التي يؤمن بها ليس لها صور حسية يستطيع أن يردها إليها، فالحرية أو الاختيار مثلاً لا يمكن للذهن أن يجد لها صوراً أو شكلاً ذهنياً، نستطيع أن نوضحها به. وبعبارة أخرى لا معنى لهذا الاصطلاح في حياتنا التي نحياها، وعلى هذا نستطيع أن نوفر على أنفسنا عناء البحث في وجود هذه الأشياء.

وإذا لم يكن لهذه المصطلحات صور وأشكال ذهنية يستطيع العقل أن يتعامل بها، فإننا نستطيع أن نزعم آمنين الخطأ ـ كما يرى سبنسر ـ أن هذه المصطلحات ليس لها وجود ذاتي مستقل في الكون، فهي حديث خرافة يمكن إلقاؤه في سلة المهملات؛ أما المصطلحات التي لها معنى أو تصل بنا إلى أشياء وحقائق نشاهدها في حياتنا اليومية، فلها مدلولات حقيقية أو لها معنى حقيقي، حتى وإن كنا لا نستطيع أن نجد لها صوراً وأشكالاً ذهنية عندنا.

وضرب مثالاً لذلك بالكهرباء: فهي لا تمتلك صورة ذهنية أو شكلاً يمكن لعقولنا أن تتخيله، ومع ذلك فمدلولها له وجود ذاتي مستقل وواضح في نظام الكون، فالكهرباء موجودة حقيقة حتى وإن كان الذهن لا يستطيع أن

---

(1) هربرت سبنسر (1820 ـ 1903): فيلسوف بريطاني حاول تكوين فلسفة شاملة قائمة على الاكتشافات العلمية في عصره، وتأثر بعالم الطبيعة الإنكليزي داروين وطبق نظريته في النشوء والتطور على علم الأحياء وعلم النفس والاجتماع وعلوم أخرى. من مؤلفاته: «المبادئ الأولية» ـ «مبادئ علم الأخلاق». (انظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 12/ 138).

يتخيلها، والدليل آثارها وعملها في الحياة اليومية. وما هي إلا ما تستطيع أن تؤديه من الأعمال، وما تنتجه من آثار[1].

انطلق بيرس من هذه المقولة ليعمم هذا المبدأ، فجعله يتسع ليشمل جميع المصطلحات التي ليس لها صور حسية في أذهاننا، وبهذا وضع الأساس لفلسفة البراغماتية.

يرى بيرس أن معنى كل اصطلاح أو فكرة ليس لها صورة حسية، إنما هو في أثر هذه الفكرة أو الاصطلاح في المحسوسات أي في الاختبار والمشاهدة. فنحن نعيش في دنيا مادية ونفسية، وكل شيء يؤدي إلى تغيرات في هذه الدنيا، وينتج فيها آثاراً واضحة نلمسها ونحس بها ونشاهدها فيها، فلهذا الشيء وجود حقيقي.

ولا يمكن التدليل على الموجودات بالمنطق أو بالقضايا العقلية؛ وإنما نتوصل إلى إثبات وجودها بالآثار الحسية التي تنتجها هذه الموجودات في الدنيا التي نعيش فيها. والواقع أن كثيراً من الألفاظ والكلمات التي لها حظ من الصور المحسوسة إن هي إلا دلائل للعمل، أو اتجاهات إلى النشاط، وقد ننسى صورها أو أشكالها ولا يبقى منها شيء؛ إلا قدرتها على التوجيه العملي في الحياة.

ثانياً: الخطوة الثانية مع جيمس:

هذه هي الخطوة الأولى في البراغماتية كما وضع أساسها بيرس، وقد جعلها نظاماً فلسفياً لتفسير معنى الفكرة أو العقيدة، فالفكرة إنما هي مشروع للعمل وليست حقيقة في ذاتها كما تزعم النظم الفلسفية السابقة.

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 93 ـ 94.

ثم جاء وليم جيمس الذي يعد فيلسوف البراغماتية، وحامل لوائها في العصر الحديث إلى مطلع القرن العشرين.

فقد زاد على ما جاء به بيرس بأن كل عقيدة تؤدي إلى نتيجة مرضية أو حسنة تعتبر عقيدة حقيقية، فليست الفكرة مشروعاً للعمل فقط؛ وإنما العمل أو النتائج هي الدليل على صحة الفكرة.

فقيمة الفكرة ليست في الصور والأشكال التي تثيرها في الذهن، وليست في انطباقها على حقائق الموجودات؛ وإنما في الأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة، وفي التغيرات التي تنتجها في الدنيا المحيطة بها، ولا يهم في هذه الحالة حقائق الأشياء في ذاتها، لأننا نستطيع أن نفرض هذه الحقائق كيفما اتفق، وجميع الأحاسيس معالم تقود العقل إلى التصرف والسلوك.

ويجوز أن تكون الصورة الذهنية التي نمتلكها للأشياء لا تتفق مع حقيقة الأشياء ذاتها؛ لكن هذا لا يقدم ولا يؤخر لدى البراغماتية.

ومثال ذلك: الجرس وصوته الذي يعلن مواعيد السفر في محطة قطارات، لا يهمنا البحث في وجوده المستقل وماهية هذا الوجود؛ ولكن المهم عند الفلسفة البراغماتية هو الأعمال التي تؤديها هذه الأشياء، وفي النتائج التي تترتب عليها، وهي تحرك القطارات وسفر الناس[1].

ولقد اعترف جيمس أن رسالته التي قصد إلى أدائها هي أن يتخذ الإنسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً، ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانياً.

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 98.

ويرى أن من الغفلة والشطط أن يؤتى الإنسان هذه القوة العقلية فيبددها في البحث عما وراء الطبيعة من قوى لا تقدم جديداً، فالعقل لم يخلق إلا ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، ومن الأجدى أن ينصرف إلى أداء واجبه، والغوص في الحياة العملية الواقعية، وحين تتضارب الأفكار وتتعارض يكون أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها"[1].

ولابد من عرض فكرة جيمس البراغماتية المتعلقة بوجود الله، فهو يتساءل عن أهمية هذا الإيمان، وما هي النتائج التي يمكن أن يحققها لنا؟

ومعظم الناس يؤمنون بالله، وهذه الفكرة إما أن تكون صواباً أو خطأً في حكم المنطق، فالنظريات الفلسفية السابقة تقول أن الله موجود إذا تبين منطقياً وجوده؛ أما البراغماتية فتعالج المسألة من ناحية أخرى، ففي رأيها أن صواب هذه الفكرة لا يتوقف على الضرورات المنطقية؛ وإنما على صلاحية هذه الفكرة في حياتنا الراهنة، وفي تصرفاتنا اليومية، فإذا أدت إلى نتائج مرضية فهي صحيحة وصائبة، وبذلك يكون الله موجوداً"[2].

وهكذا ينظر جيمس إلى الإيمان بالله نظرة لا يمكن وصفها بأقل من كونها انتهازية، فإذا ساعدنا هذا الإيمان على السير في الحياة عندئذ يكون من الأفضل أن نؤمن به، ما لم يتضارب مع فوائد أكثر نفعاً للإنسان!

وبرأيه فإن الأكثرية العظمى من الناس تؤمن بالله لا لأنها تمتلك دليلاً قاطعاً على ذلك؛ بل لأنها ترى في هذه العقيدة دافعاً يبث في حياة الناس روحاً قوية، ويعطي الأمل الذي تزدهر به الحياة وتثمر، والذي لولاه لضاقوا ذرعاً بأعبائها.

---

(1) انظر: قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص 407 ـ 408.

(2) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 621.

فسلوكنا العملي هو الذي يوجه أفكارنا، وليست أفكارنا هي التي توجه أعمالنا»[1].

ثالثاً: الخطوة الثالثة مع ديوي:

جاء دور جون الذي خطا بهذه الفلسفة الخطوة الحاسمة التي قلبت النظم الفلسفية رأساً على عقب، وحولت مجراها إلى ناحية تختلف كل الاختلاف عن النظم الفلسفية التقليدية.

وديوي المتأثر بنظرية النشوء والارتقاء لتشارلز داروِن، سمّى نظريته في البراغماتية بـ «نظرية الأداة»، وهدف إلى نقد النظرية العقلية القائمة على اعتبار العقل أداة للمعرفة، وأنه وحده الذي يستطيع الوصول إلى الحقائق في ذاتها، والنفاذ من الظواهر الطبيعية إلى الحقائق التي تكمن وراءها، على عكس الحواس التي لا يمكنها الوصول إلا إلى الظاهر. والمعرفة التي تصلنا عن طريق العقل معرفة صائبة وحقيقية.

وعندما ظهرت البراغماتية زعمت أن الدليل على حقيقة أي شيء إنما هو أثر هذا الشيء وعمله ووظيفته؛ لكنها تركت العقل كما هو أداة للمعرفة، فإنما وجد لكي يعرف. لكن ديوي تخطى هذه المرحلة أيضاً بقفزة واحدة، فزعم أن العقل أداة تطورت في مسيرة النشوء لكي تتيح للإنسان إعادة تشكيل بيئته، فهو ليس أداة للمعرفة؛ وإنما هو أداة لتطور الحياة وتنميتها، وليس من وظيفة العقل أن يعرف؛ بل عمله هو خدمة الحياة وتيسير السبل لها لكي تنمو وتطرد.

ومَثَل العقل في هذه الحالة كمثل أي عضو آخر في جسم الإنسان، كالعين التي لم تخلق في الإنسان لتنقل إليه الألوان؛ وإنما خلقت فيه لتدله على مواضع

---

(1) انظر: قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص 408.

الخطر، فتجنبه المهالك، وإذا كانت العين أداة للحياة فالعقل كذلك أيضاً، ومن هنا سميت هذه النظرية بنظرية «الأداة» أو «الآلية»، أي أن العقل آلة أو أداة يستخدمها الإنسان في المحافظة على الحياة أولاً، وفي تنميتها واطرادها ثانياً.

ثم تلت هذه الخطوة خطوة أخرى هي «البشرية»، وهي إحدى أنواع البراغماتية المنبثقة منها، والتي تزعم أن أي حق من وجهة نظر الإنسان يجب أن يخدم مصلحة هذا الإنسان دون غيره. فمقياس الحقائق ليس في التطابق بين الاصطلاح أو الحكم وبين الأشياء الخارجية؛ وإنما مقياس الحق هو في خدمة الجنس البشري. فكل ما من شأنه أن يخدم الإنسانية ويأخذ بيدها إلى الحياة المثلى فهو الحق دون أي اعتبار آخر، ودون التفات إلى ما يزعمه العقليون من أن الحكم على وجود الشيء صواب متى كانت الضرورة المنطقية تتطلب وجوده، وإذا أخذنا فكرة وجود الجنة كمثال، فإن هذا الحكم حق إذا كان العقل يرى بالمنطق أن وجودها ضروري، في حين لا تقبل البراغماتية ومشتقاتها بهذا الحكم، لأنها تزعم أنه إذا كان من فكرة الجنة نفع للبشرية فهي موجودة حقاً[1]».

هذه هي المراحل التي مرت بها البراغماتية، حتى نضجت وأصبحت فلسفة متكاملة.

فلسفة البراغماتية:

تختلف البراغماتية عن النظريات الفلسفية السابقة في نظرتها للحواس والعقل، ودورهما الأساسي في حياة الإنسان وفي تعريفها للحقيقة، والإيمان. وسنعرض لهذه النظرة المباينة تماماً لما سبق، والتي تساهم في توضيح مبادئ البراغماتية بشكل أفضل.

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 100 ـ 101 ـ 102.

أولاً: دور الحواس:

ترى البراغماتية أن الحواس أدوات للحياة والعيش، فهي تساهم في تنمية الحياة وتوفير سبل العيش له، وليست أبداً أبواباً للمعرفة، وتعتبر النظر إليها على أنها أدوات للمعرفة خطأً وقعت فيه الفلسفات السابقة.

والبرهان على ذلك ـ بزعمها ـ هو أن الإنسان، ومنذ فجر التاريخ ينظر إلى الحياة بذاتها على أنها الغاية من النضال أو الغاية من العيش والنشاط، وكانت الحواس هي الوسائل المباشرة لجلب المنفعة ودفع الضر، وبعبارة أخرى لم يمتلك هذه الحواس ليتناول بها حوادث الوجود تناولاً من جوهره المعرفة والفهم والإدراك، أو من جوهره الوصول إلى ما تخفيه وراءها من حقائق ثابتة؛ وإنما كانت بالنسبة له أدوات تحذير وتنبيه.

لم تكن وظيفة عينيه عندما تنقل إليه الإحساس بطلوع الشمس أن تنبهه إلى الحقيقة الموضوعية لهذا الطلوع؛ بل تنقل له هذه الظاهرة على أنها إيذان بالعمل والسعي والنشاط. فكأن وظيفة الحواس تشكل خطوة أولية ومقدمة للعمل الذي يقصد منه التغيير.

ولم تستطع الفلسفة التقليدية أن تصل إلى هذه الحقائق، ويعود الفضل في اكتشافها إلى علم الإنسان وعلم النفس والأحياء، فهذه العلوم هي التي استطاعت توجيه الفلسفة إلى الوجهة العلمية والعملية، فأثمرت الفلسفة البراغماتية.

كما تنكر البراغماتية على الفلسفة التقليدية إصرارها على رد الأشياء إلى شيء واحد، تدعوه الحقيقة وتدعو ما عداه خداعاً ومظاهر لا أصل لها، وتؤكد البراغماتية إمكانية تعدد الأشياء والحوادث والحقائق، فموضوعات الحس متنوعة ولا تنتهي، وهي متقلبة متغيرة تظهر وتختفي، وكلها حق[1].

---

(1) انظر: في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، محمد فتحي الشنيطي، ص 94 ـ 95.

ثانياً: دور العقل والفكر:

تزعم البراغماتية المتأثرة بنظرية النشوء والارتقاء أن العقل البشري تطور مع تطور الحياة الإنسانية، وهذا التدرج الذي رافق نشأته وعمله بدأ بتلقي مؤثرات البيئة عن طريق الحس، حتى وصل إلى إدراك العلاقات بين الأشياء، والتصرف وفق ما تمليه الحالة الراهنة، وهو لا يزال يتطور إلى ما لا نهاية.

والإنسان بدأ بالتفكير ابتغاءً أن يبقى على قيد الحياة، ويحسن أحواله المعيشية. وفي ذلك يقول ديوي: «إن التفكير يتبع الكفاح، والفعل يتبع التفكير»[1].

ويعتقد البراغماتيون أن الإنسان لا يفكر إلا إذا كانت لديه مشكلة يحاول التغلب عليها، ولو لم تكن لديه مشاكل لكانت حياته عارية عن التفكير.

فنقطة البداية للتفكير هي حدوث شك، أو مشكلة ما يراد حلها، فالتفكير ليس عملية احتراق تلقائي، إنه لا يوجد إلا حيث تكون هناك حاجة أو مناسبة تدعو إليه. وتشكل الحاجة إلى حل المشكلة العامل المرشد في عملية التفكير، ومع حلها يتوقف، ثم يستأنف مع مشكلة أو موقف جديد. كما تعد الفكرة مبدأ العمل أو الخطوة التمهيدية للعمل.

والنتيجة التي تخلص إليها البراغماتية هي أن التعامل بالأفكار هدفه تحسين تصرفات الإنسان، وجعلها أنجع للحياة، وحين يتبين لنا عدم نفعيتها نمتنع عن التفكير بها؛ أما إذا كان من المحتمل نجاحها فلا بأس حينها أن يشرع العقل في تحقيق الرأي، وإخراج الفكرة إلى حيز الوجود، وبقدر ما تكشف الأفكار أنها فعالة وأدوات ناجحة في حل المشاكل وعلاجها، فإنها تكون أوفر حظاً من الحقيقة والصحة، وإذا تلعثمت الفكرة في معالجة موقف

---

(1) انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، (1/ 501).

ما، توصف على أنها فرض أو اقتراح؛ لكنها تتحول إلى حقيقة واقعية حين تتوقف عن التردد والترجح.

فالعقل ليس أداة للمعرفة؛ بل أداة للتعامل والنشاط، أي أن معناه ينحصر فيما يؤديه من أعمال، وليس فيما ينقله إلينا من معلومات ومعارف.

وليس ثمة قيمة لفكرة أو نظرية إلا إذا تيسر لنا تطبيقها تطبيقاً مباشراً على الوقائع التي نلاحظها. فإذا طبقنا هذا المنهج العلمي على التجربة الإنسانية أمكننا أن نصل إلى القاعدة البراغماتية، أي البحث عن المعنى الواقعي للفكر، مما يجعلنا نحتفي به على قدر ما يأتي به من نتائج عملية خالصة[1].

ومن هنا يتضح منهج البراغماتية القائم على مزج الفكر بالحياة.

ثالثاً: مفهوم الحقيقة لدى البراغماتية:

والحديث عن العقل ودوره لابد أن يُستتبع بتعريف لمفهوم الحقيقة وفق النظرة البراغماتية لارتباطهما الوثيق، وبما أن العقل يعتبر ـ لديهم ـ أداة من أدوات البقاء، فإن الفكرة التي تنشأ فيه لا تكون حقيقة إلا إذا امتلكت القدرة على الإجابة على الظروف المحيطة على النحو الذي يمكّن الإنسان من البقاء.

والحقيقة ليست حقيقة إلا إذا عملت على نجاح الحياة، وتتحقق بملاءمة حياة الإنسان الداخلية مع الظروف الخارجية، ولا يعنيهم أن تكون الصورة الذهنية التي رسمها العقل عن الأشياء الخارجية مطابقة لأصلها أو مشوهة ومحرفة، فالحقيقة العليا في الوجود هي الاحتفاظ بالبقاء أولاً، ثم الارتفاع بالحياة نحو الكمال.

---

(1) انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، (1/ 203 ـ 204).

فالإنسان يعيش في عالم وقائع، وهذه الوقائع قد تكون نافعة وقد تكون ضارة، وتعتبر الأفكار التي تتنبأ سلفاً بما يتوقعه من واقع معين أفكار حقيقية، كما أن امتلاك الحقيقة ليس غاية في ذاته؛ وإنما هو وسيلة لإشباع اهتماماته المتجددة.

وهكذا تتضح النظرة البراغماتية للحقيقة القائمة على الفائدة والمنفعة، فكل ما يحقق المنفعة والفائدة للإنسان فهو «الحق»، وكل ما عداه «باطل» بغض النظر عن كونه حقاً من الناحية العقلية.

وبعد أن كانت الحقيقة تتميز بخاصيتها غير الزمنية، والتي تعلو بمضمونها على كل تغيير، أصبحت عرضة للخطأ، فالظواهر التي تثبت اليوم ترتهن بمدى وضوحها وفعاليتها لذلك، ولا يمكن استبعاد احتمال تعديلها، فقد تكون حقاً اليوم ثم يظهر خطؤها في المستقبل، فنتحول عنها إلى حقيقة أخرى تظهر لاحقاً[1].

رابعاً: الدين والإيمان من منظور براغماتي:

طبق فلاسفة البراغماتية ـ لا سيما جيمس ـ مذهبهم الفلسفي على الإيمان بالله، وهي أهم مسألة شغلت الفكر الإنساني منذ وجوده، فخرجوا بنتيجة فريدة في هذا المجال قائم أيضاً على النظرة النفعية والانتهازية ـ إن صح التعبير ـ والتي صدمت رجال الدين المسيحي في الغرب، كما أنها أيضاً غير مقبولة إسلامياً.

ويمكن تلخيصها بما يلي: يرى جيمس أن الإنسان كانت له وستكون دائماً «تجربة دينية»، ذلك أن الإنسان شعر من حوله بحضور «تجربة أخرى»

(1) انظر: تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، بيتر كاز، ص 375.

قريبة من تجربته، ومتعاطفة مع أمانيه وتناضل معه ضد الشر، وتعمل في صالح الخير، وتشيع في نفسه السلوى؛ لهذا يفوض أمره لها، ويطلب منها العون. وهي تجربة مختلفة عن التجارب الحسية؛ لكنه يوجب تفسيرها وفق المنهج المتبع في التجربة الحسية، أي فكرة المنفعة العملية، أو الفائدة المترتبة عليها، فإن كانت تقدم لأنفسنا الطمأنينة والسعادة والسلام فينبغي أن نعدها صحيحة؛ تبعاً لمعيار الحقيقة البراغماتي.

ولا يهم البراغماتية الجدال المتركز على تفسير حقيقة الكون والحياة وخالقهما، وهل وجد العالم مصادفة، أم بتدبير حكيم عليم، فما يهمها هو أن العالم وجد والحقيقة التي لا مرية فيها هي أنه موجود، سواء أكان ثمرة التقاء ذرات أو من صنع خالق عظيم جبار، فهذا لن يبدل من الواقع شيئاً.

ثم تفند البراغماتية النظرتين، فترى أن إنكار وجود خالق للكون يجعل العالم مرهوناً بنشاط قوى عمياء، ومن ثم لا يؤدي ذلك إلى الاستقرار على الصعيد النفسي؛ أما الاحتمال الثاني فإنه يضع زمام الأمور بين يدي قوة عاقلة حكيمة ذات أهداف أخلاقية سامية، ويمكنها أن تزودنا باليقين والطمأنينة والأمل[1].

ويدافع جيمس في كتابه «إرادة الاعتقاد» عن حق الإنسان في اعتقاد ما يراه مفيداً له في حياته، ويقرر أن في وسع الناس أن يؤمنوا بأمور لأسباب عاطفية رغم انتفاء الدليل العقلي عليها.

ولم يقتصر جيمس على مسألة وجود الله؛ بل شمل منهجه هذا كل الأمور التي تفتقر إلى دليل واضح برأيه. ومنها مسألة خلود النفس، فرأى أن

(1) انظر: في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، محمد فتحي الشنقيطي، ص 95 ـ 96.

ثمة دلائل تشير إلى خلود النفس؛ لكن حتى وإن انعدم الدليل، فإن لنا ما يبرر الاعتقاد في خلود النفس لما لذلك من فوائد عملية»[1].

ويلاحظ التخبط الذي يعانيه فلاسفة البراغماتية في هذه المسألة تحديداً، والتي تعود على مصادمة العقيدة المسيحية المحرفة التي يتبناها الغرب للعقل السوي، مما دفع البراغمانيين إلى الهروب من تناقضاتها عن طريق هذه النظرية الملتوية؛ أما العقيدة السليمة فستجد القبول من العقل والقلب معاً، كما أنها ستحقق الفائدة والمنفعة التي يرجوها الإنسان في الدنيا والآخرة.

أثر البراغماتية في الحياة الأمريكية:

تدخلت البراغماتية في جميع مناحي الحياة في أمريكا بلدها الأم، ووجهت قواها إلى تصوير الأهداف الإنسانية، وتنسيقها والنهوض بالحياة وفق منهجها ونظرتها الخاصة. ومن أهم المجالات التي تركت بصمتها عليها، وصبغتها بصبغتها المجالات التالية:

أولاً: التربية والتعليم البراغماتيان:

وقد برع في تطوير هذا المجال؛ بل إحداث انقلاب فيه جون ديوي، الذي أحرز فيه قصب السبق، وأدى ذلك إلى ذيوع صيته كعالم تربية أكثر من شهرته كفيلسوف. وعرض مؤلفاته في التربية، ومنها: «عقيدتي التربوية» و«المدرسة والمجتمع»؛ لكن أهمها كتاب: «الديمقراطية والتربية» عام 1916.

وإذا كان سبنسر قد طالب بزيادة تدريس العلوم، وإقلال دراسة الآداب في برامج التعليم، فإن ديوي تبنى تلك المقولة وأضاف عليها وجوب تدريس

---

(1) انظر: الموسوعة الفلسفية، عبد الرحمن بدوي، (1/ 450).

العلوم بطريقة عملية تأتي عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف والمهن، لا طريق تعليم الكتب[1].

وهاجم ديوي على السواء: التصور السائد في المدارس الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين القائل بأن الطفل كائن سلبي، ومهمة التربية والتعليم هي فرض المعارف على ذهنه، كما هاجم النظرة الجديدة في أوروبا، والمضادة لهذه القائمة على التمجيد العاطفي للطفل. فكانت تدعو إلى ترك الطفل يلتقط ويختار بنفسه ما يهوى من معلومات ودراسات.

ورأى ديوي أن كلتا النظريتين قائمة على علم نفس فاسد وخاطئ، فالنظرية الأولى أفرطت في الاستهانة بذكاء الطفل الفطري، والثانية غفلت عن أن الطفل لا يزال في مرحلة غير ناضجة، ومن ثم رأى ديوي أن التربية ينبغي أن تتولى الانتقال بالطفل والبالغ من تجربة غير ناضجة إلى تجربة أكثر نضجاً، قائمة على ذكاء الطفل أو البالغ ومهاراته، ووضع شعاراً لمذهبه التربوي يقول فيه: «تعلم بأن تعمل»[2].

ولم يقصد ديوي من ذلك صرف التربية والتعليم عن التزويد بالعلوم والمعارف؛ بل لفت الانتباه إلى أن الطفل مخلوق مولع بالنشاط، وحب الاستطلاع والاكتشاف، وليس قابلاً للتشكل على النحو الذي يريده المربي فقط، وليست استعداداته ومواهبه ثابتة ومحددة. وتتمثل وظيفة التربية في تشجيع العادات والاستعدادات التي تكوِّن ذكاءه.

---

(1) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 626.

(2) انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، (1/ 502).

وبما أن المجتمعات المعاصرة تعتبر مجتمعات صناعية، وهو بذلك يقصد المجتمع الأوروبي عامة والأمريكي خاصة، فينبغي أن تكون المدارس فيها أشبه بالمصنع الصغير، على أن تقوم بالتعليم بطريقة عملية، يتدرب فيها التلاميذ من خلال إقامة التجارب العلمية والاستفادة من أخطاء هذه التجارب، وتدريس الفنون والنظم اللازمة في النظام الاقتصادي والاجتماعي، والنظرة إلى التعليم لا على أساس كونه مجرد إعداد للنضوج؛ بل نمو ونهوض مستمر للحق، وتنوير مستمر للحياة[1].

ثانياً: أثر البراغماتية في الاقتصاد:

رسخت النظرية البراغماتية القائمة على المنفعة والفائدة النظام الرأسمالي، الذي يعد من أكبر المستفيدين من توجهات البراغماتية ومعاييرها المصلحية.

والرأسمالية: نظام اقتصادي ـ اجتماعي ذو فلسفة اجتماعية سياسية، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضرورية والكمالية، وتنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها؛ متوسعاً في مفهوم الحرية، ويكون الربح وجلب المنفعة فيه محرك النشاط الاقتصادي[2].

وتعود نشأته إلى قرون خلت، كما أنه خضع لتطورات عدة خلال تاريخه حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم، وأصبح النظام الذي تتبناه أقوى الدول في العالم، وأكثرها نفوذاً وسيطرة كالولايات المتحدة، وبريطانيا وكندا وأستراليا واليابان.

---

(1) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 626.

(2) انظر: الموسوعة العربية، مجموعة مؤلفين، (9/ 714).

ووجه التقارب بين البراغماتية والرأسمالية واضح، ويتمثل في حرص كليهما على تحقيق كل ما من شأنه جلب المنفعة الشخصية، باستخدام شتى الأساليب المشروعة وغير المشروعة، وفق المبدأ الماكيافيللي: «الغاية تبرر الوسيلة».

وهكذا حدث تزاوج مصلحي بين البراغماتية والرأسمالية، هدفه تحقيق الهيمنة الاقتصادية ونهب ثروات الشعوب بشتى السبل، لأن في ذلك كل المنفعة والفائدة لمنظريها.

إن هذه الفلسفة كانت ملهمة للنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة. ثم ظهرت مساوئه عند التطبيق واستفحلت أخطاره بسبب ارتباطه الوثيق بالحروب.

ثالثاً: السياسة البراغماتية:

تعد فكر المحافظة على البقاء، وجعلها الغاية التي يسعى إليها الإنسان ويستخدم لأجلها جميع الوسائل المحرك الأساسي لكثير من الصراعات والحروب، التي نشأت كنتيجة حتمية لتبني النظرة البراغماتية.

وقد اتضح مما سبق العلاقة الوثيقة بين الرأسمالية والبراغماتية، ونشأ عن الرأسمالية احتلال الشعوب تحت مسمى «الاستعمار» لنهب ثرواتها، وتسخيرها لصالحها اقتصادياً ثم فكرياً وثقافياً.

لقد أثرت الفلسفة البراغماتية تأثيراً بالغاً على السلوك السياسي الأمريكي، وجعلته في الكثير من الأحيان يقوم على الانتهازية الصريحة وتغلب المواقف، والتحول من دعم الحلفاء إلى مهاجمتهم باعتبارهم خصوماً ألداء.

وترسم سياسة المعايير المزدوجة أو الكيل بمكيالين، التي تتبناها الدول الغربية عامة، والولايات المتحدة خاصة، الصورة الواضحة للسياسة البراغماتية.

ووفق معيار الحقيقة البراغماتية، فما يكون حقاً في مكان يصبح باطلاً في مكان آخر، وكمثال على ذلك: يمكننا ملاحظة البون الشاسع بين تعامل الولايات المتحدة والغرب عموماً مع استشهاد إخوتنا في الأرض المحتلة على يد الإرهاب الصهيوني، وبين مقتل بضع جنود إسرائيليين محتلين للأرض، ومعتدين على سكانها على يد المجاهدين. وإذا فرضنا جدلاً أن الموقف الحيادي التام يقول في مثل هذه الحالة أن كلتا العمليتين تعتبر جريمة قتل، أو عملاً إرهابياً؛ إلا أن أمريكا البراغماتية تذهب إلى أبعد من هذا، فتسمي الأول دفاعاً عن النفس من قبل إسرائيل، والثاني عملاً إرهابياً يستدعي تدخلاً حاسماً «للقضاء على الإرهاب».

ومثال آخر يتجلى في كيفية التعامل مع قضية أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها إسرائيل، وتهدد بها الأمن والاستقرار في المنطقة بكاملها، وسكوت أمريكا ودعمها اللامتناهي له؛ وفي المقابل نرى حملتها الشعواء على العراق لمجرد احتمال امتلاكه هذه الأسلحة، والتي تبين أنها لم تكن سوى ذريعة من ذرائع مذهبها لاحتلاله، كما نرى ذلك في تعاملها اليوم مع الملف النووي الإيراني.

وتناصر البراغماتية الديمقراطية[1]، لأنها ترى أن هدف النظام السياسي مساعدة الفرد على التطور والنهوض بنفسه تطوراً تاماً، وترى أنه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلا إذا اشترك كل فرد ـ على قدر وسعه ـ في تقرير سياسة جماعته ومصيرها.

---

(1) ديمقراطية: تعبير مشتق من اليونانية بمعنى سلطة الشعب، ولها أشكال منها: اختيار الشعب للحكام، ومنهج المساواة في الفرص والمساواة أمام القانون في الحقوق والواجبات، والتصويت في الانتخابات العامة. (انظر: الموسوعة العربية، مجموعة مؤلفين، 9/ 556).

ونجد أن ديوي لا يثق بالدولة ويفضل نظاماً متعدداً، تقوم فيه جمعيات طوعية اختيارية بعمل المجتمع، كما أنه يعتبر تعدد المنظمات والأحزاب والشركات والنقابات وغيرها؛ توفيقاً بين الفردية والعمل العام المشترك[1].

وتخضع الديمقراطية نفسها للمعيار البراغماتي، فنراها تصبح حقاً لبعض الشعوب، ومحرمة على شعوب أخرى، ونجد أن الولايات المتحدة تغض الطرف عما يجري في بعض مناطق العالم من انتهاكات لحقوق الإنسان لأن الحقيقة نسبية، وخير مثال على ذلك: تغاضي أمريكا عما تفعله روسيا مع الشعب الشيشاني الصامد.

البراغماتية.... ما لها وما عليها:

توجه إلى البراغماتية انتقادات عديدة، وغالباً ما توصف بأنها فلسفة انتهازية، ليس لها مبدأ معين تلتزم به إلا المنفعة، فهي قبلتها التي توجه وجهها إليها. ومن هذه السلبيات التي تدعونا إلى معاداة البراغماتية:

1 ـ تؤدي البراغماتية إلى التنافر بين الناس، وإلى عدم انسجامهم في سلك المجتمع، لأن كل فرد سينتقي لنفسه الرأي الذي ينفعه بغض النظر عما يتخذ سواه من آراء، فهي فلسفة تعتمد على مزاج الإنسان وظروفه ومنفعته الشخصية[2].

2 ـ تقدس البراغماتية حرية الإنسان، وهذه ناحية إيجابية؛ إلا أن القوم لم يرعوها حق رعايتها، مما أدى إلى انتشار الإباحية والرذيلة، وبذلك تجاوزت الحرية الحدود والضوابط التي لابد أن تقف عندها حين تتعارض مع الضوابط والقيم الدينية والأخلاقية.

---

(1) انظر: قصة الفلسفة، ول ديورانت، ص 630.

(2) انظر: قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص 413.

3 ـ حذر أصحاب المذاهب الفكرية من الخطر الكامن من الأخذ بالمنهج البراغماتي، أي الحكم على الأفكار بنتائجها العملية، ورفضوا الحكم على الأفكار السامية التي تتخطى كل تجربة بموازين مستمدة من التجربة.

4 ـ كما أن البراغماتية تفتقر إلى الموضوعية في عملية بحثها عن الحقيقة، لأنها تخضعها لعامل المنفعة الشخصية، وتجعل من المنفعة والفائدة الميزان الذي تزن فيه الحقائق، وهكذا ينطبق عليهم الوصف القرآني ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الجاثية 23.

فتطبيق النظرية البراغماتية بعيد عن الحقيقة في مجال العلم، وما ذهب إليه جيمس والبراغماتيون من أن قضايا العلم قضايا حقيقية لأنها مفيدة عملياً، يبدو نسفاً للحقائق العلمية من أساسها. إن قبول نظرية معينة واعتبارها صحيحة بدون برهان ولمجرد أنها نافعة، أو أنها ترضينا من ناحية ما، يعد مناقضاً للموقف العلمي تماماً.

5 ـ لا تستثني البراغماتية في سبيل تحصيل المنفعة أي وسيلة مهما كانت قذرة، فنراها تلجأ إلى الوسائل المشروعة وغير المشروعة في سبيل ذلك دون الشعور بأي حرج، وليس هذا بالسر الذي يخفى، فنحن نرى مصداق ذلك من خلال السياسة ومنهج الحياة، والحضارة الغربية عامة والأمريكية خاصة.

6 ـ يؤدي تبني المنهج البراغماتي إلى نشوء الحروب والصراعات، بدعم من النظام الرأسمالي، وما يجره ذلك من ويلات على العالم، لا يمكنه التخلص منها بسهولة.

7 ـ أكثر ما يثير الانتباه في البراغماتية ويدعو إلى ضرورة مراجعتها، هو نظريتها المتعلقة بالإيمان والدين. تلك النظرة التي أقل ما توصف بأنها تفتقر

إلى أبسط القواعد العقلية البديهية، فما الذي يجبرني على الالتـزام بـدين معـين، وأداء ما يترتب على ذلك من واجبات، إذا كان عقلي يرفضه، أو على الأقـل لا يملك دليلاً على صحته. ولا يمكن القبول بتفسيرهم النفعي لضرورة الإيمان؛ بل لعل هذا ما يؤكد تخبطهم وعدم اقتناعهم بديانة امتدت أيديهم إليها تحريفـاً وتصحيفاً، حتى أصبحت لا تقنع عقلاً ولا تشبع عاطفة.

8 ـ النظرة إلى العقل على أنه أداة للبقـاء ولـيس أداة للمعرفـة، وفي هـذا حط من قدر العقل، الذي أكرمنا الله به وميزنا به عن بقية المخلوقات، ومـسخ لدوره. فالمخلوقات الأخرى التي لم تمتع بالعقـل يمكنهـا الـصراع مـن أجـل البقاء بفضل غريزة البقاء التي متعها الله بها؛ والإنـسان يمتلـك هـذه الغريـزة أيضاً؛ إلا أنه يمتلك العقـل وهـو الـذي يوصـله إلى المعرفـة والحـق، لا سـيما الحقيقة الأسمى وهي وجود الله جل جلاله، وهو لهذه الغاية السامية خلق.

ويتضح من نظرة البراغماتية للعقل أنها تفقد الثقـة بقدراتـه، فجوهرهـا قائم على النظرة إلى أن الإنسان مكـره عـلى العـيش في عـالم لا عقـلاني يتعـذر فهمه، ومهما حاول إدراك الحقيقة الموضوعية، فإن محاولاته ستبوء بالفشل، لذا يجـب النظـر إلى مختلـف النظريـات العلميـة، والأفكـار الاجتماعيـة والقـيم الأخلاقية نظرةً أداتيةً، أي بمقدار منفعتها في تحقيق أهدافه[1].

9 ـ اللاأخلاقية التي تتميز بها رغـم التقيـد بـبعض الفـضائل كالأمانـة والانضباط والدقة ومراعـاة المواعيـد ولكنهـا ـ كفـضائل ـ ليـست مقـصودة لذاتها؛ ولكنها تفيـد الـبراغماتي في تعامله مـع الغـير، وتظهـر «اللاأخلاقيـة» بوضوح في أساليب الدعاية والإعلام.

---

(1) انظر: موجز تاريخ الفلسفة، مجموعة مؤلفين سوفييت، ص 624.

10 ـ البراغماتي شخص يهتم بتحصيل منفعته الخاصة والحفاظ على بقائه، مما يدفعه إلى مسايرة الأحداث والظروف التي تعرض له، والانحناء أمام عواصفها في سبيل البقاء، وهذا يعني التفريط بكثير من الثوابت، التي لا تعترف البراغماتية أصلاً بها، فنراه يضحي بكرامته وإنسانيته، وبذلك يفقد القيمة من وجوده كإنسان كرّمه الله.

ومع ذلك فلا تخلو البراغماتية من بعض المظاهر الإيجابية التي تحسب لها، وقد أدت خدمات مختلفة منها:

1 ـ أنزلت البراغماتية الأبحاث الفلسفية إلى مستوى تفكير الرجل العادي، بعد أن كانت وقفاً على طائفة معينة.

2 ـ أدت إلى اتصال وثيق بين العمل والفكر، كما أنها بينت أثر هذا التفكير في النظم الاجتماعية للإنسان، وأكدت على ضرورة أن تؤدي الفلسفة الخدمات لحياة الإنسان الاجتماعية من سياسة واقتصاد وتربية وتعليم.

3 ـ قلبت البراغماتية نظم التعليم رأساً على عقب في جميع أنحاء العالم، ووضحت الغاية من التعليم ورسمت له ميادين العلم والنشاط، وأنشأت مدرسة حديثة قائمة على فلسفتها، فهي ترى أن كل نظام تعليمي نظري لا يؤثر في الحياة الراهنة، ويخدمها بكل الطرق المستطاعة، هو نظام عقيم ومجهود من غير طائل[1].

4 ـ كما أنها أدت إلى تطور علمي غير مسبوق؛ كنتيجة حتمية لعشقها للتجربة والتطبيق، وربط الفكر بالعمل.

---

(1) انظر: مذهب الذرائع (البراغماتزم) النظرية الأمريكية في المنفعة، يعقوب فام، ص 197.

البراغماتية والإسلام:

أشرقت شمس الإسلام على العالم لتخرجه من الظلمات إلى النور، وبعث محمد بن عبدالله ﷺ رحمة للعالمين، والإسلام الذي شرعه الله لخير البشرية يرحب بأي فكرة تساهم في سعادة هذا المخلوق المكرم في الدنيا والآخرة، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها، على أن تلتزم بالضوابط التي وضعها الشرع، وتسبح في فلكه، لأنها ـ وضمن هذه الحدود وحدها ـ يمكن أن تحقق له هذا الخير المنشود.

وإذا نظرنا إلى البراغماتية بمنظور إسلامي، وزنّاها بميزانه، فسنرى فروقاً جوهرية تدفعنا إلى رفض نظرتها القائمة على النفعية، التي تغض الطرف عما يمكن أن يجلبه هذا الجري اللاهث وراء المنفعة من كوارث على البشرية.

ويمكن توضيح معالم هذه الفروق من خلال النقاط التالية:

1 ـ لم يترك الله عز وجل عقل الإنسان يتخبط في متاهات الفكر بحثاً عن أعظم حقيقة في الوجود؛ بل بينها له بالأدلة الدامغة عن طريق إرسال الرسل، وتأييدهم بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الحق ليس بنسبي؛ بل ثابت لا يتغير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

2 ـ الحق والخير هو ما حدده منزل القرآن الكريم جل جلاله، وليس الأمر رهناً بمنفعة مؤقتة، ويستمد هذا الخير أحقيته وشرعيته من التسليم لله، والإيمان أنه أحكم الحاكمين، خالق الإنسان والأعلم بما في صلاحه، مع التأكيد على عدم تعارض هذا الحق مع العقل السليم، ولا مع ما فيه مصلحة الإنسان وسعادته.

3 ـ إن النجاح مطلوب، والسعي والتنافس على فعل الخيرات مرغوب، فالمؤمن القوي أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف؛ ولكن ينبغي أن يتخذ هذا السعي وسائل وذرائع تستظل بأوامر الشرع، وتلتزم بآدابه في سبيل الوصول إلى الغايات النبيلة، ولا يقبل الإسلام أبداً المبدأ الماكيافيللي.

4 ـ يتميز المجتمع الإسلامي بالإيثار وحب الخير للآخرين، والمؤمن لا يتم إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويمكن أن يضحي بمنافعه الشخصية في سبيل مصلحة أمته وسعادتها؛ بل تصل التضحية إلى النفس والمال أيضاً، ويعد هذا من أشد ما تفتقده المجتمعات البراغماتية.

5 ـ لا يقبل من المسلم الإيمان بالله عز وجل إن لم يكن عن اقتناع كامل، والمطلوب إيمان يهيمن على القلب والعقل والجوارح، ولا ينفع فيه التقليد أو الاعتماد على المنفعة فقط، والمؤمن يضحي بأعز ما يملك في سبيل مرضاة خالقه سبحانه؛ بل إنه يحرِّم على نفسه الكثير من متاع الدنيا في سبيل ذلك، وهي عقيدة مخالفة تماماً للإيمان البراغماتي الذي يدعو الإنسان إلى ترك عقيدته في حال تعارضها مع منفعته الشخصية.

أما إذا أردنا أسلمة البراغماتية ـ إن صح التعبير ـ أو الوصول إلى صيغة توافقية بين البراغماتية والإسلام، فيمكن توضيح صيغتها على النحو التالي:

خلق الله الإنسان وأكرمه بنعمة العقل وأرسل الله الرسل معلمين ومرشدين، والهدف الأسمى من ذلك هو عبادة الله والوصول إلى مرضاته، التي ستؤدي إلى النعيم في الدنيا والآخرة، وهو الحق الذي لا ريب فيه.

وهذه هي الغاية من الوجود، التي يجب على الإنسان أن يبذل لها الغالي والرخيص. ولا بد أن يُبتغى من أجلها كافة الوسائل، فكل وسيلة تؤدي إلى

هذه الغاية يجب استخدامها؛ لكن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، لذلك فالوسائل المتخذة لهذه الغاية لابد أن تكون كلها نبيلة تتناسب مع الغاية النبيلة.

وعندها سيتنافس المؤمنون في سبيل طاعة الله، وهذا التنافس سيشمل جميع مجالات الحياة المختلفة، من سياسة واقتصاد وتربية وتعليم وثقافة ومعرفة، وهكذا يتحقق المجتمع الإسلامي الذي يستظل بهدي الكتاب والسنة، والذي ينعم فيه الجميع بالخير والأمان، فتزدهر الحياة وتتقدم، وتتحقق المنفعة المنشودة للإنسان؛ لكنها منفعة لا تتعارض مع الشرع الحنيف؛ بل تمشي في ركابه، وتستظل بظله، فالله عز وجل هو العليم الحكيم الذي خلق الخلق ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، فهو الغني والناس هم الفقراء إليه.

وهذه هي نقطة الالتقاء الوحيدة بين الإسلام والبراغماتية.

وخلاصة القول:

إن البراغماتية تختلف عن جميع ما سبقها من نظريات فلسفية، فهي أكثر واقعية وقرباً من حياة الناس، لكن الأخذ بها ـ وفق النظرة الأمريكية ـ أدى وسيؤدي إلى مهالك عظيمة يمتد تأثيرها ليشمل الجميع.

فهي تحول الإنسان إلى وحش كاسر، لا هم له إلا الحفاظ على بقائه ولو على حساب الآخرين، وليته يكتفي بذلك؛ بل إننا نراه يقتل ويسلب وينهب من باب الحرص على المنفعة، ولا حرج عليه في ذلك، فالغاية تبرر الوسيلة بزعمهم، وهكذا تضيق الأرض على الناس بما رحبت.

أما ما يحقق الأمان للبشرية، ويجلب لها المنفعة التي تحلم بها ـ ولا عيب في ذلك ـ فهو الإسلام، الذي لن يُقبل من أحد ابتغاء غيره، لأن فيه سعادة الدنيا والآخرة، سعادة الفرد والجماعة والأمة؛ بل والبشرية جمعاء إن هي رضيت به ديناً.

دراسة وتحليل لكتاب

(نهاية التاريخ والإنسان الأخير)

فرانسيس فوكوياما

في مقدمة للأستاذ مطاع صفدي يعتبر الكتاب من أهم ما صدر على الصعيد الإيديولوجي في الغرب الأمريكي، ويعتبره بيان أول وثيقة تعلنه الليبرالية لكونها وحيدة لا ينازعها أحد وقد رفعه إلى مستوى من التعليل الإطلاقي معتمداً على البراجماتية وفلسفة هيجل ويريد أن يرفع دولته إلى مصاف الكمال التاريخي في نظامه الاقتصادي السياسي ليجسد الاختيار الوحيد المتبقي أمام الإنسانية جمعاء. ولا يستطيع تبريره بالعقلانية المطلقة التي تتمتع بها أمريكا بوش بنهاية التاريخ أو كمال الإنسانية.

وقد تجاهل كل حقول الجدل المثار حول مسائل التاريخ فلسفياً (أو يجهل حقيقته) ويعتبر المحرك الأساسي للأحداث بعض الأطروحات مهملاً سواها (وهو عنصر السيكولوجيا وحدها) وأكد على صراع الميول والقيم في ذات الفرد الإنساني واختار ذات الميول الذي سماها أفلاطون (الثيموس) معتبراً ومختزلاً تاريخ الجدل الهيغلي حيث قدمه على أنه البديل الوحيد عن النفعية الأنغلوسكسونية والبراغماتية الأميريكية ليكون المسار النهائي للكينونة بنظام سياسي اقتصادي معين هو الرأسمالية الراهنة باعتبارها أعلى تجسيد للرغبة في الميول (الثميوسية) وظهرت من أطروحاته تناقضات صارخة وخاصة فيما يتعلق بموضوعة (الثيموس) ويصف نفسه إلى جانب المدرسة الطبيعانية المستجدة من هوبز وروسو.

وليثبت نهاية التاريخ ربط هذه النهاية بالنظام الليبرالي (الأميركي) فكل جهده ينصب أن التاريخ ينتهي عند أمريكا. علماً أن الباحث لم يعد واثقاً من شعار نهاية التاريخ عينه. ثم يعود ليطرح نزع الاعتراف بالذات والرغبة في المساواة وتأتي قسمة العالم مجدداً إلى من هو منه داخل التاريخ، ومن تخطاه وأكمل شخصيته ويصف بعد نهاية التاريخ من الشعوب من سيصير مصيرها عملياً إلى مكب التاريخ أو مزبلته كما وصف بودريار بلده (فرنسا والغرب) لسكنى مكب التاريخ أو مزبلته، وبذلك مفهوم القومية الاقتصادية ستفرز عنده الحضارة التي تستحق كمال التاريخ وأخرى عجزت عن استحقاق هذه النهاية من الكمال.

وبذلك قدمت نفسها التي حققت كمالها أنها قدمت نفسها كإله مطلق بحق يحق لها التملك من العالم وتسخير أخلاقيته وتراثه لتأكيد واحديته وقانونه الأعلى، ويطلق على الكتاب أنه عمل صحفي يتنطع إلى ادعاءات شمولية موجهة إلى الجماهير الأوسع بهدف إملاء الفراغ الإيديولوجي الناجم عن سقوط العقائد السابقة.

يجعل الكاتب بأسلوبه الصحفي أن سقوط الشيوعية ليس دليلاً فقط على صحة عدوتها المقابلة الرأسمالية، بل إنه يربط مبدأ الحرية في حد ذاتها بالخيار الرأسمالي الوحيد.

فانتقاله من تقرير واقع إلى إثبات حقيقة فكرية تنقض مضمونها في لحظة القول عنها عندما يثبت الرأسمالية الوحشية هي الحل الوحيد لتحقيق الحداثة، وذلك بتسرع صحفي بعيد عن البرهنة العلمية الهادئة.

ويعتبر الكتاب ذو أهمية استثنائية لم تخطر ببال مؤلفه لأنه يأتي مؤشراً لنوع الخطاب الإيديولوجي الذي سيدعي التعويض عن فراغ الفكر في

المرحلة المابعدية القادمة.. التي تعود بالتاريخ إلى ما ليس بتاريخ ليؤكد المؤلف حكم الإعدام على كامل النسيج الفكري الذي يحمل اسم الماركسية.

لا يتمتع المؤلف بجهاز معرفي محدد سوى العنوان الرئيس الـذي تحـول إلى إثارة إعلامية كبيرة لاعتماده على الثيموس الأفلاطـوني، وجـدل هيغـل وبعـض أطروحات نيتشوية مجتزأة، واعترف بالذات وغيَّب مفهوم المساواة بل أراد تحقيق مبدأ الإخضاع بالقوة للذين اكتمال التاريخ عندهم ضد الذين مازالوا في التاريخ.

وترجمة الكتاب لأنه آخر تجليات الخطاب النخبوي لبقيـة العـالم ونحـن العرب منهم بل نحن ضحية التحقيق الأولى لمصير العالم.

شبه مقدمة:

بدأ الكتاب بفكرة مقالة كان فيها (أن الديمقراطية الليبرالية بإمكانها أن تشكل فعلاً منتهى التطور الإيديولوجي للإنسانية والشكل النهائي لأي حكم إنساني) ويعتمد على هيجل في توصيفه نهاية التاريخ في الدولة الليبرالية.

ودوافع تأليفه الخوف من أنبـاء كارثيـة حـول سـلامة أمـن الـسياسات الديمقراطية واكتشاف الضعف الهائل الملازم للدكتاتوريات العالمية.

كما أن منطق العلوم الفيزيائية الحديثة عينه قد يبدو أنه يفرض تطـوراً عاماً باتجاه الرأسمالية (ما علاقة هذا بالرأسـمالية) ويتنـاقض في الـربط بـين الفيزيائية الحديثة مع الحريـة الـسياسية، ويعتـبر أهميـة رغبتـه في الاعـتراف كمحرك للتاريخ تعيقها الدين والقومية والثقافة ومجمل العادات والتقاليـد في إقامة المؤسسات الديمقراطيـة الناجحـة أمـام الاقتـصاد الحـر واقتـصاد الـسوق. ويـسأل (هـل يوجـد بـشكل ملمـوس في العـالم الـراهن بـدائل للديمقراطية الليبرالية قابلة للحياة) ويعـترف بـأن الديمقراطيـة الليبراليـة

تستمر بالاعتراف اللامتساوي بين الناس الذين هم متساوون من الناحية المبدئية (تناقض واضح) ونيتشه يعترف بالديمقراطية الحديثة التي تجسد نوعاً من أخلاقية دنيئة، كانت الرغبة والعقل ماهرين في إيجاد وسائل جديدة من مجموعة الأهواء الحقيرة بفضل الأنانية.

القسم الأول (تشاؤمنا):

يطرح مقولة كانت بأن الحرب تخدم أهداف العناية الإلهية، يستدل بتوما الأكويني أن بإمكاننا الاستمرار بالإيمان بإله يبدي قوته على شكل عناية إلهية شديدة الحرص؟؟ (إن ما طرحه لا ينطبق على الإسلام لأن الإسلام ضد الاستبداد، والشهداء لإزالة الظلم والعدوان والاستبداد).

الحرب العالمية الأولى والثانية والمذابح في ألمانيا الهتلرية وروسيا الستالينية لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإنساني في إبادة اليهود في أوروبا والكولاك في الاتحاد السوفييتي وقصف مدينة دريسدن في ألمانيا وهيروشيما. تسمى المذابح البربرية في العصور السابقة (العلم بلا ضمير ليس سوى هدم للنفس).

ضعف الدولة القومية:

سقوط الاتحاد السوفييتي، وسقوط الديكتاتورية في إسبانيا والبرتغال واليونان، وقد أثبتت الحكومات العسكرية السلطوية أنها غير فعالة في معالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية في أمريكا اللاتينية وجنوب شرقي آسيا وجنوب إفريقيا.

بدأت الصحف السوفييتية تنشر مقالات نقدية للجرائم الستالينية.

الاتحاد السوفييتي يعاني من انخفاض في النمو إلى درجة الصفر.

احتقر الشعب السوفييتي من قبل قادته ومن مفكريه.

يصف الضعف في الاتحاد السوفييتي والصين. إضراب الطلاب في ساحة نيان آن مين الصين.

الثورة الليبرالية العالمية:

الإسلام له نظامه الأخلاقي الخاص وعقيدته الخاصة في العدالة السياسية والاجتماعية، هزم الديمقراطية الليبرالية في أجزاء متعددة من العالم الإسلامي العهد القديم للإنسانية/ تاريخ شمولي.

أرسطو في بحوثه كان يعتقد بأن ليس من نظام سياسي يستطيع إرضاء الإنسان حقاً ويعتقد مع أفلاطون (أن الديمقراطية تميل عامة على تهيئة الطريق للطغيان)، ص81.

يعتبر أن المسيحية كانت أول من أدخل مفهوم مساواة جميع الإنسان بنظر الله.

ونهاية التاريخ عند المسيحيين يحكمها يوم الدينونة الذي يفتح ملكوت السموات دوفو نتينيل (إن الإنسان لن يتراجع أبداً ولن يكون هناك نهاية لنمو وتطور الحكمة الإنسانية)، ص82.

وميكيافيلي أبو المفهوم الحديث هو الذي اقترح تحرير السياسة من الضغوطات الأخلاقية للفلسفة الكلاسيكية.

كوندورسيه في كتابه (تقدم الفكر الإنساني) كان يحوي تاريخ الإنسان في عشر مراحل ومن بينها العصر الأخير ـ على طريق الاكتمال ـ الذي يتميز بمساواة الفرص والحرية والعقلانية والديمقراطية والعلم للجميع، كما أنه يعتقد أن كمال الإنسان لا نهاية له، وكان يوحي بأن للتاريخ نقطة نهائية، وهي التي تحقق الحرية الإنسانية وهيجل يرى التقدم الناشئ لا يسير وفق تطور العقل الثابت، وإنما بحسب الأهواء العمياء التي تقود الناس إلى النزاعات

والثورة والحرب (دهاء العقل) إذن التطور يتم ضمن لعبة التناقضات وفق مسار الديالكتيك الهيجلي لتصل إلى تحقيق الحرية على سطح الأرض (وعي الحرية) ويحاول إثبات الكلام للمؤلف بليِّ العبارات بأنه أي هيجل سيصل إلى الديمقراطية الليبرالية علماً أنه كان متهماً ومغرماً بالدولة وبسلطتها وعدواً لليبرالية والديمقراطية، علماً أنه كان يضع الديالكتيك الهيغلي على تناقضات المجتمع التي تتطور إلى مجتمعات أخرى. وانهيار الامبراطورية الرومانية بالنسبة لهيغل أقامت المساواة الشاملة ولم تعترف بحقوقهم وكرامتهم الإنسانية (علماً أن هذا لم يكن معترفاً فيه في التقاليد اليهودية والمسيحية) فالأديان العالمية الكبرى لم تكن بالنسبة لهيغل صحيحة في ذاتها وهي ليست سوى إيديولوجيات منبثقة من الحاجات التاريخية الخاصة للشعوب التي تؤمن بها. والمسيحية في نظره بشكل خاص هي إيديولوجيا ولدت من العبودية، ص86.

كان بعض الفلاسفة يعتقدون (بالطبيعة الإنسانية) مجموعة من السمات ذات الطابع الدائم نسبياً كالأهواء والرغبات والقدرات والفضائل (ويستطيعون أن يتغيروا) ويريد أن يثبت أن مونتيثيل كان له فكرة نهاية التاريخ.

وهيغل حدد التاريخ كتقدم مضطرد للإنسان نحو أرفع المستويات العقلانية والحرية ويعتبرها نهاية الديالكتيك التاريخي. وماركس شاطر هيغل بالديالكتيك التاريخ في تطور المجتمع البدائي حتى وصل إلى أكثر تعقيداً. ونشاط هيغل بنهائية السيرورة التاريخية، إلا أن ماركس يرى الدولة الليبرالية فشلت في حل التناقض والصراع والطبيعي والصراع بين البرجوازية والبروليتاريا.

وأثبت أن الدولة الليبرالية لا تمثل شمولية الحرية بل انتصار الحرية لطبقة معينة وهي البرجوازية. والكسندر كوجيف كان يستفيد من طروحات

هيغل لتفسيره الخاص للحداثة وكان يعتبر هيجل على حق عندما قال بانتهاء العالم عام 1806 واستدرك بأن ما حدث من حروب وتحول روسيا إلى الشيوعية لا ينهي أهمية ما قاله هيجل.

ويعتبر تجسيد المجموعة الأوروبية في مؤسساتية ملائمة تماماً لنهاية التاريخ.

وظهرت نظريات كثيرة للتطور الاجتماعي؛ لاوغست كونت والداروويني الاجتماعي هربرت سبنسر وكان أكثر تشاؤماً (أوسو الدشبنغلر) في كتابه انحطاط الغرب وأرنولد توينبي (دراسة التاريخ).

وظهرت في أمريكا (نظرية التحديث) ويحلل: أن تقدم بريطانيا والولايات المتحدة صناعي وديمقراطي ولابد لكل الدول اتباع ما قامت به هذه الدول.

وماكس فيبر يعتمد نظرة يأس متشائمة تجاه عقلية وعلمية التقدم التاريخي للبشرية المتزايدتين وهذه النظرية وقعت ضحية تهمة التمركز الآتي مما أدى إلى تطوير علماء الاجتماع حتى يقنعوا الناس بعدم مركزية أثنية.

وكتّاب التاريخ الشمولي احتفظوا بدرجة معينة من النجاح الشعبي وهم من أمثال شبنغلر وتوينبي وصفوا انحطاط وتقهقر المؤسسات الغربية وتزايد القوى الديمقراطية في أجزاء من العالم حيث لا ينتظر ظهورها، وعدم استقرار الأشكال التسلطية للحكم والغياب الكامل للبدائل النظرية المتماسكة للديمقراطية الليبرالية أنها كلها تدفعنا إلى الاعتقاد بنجاح الديمقراطية الليبرالية.

أولية الرغبة:

التاريخ لا يمكن أن يكرر نفسه فهل العبودية يمكن أن تعود بأساليب أخرى (ما يجري في أفغانستان والعراق وفلسطين هي عبودية بشكل جديد وهيمنة القوى الكبرى، واستعمار اقتصادي بدعوى محاربة الإرهاب).

إن التحديث في اليابان وفي روسيا كان بسبب الخوف من الاستعمار الغربي أو هزيمة روسيا مع اليابان، وفي حرب القرم وانتصار نابليون في يينا الذي أدى إلى تحديث الجيش الروسي والتجنيد بالقرعة. وإلغاء القنانة وفتحت الطريق أمام الإصلاحات الليبرالية التي قام بها ستوليبين ثم بريسترويكا ميخائل غورباتشوف (التحديث الدفاعي) إن استمرار الحرب والتنافس العسكري بين الأمم يشكل لها بصورة متعارضة قوى توحيد كبرى. (فالفيزياء الحديثة تفرض ذاتها على الإنسان شاء أم أبى للحفاظ على استقلالها باستخدام القوى والتقنية الحاصلة من الفيزياء الحديثة) وحسب مقولة كانت (العدوانية بدلاً من التعاون هي التي تقود الإنسان أولاً على العيش في مجتمع يستهزئ بالقرآن قائلاً: (فعلم القرآن) كان غير قادر على إنتاج الطائرات الحربية من طراز ف 4 ودبابات شيغتن المطلوبة للدفاع عن إيران الخميني ضد طموحات جيرانها مثل العراق (لقد طورت إيران طائرات ف 6 وصار عندها طائرات ضخمة عسكرية وصاروخ بعيد المدى ودبابات ذات مواصفات عالية تحاول الوصول إلى السلاح التدميري (النووي والبيولوجي) ويؤكد على التنظيم العقلاني للعمل للتجديد التكنولوجي.

إن سبب تواجد المافيا في جنوب إيطاليا المتخلف نسبياً بدلاً من تواجدها في الشمال الصناعي. يريد أن يصل إلى التغيير الديماغوجي للمجتمع الذي تشكله الصناعة الحديثة والمؤسسات الكبرى التي تؤدي إلى انسياح الريف إلى مناطق تواجد هذه الصناعات وبالتالي تشكل تغييراً اجتماعياً.

والشركات الحديثة لا تُعنى بفرق البحث والتطوير حباً بالمعرفة المجردة وإنما لكسب المال. ويتوصل إلى أن الإنسان مجرد حيوان اقتصادي. وينهي بحثه عن أهمية الفيزياء الحديثة والمكتشفات التي تمت بناء عليها لا يمكن أن تفيد اتجاه التاريخ إلى ما قبل العملية وغير قابلة للارتداد.

ليس البرابرة على أبوابنا:

إن احتمال التدمير الكارثي لحضارتنا التقنية الحديثة وعودة هذه الحضارة إلى البربرة كان على الدوام موضوعاً للتخيلات العلمية، خاصة منذ نهاية الحرب. هل يمكن رفض التكنولوجيا والمجتمع العقلاني؟ الأصوليون الإسلاميون الحاليون والحركة الهيثية وحماة البيئة هاجمت مجمل المشروع الحديث للسيطرة على الطبيعة بواسطة العلم.

وأصولها عند جان جاك روسو الذي شكك بصلاح التقدم:

إن الناس تعساء ليس لأنهم يفشلون في إشباع مجموعة معينة من الرغبات بل بسبب الهوة التي تتعمق وتتجدد باستمرار بين الرغبات الجديدة واتباعها (الصناعة الاستهلاكية الإلكترونية الحديثة) هي المثل لهذه التعاسة. والسعيد عند روسو هو من يستطيع التخلص من روتين التقنية الحديثة، ومن دورة الرغبات التي يولدها إلى ما لا نهاية. وهل يمكن الاعتماد على روسو في أطروحاته للعودة إلى الطبيعة. ويطرح سيناريو إقامة الحرب النووية والصراع والإبادة والتغير الكلي للأرض وهل يمكن إيقاف التطور العلمي للباقين الذين لم يشتركوا بهذه الحروب التدميرية.

ويقف دون جواب ويكمن الجواب في الدين الذي يأمر بالعدل والحق وعدم القتل وإبرام معاهدات، يكمن بالإسلام الذي يحقق المعاهدات بين الدول.

التراكم بلا حدود:

التكنولوجيا والتنظيم العقلاني للعمل يشكلان الشرطين المسبقين لأي تصنيع يولد بدوره ظواهر اجتماعية مثل التمدين والبيروقراطية وقطع الروابط بين العائلات الكبيرة أو الروابط العشائرية والوصول إلى مستوى مرتفع من

الإعداد والتعليم، ولم نبرهن أن العلم يقود إلى الرأسمالية أو الديمقراطية الليبرالية، والمثال روسيا في فترة ستالين حيث أكد إسحق دويتشر في الخمسينات أن الاقتصادية المخططة والمركزية كانت أكثر فعالية من العمل الفوضوي لاقتصاديات السوق.

وإن الصناعات المؤممة كانت أكثر قدرة على تحديث مصانعها وتجهيزاتها من صناعات القطاع الخاص. الرأسمالية تعاني دائماً من فقدان الثقة من اليمين الديني التقليدي بأخلاقيتها وكذلك الاشتراكيين والماركسيين، علماً أن الرأسمالية هي أكثر فعالية من الأنظمة الاقتصادية ذات التخطيط المركزي (الواقع في الاتحاد السوفييتي وكثير من الدول).

لم تستطع الماركسية الممارسة الاقتصادية العالمية في الجودة لعدم وجود الخبراء والمبادرات الفردية والتشجيع (مخترع الطائرات الشهير توبوليف أرسله ستالين إلى معسكرات العمل حيث رسم هذا المهندس أفضل نماذج للطائرات في الصين، أرسله مع المهندسين والعلماء إلى الأعمال الزراعية وغيرها من المهمات المرهقة جداً، والمواقع التي تحتاج إلى كفاءات تقنية كانت تعطى للشيوعيين المضمونين سياسياً، إلا أن دنغ كسياوينغ أعاد اعتبار العلماء ثم صارت هي الطليعة الليبرالية البرجوازية وعملت دوراً كبيراً في عملية الإصلاح الاقتصادي في الصين.

انتصار الفيديو:

توقع لينين بعكس ستالين أو ماركس أن التناقض النهائي الذي قد يقضي على الرأسمالية لم يكن الصراع الطبقي داخل العالم المتطور، بل بين الشمال المتطور والبروليتاريا العالمية للبلدان المتخلفة.

وراوول بريبيش (اعتبر أن بقاء المناطق في حالة دائمة من النمو التابع وهكذا فغنى قوة الشمال ترتبط مباشرة بفقر الجنوب).

الشركات متعددة الجنسية تجبر بلدان العالم الثالث على نحو غير متوازن لتبقى مستهلكة لمنتجات الشمال. نظرية التبعية كانت إرادياً ضد الليبرالية.

نجحت دول جنوب شرق آسيا لإدخال الشركات المتعددة الجنسية والعمال ذوي الأجور الرخيصة، وأحد الموظفين في سنغافورة أظهر مساوئ (الهيبيين، والشباب ذوي الشعر الطويل وانتقادات الشركات متعددة الجنسية).

وعزا بعض الاقتصاديين أن التخطيط في السياسة الصناعية وليست الرأسمالية هي أساس نجاحها في (آسيا) ولكن المحللين الاقتصاديين لا يقبلون الأسلوب التسلطي للتخطيط الآسيوي مع ما يرافقه من قمع منتظم للمطالب العمالية والاجتماعية. وفي أمريكا اللاتينية بقيت الدولة بأسلوب المركنتيلية (دولة مديونة هاجسها القانون تلزيم احتكاري ومراكز متميزة تتعلق بنخبة صغيرة تتبع الدولة والدولة ذاتها تابعة لها) تدعو إلى ثورة وتفجير حرب عصابات في سبيل التوصل إلى السوق الحرة والانتقال مباشرة إلى الثورة الثانية الرأسمالية وتحاشي الثورة الاشتراكية السابقة وخاصة في دول أمريكا الجنوبية (إن نشر ثقافة الاستهلاك المعتمدة على المبادئ الاقتصادية الليبرالية قوة جذب هذا العالم إلى ثقافة الاستهلاك تملكها آلة الفيديو وبها يتحقق العصر النهائي للاقتصاد الليبرالي الديمقراطي).

في بلاد التربية:

مارتن ليبسيت قال: (إن هناك درجة عالية جداً من الترابط التجريبي بين الديمقراطية الثابتة من جهة ومستوى التطور الاقتصادي لبلد معين من

جهة أخرى، وكذلك مع مؤشرات أخرى تتعلق بالنمو الاقتصادي مثل التمدين والتربية).

هناك علاقة بين الديمقراطية والتطور الاقتصادي والتصنيع يقويها.

ويجد أن هناك علاقة بين الديمقراطية والنمو الاقتصادي يرفع مستوى الثقافي والدخل القومي.

وهذا ما جرى بعد وفاة فرانكو عام 1974.

والطبقات الوسطى القوية تولد من تعميم التعليم، والنخبة العلمية والتقنية المطلوبة لإدارة الاقتصاديات الصناعية الحديثة تتطلب درجة عالية من التحرر السياسي.

ويجيب على سؤال هام بأن النمو الاقتصادي لا يوصل حتماً إلى الديمقراطية السياسية جواب السؤال الأول.

حيث قال كانت: هل من الممكن كتابة تاريخ شامل من وجهة نظر كوسموبولتين (عالمياً) يعتبر الهلوكست هو الحدث الأكبر للحداثة والفاشية حالة مرضية.

والتاريخ الشامل لا يمكن كتابته لأنه لا يستطيع تعليل (عقلياً) كل الأحداث التي مرت، والحداثة فتحت أبواباً للشذوذ الأخلاقي وجعلتنا نشكك في مفهوم التقدم الأخلاقي.

لا ديمقراطية بدون ديمقراطيين:

الديمقراطية لا يجري اختيارها أبداً لأسباب اقتصادية لأن خيار الازدهار قد وجد فعلاً بدون الحرية فمثلاً دنغ كسياوينغ قدم إلى بلاده التحرر والتحديث الاقتصادي تحت الوصاية المستمرة للحزب الشيوعي الدكتاتوري، لأن هناك كثيرين قد خاطروا بأنفسهم وأملاكهم للنضال من أجل الحقوق

الديمقراطية. إذن لا ديمقراطية بدون ديمقراطيين فالمحرك للتاريخ الإنساني عند هيجل ليست الفيزياء الحديثة. ويعتبر المحرك هو من أجل الاعتراف.

يتوصل المؤلف إلى سؤال؛ هل يوجد في نظامنا الاجتماعي الديمقراطي تناقضات يمكن أن تقودنا للاعتقاد أن العملية التاريخية سوف تستمر بما يكفي لأن يحدث في نهاية المطاف انهيار المجتمعات الديمقراطية الليبرالية بمجملها (عجز الميزانيات، التضخم، الجرائم والمخدرات) ويعتبرها ليست تناقضات لأن النظام يمكنه حلها؟ (أقول إن انهيار كبرى الشركات في النظام الرأسمالي، وانتقال المصانع الكبرى بغية إيجاد أجور ضعيفة، والتهرب من الضرائب سيؤدي إلى تناقضات اجتماعية مع العمال المطرودين من معاملهم بأعداد هائلة، وزيادة البطالة، وتدني الأجور كلها تناقضات في الرأسمالية وزيادة هروب الشركات المتعددة الجنسية إلى الهند وجنوب شرقي آسيا والفيلبين وأندونيسيا وماليزيا سيؤدي إلى تراجع كبير في النمو الاقتصادي للدول الرأسمالية).

يقول كوجيف: (العالم الديمقراطي الليبرالي متحرر من التناقضات).

الصراع من أجل الاعتراف:

في البدء كان صراع حتى الموت من أجل التمييز وحده.

قال هيجل وكوجيف كل الصراعات كانت للوصول والرغبة بالاعتراف بالذات، لوك الفيلسوف والمصدر الأساسي لليبرالية مع هوبس.

ولكن لوك مع برجوازية لا أخلاقية تنشغل بالرفاهية المادية الذاتية ولا يهتم بالصالح العام ولا يعنى بالمجموعة الإنسانية التي تحيط به.

بينما هيغل يرتكز على ليبرالية ترتكز على الجزء اللاأناني من الشخصية الإنسانية للمحافظة على المشروع السياسي الحديث.

ولكن هيمنة الاقتصاد أنستنا فكرة (الصراع من أجل الاعتراف) فالإنسان عند روسو ولوك وهوبس هو إنسان الطبيعة ويشترك مع الحيوان بالحاجات كالغذاء والمأوى.

فالإنسان عند هيغل يحتاج مع كل هذه إلى رغبة باعتراف الناس الآخرين به (وعي الذات) ووعي هويته الإنسانية المتميزة.

الحرية عند الأنكلوساكسوني تفهم على العموم بأنها غياب الإكراه وحسب توماس هوبس (تعني الحرية غياب المعارضة ـ وأعني بالمعارضة العوائق الخارجية أمام العمل ـ الإنسان عند هوبس آلة بالغة التعقيد وهو مجموعة من سلسلة الأهواء الرئيسة: الفرح، الألم، الخوف، الأمل، الاحتقار، والطموح).

الإنسان عند هيغل غير محدد من قبل الطبيعة بشكل جذري (له معنى ميتافيزيقي) والكرامة هي إحدى خصائصه.

إن المعارك الدامية بين الناس الأوائل عند هيغل ليست إلا نقطة انطلاق للديالكتيك الهيغلي، وتاريخ الصراع لتحقيق الاحترام والكرامة وتبادل المساواة.. وتختلف بين هيكل وهوبس ولوك. الديمقراطية الليبرالية المعاصرة.

الإنسان الأول:

الديمقراطية الليبرالية المعاصرة الأميركية تعود إلى كتابات جيفرسون وماديسون وهاملتون وغيرهم من الأدباء المؤسسين الذين سبقوا توماس هوبس وجون لوك، وهيغل يختلف عن التقليد الليبرالي الأنكلوساكسوني تجاه رغبة الاعتراف وتجاه الثيموس بشكل أعم. لوك يؤكد على حق الثورة ضد الطغيان وهوبس يؤكد نظريته عن السيادة الملكية المطلقة.

هوبس وهيغل يتفقان على أن كبرياء الإنسان أو رغبته أن يُعترف به تمر منه إلى المخاطرة بحياته في معرض من أجل الاعتبار والخوف من الآخر يجعله يقبل عبودية الدولة، عند هوبس هي عقد اجتماعي فالمصدر الوحيد لشرعية الدولة هو قدرتها على حماية هذه الحقوق التي يملكها الأفراد ككائنات إنسانية.

هوبس (أعطى الله السلطة الكبرى للأفياثان فقد سماه ملك الكبرياء ويؤمن بالملكية المطلقة (حق الملوك الإلهي للحكم).

بينما جون لوك يحول نظرية السيادة الملكية بحسب هوبس كاتجاه السيادة البرلمانية أو التشريعية التي ترتكز على سلطة الأكثرية للحفاظ على غريزة البقاء لأن حق الحياة هو الحق الأساسي.

هيغل يختلف عن هوبس ولوك لأنه يسعى للاحتفاظ ببعد أخلاقي للحياة الإنسانية (محرك الديالكتي للتاريخ، عند هيغل الحصول على الاعتراف بذاته).

عطلة في بلغاريا:

الثيموس (حماس الشعور) والاعتراف بالرغبة وهو غير مادي (رغبة الاعتراف بالذات).

فكلاف هافيل أول رئيس للجمهورية التشيكوسلوفاكية له مقال: (سلطة العاجزين) (قصة التاجر الذي كتب أمام متجره (يا عمال العالم أجمع اتحدوا) يعالج فكرة الخوف عند التاجر للحماية من السلطة القمعية الشيوعية، والإغراء عند بريجينيف بالسفر إلى بلغاريا كهدية للعمال المجدين كلها فيها الثيموس (الرغبة).

الوحش ذو الوجنتين الحمراوين:

أبراهام لنكولن (إلا أن أحكام الله لعادلة ومحقة).

لوك (ليس لأي إنسان أن يكون حكماً عادلاً تجاه ذات نفسه).

الصراع في الدول الشيوعية مع المتظاهرين وقوة الثيموس الجماعي أزاح كل السلطات الشيوعية في روسيا وبلغاريا والعديد من الدول الشرقية، وثورة طلاب الصين كلها هي بدايات التضحية للوصول إلى الديمقراطية..

عظمة الثيموس وانحطاطه:

الفلاسفة يعتبرون الثيموس هو أصل الشر الرئيس على أرض الإنسان.

(إن الإنسان لا يكافح من أجل السعادة وحده، الإنكليزي يفعل ذلك) نيتشه/ غروب الآلهة: إن الفلاسفة دفعهم الطغيان إلى الاعتقاد أن الثيموس هو أصل الشر الرئيس على أرض الإنسان ولكن وجود بعدٍ أخلاقي في الشخصية الإنسانية من شأنه أن يقدر باستمرار الذات والآخرين، إن بعض الناس يسعى لأن يُعترف به كمتفوق على الآخرين (أو جنون العظمة) ميكافيلي يحاول بناء نظام سياسي حرٍ انطلاقاً من شرور الناس (الميغالوثيميا) (هذه الشرور يمكن أن توضع في خدمة غايات مرضية إذا جرى تنظيمها بشكل ملائم عن طريق مؤسسات مناسبة، رغبة المجد بدفع الناس الطموحين إلى الطغيان والبقية إلى العبودية (الميغالوثيميا) هي جنون العظمة.

هوبس ولوك مؤسسا الليبرالية الحديثة حاولا اقتلاع الثيموس من الحياة السياسية واستبداله بخليط من الرغبة والعقل (الكبرياء المهووس والعنيد عند الأمراء والتعصب الديني عند رجال الدين الملتزمين هي أسباب للحرب).

الأرستقراطي كان يسرق من المحاربين الآخرين ويختلس من الفلاحين كل الفوائض.

إن عملية التحديث هي انتصار المتدرج للجزء الراغب والنفس تحت قيادة العقل.

مبادئ لوك انتصار الجزء الراغب في النفس، لاكتساب الملكية.. إعاقة الطموح أدت بالسياسة الأميركية أن تبعد وجود أمثال يوليوس قيصر أو نابليون، بل جعلت جيمي كارتر ورونالد ريغان كخادم للشعب لا سيده.

ولذلك نيتشه يريد مجتمعاً (أناس بلا شجاعة) وإن الليبرالية الحديثة حاولت إقصاء أية ميغالوثيميا (جنون العظمة) من حياتنا السياسية.

السيد والعبد:

قال ألكسندر كوجيف (إن العبودية العاملة هي على العكس مصدر لكل تقدم بشري اجتماعي وتاريخي، فإن التاريخ هو تاريخ العبد العامل).

الصراع بين السيد والعبد شكل تناقضاً في المجتمعات القائمة على العبودية، هيغل في ظواهرية الروح تدعوه للوصول إلى الحرية والمساواة هي المسيحية (الدين المطلق) لأن الدين أقام مبدأ المساواة الشاملة بين جميع البشر في نظر الله.

المسيحية تجعل تحقق الحرية الإنسانية ليس على الأرض هنا وإنما فقط في ملكوت السماء ويعتبر هيغل أن الإنسان خلق الله ويعتبر المسيحية شكلاً من الاستلاب أي شكلاً جديداً من العبودية (هيغل يقول: إن اكتمال العملية السياسية يتطلب فقط علمنة المسيحية (عن طريق تحقيق المعرفة المطلقة والوعي الذاتي من قبل العبد).

الجولة الشمولية والمنسجمة:

هيغل (إن وجود الدولة هو إحياء الله للعالم) فلسفة الحق.

فالدولة الديمقراطية الليبرالية الحديثة التي أبصرت النور إثر الثورة الفرنسية كانت تحقيقاً للمثل الأعلى المسيحي حول الحرية والمساواة الإنسانيتين دون إبطاء.

المجتمع الليبرالي في إعلان الاستقلال عقداً اجتماعياً بين أفراد يملكون بعض الحقوق الطبيعية وأهمها حق الحياة أما بالنسبة لهيغل فالمجتمع الليبرالي اتفاق متساوٍ ومتبادل بين مواطنين من أجل الاعتراف ببعضهم.

يهاجم الدولة القومية لأنها ستشكل حرباً جديدة وإعادة دولة مستعبدة ودولة سيدة حاكمة إثر الحروب.. (يعتبرها دولة لا عقلانية).

أما الدولة الليبرالية فهي دولة عقلانية (شاملة منسجمة وتعترف بجميع الناس بشكل شامل، كما يمكن أن نأخذ بالاعتبار الدرجة المرتفعة للترابط بين التصنيع المتقدم والديمقراطية الليبرالية.

اعتبر ألكسندر كوجيف في تفسيره لهيغل أن الدولة الشمولية والمنسجمة قد تكون الدولة الأخيرة في التاريخ الإنساني، أما لوك ولاماراك فلم يحسبا حساباً إلا للرغبة والفعل بينما هيغل وكوجيف أظهرا أهمية الميتافيزيقيا والنفسانية للاعتراف ويعترف كوجيف أننا أصبحنا اليوم في نهاية التاريخ لأن الديمقراطية الليبرالية نجحت في إحداث تآلف بين أخلاقية السيد وأخلاقية العبد..

سقوط رودس (أبرد كل الأشباح الباردة):

سوف لا يبقى في نهاية التاريخ أي منافس حقيقي للديمقراطية الليبرالية.. ولكنه اليوم غدا العالم الإسلامي، ثمة على ما يبدو بروز اتفاق عام يقبل بشرعية ادعاءات الديمقراطية الليبرالية في أن تكون شكل الحكم الأكثر عقلانية، التسامح هو الصفة الأساسية للديمقراطية الليبرالية.

النمط الأول: لا تعارض بين الديمقراطية والقومية..

العائق أمام الديمقراطي عائق ثقافي يتعلق بالدين، البروتستانتية فصلت الدين عن السياسة، البوذية والهندوسية والكنفوشوسية مذاهب متسامحة نسبياً.

اليهودية والأرثوذكسية والإسلام الأصولي هما دينان كليانيان (توتكيثاري) الإسلام مثل المسيحية يقر مبدأ المساواة الكلية بين كل البشر.

إن القومية والدين يعودان إلى رغبة الاعتراف.

تركيا الوحيدة وضعت موروثها الديني جانباً لصالح مجتمع علماني رسمي.

إن شعباً معيناً لا يمكنه أن يصبح ديمقراطياً لأسباب ثقافية عميقة تصبح بحد ذاتها عائقاً لا يستهان به أمام الدقرطة.

أصول العمل الثيموسية:

كان هيغل (يعتقد أن العمل هو الماهية، ماهية الإنسان الحقيقية، هناك ارتباط قوي ومتبادل بين التصنيع المتطور والديمقراطية، والثقافة تؤثر في السلوك الاقتصادي (أخلاقية العمل) ولا يوجد خاصية قومية، والنجاحات الاقتصادية ترتبط فقط بظروف المحيط، نجاح ألمانيا بالاقتصاد الكبير يكمن في المجال الثقافي.

رغبة النفع المادي تدفعه للمزيد من المتعة بالعمل (الرغبة والعقل).

الثيموس (الرغبة في الاعتراف بالذات) سبب كبير في المتعة في العمل، يعملون لإرضاء ثيموسهم، فيبر يقر أن هناك علاقة بين الدين والسلوك الاقتصادي وبانخفاض الإجرام واستعمال المخدرات. العمل في اليابان يعود إلى المصادر الدينية، القومية البوذية تدعو للاقتصاد مع موقف زهدي تجاه الاستهلاك.

الهندوسية لا تتأسس على المساواة بين كل البشر وتقدس الفقر والجمود الاجتماعي للطبقة الدنيا (غاندي) (إن الفقر الهندي يجرد الإنسان من إنسانيته أكثر من أية آلة تقديس تعتبر عائقاً اقتصادياً كبيراً).

إن التوظيف مدى الحياة يؤدي إلى ضعف المردودية الاقتصادية الغربية واليابانية، الدينية والقومية لا تزال تؤثر على السلوك الاقتصادي.

امبراطورية الحقد، امبراطوريات الاحترام:

المتغيرات التسلطية يمكن أن تحكم في المستقبل.

النهضة الحالية للأصولية الإسلامية ينظر إليها كرد فعل على الفشل الاقتصادي للمجتمعات الإسلامية.

تركيا في عهد أتاتورك عملت لبناء مجتمع علماني مؤسس على القومية.

وكذلك مصر عبد الناصر وحزب البعث السوري والعراقي واللبناني.

وهزيمة العرب أمام إسرائيل 67 وبقاء العالم العربي مستعمراً في الحرب العالمية الثانية. والأصولية الإسلامية تمتلك أكثر من وجه شبه سطحي مع الفاشية الأوروبية. السود في الولايات المتحدة يشكلون مشكلة متعلقة بالقيم ونجاح آسيا ليس باستيراد الثقافة الغربية للتقنية بل بأخلاقية العمل، القومية الديمقراطية اليابانية تأخذ شكلاً تسلطياً بحسب المواصفات الأمريكية والغربية، اليابان محكوم في الواقع من قبل سلطة خبيرة لحزب وحيد.

سنغافورة أرقى من الديمقراطية الليبرالية نجحت مع تقييد لبعض الأصول. الحضارة الأوروبية والأميركية فاقدة للروح الجماعية.

لا واقعية (الواقعية):

النظرة التشاؤمية للعلاقات الدولية على صياغة نظامية تحت العنوان المتغير للواقعية (أو سياسة القوى).

إن المؤسس الحقيقي للواقعية هو ماكيافيللي (استلهام طريق عيشهم الطريقة التي يحبونها) وكسينجر هو المدافع الأساسي عن الواقعية في الجيل الأخير.

كل نظريات الواقعية تنطلق من فرضية غياب الأمن (الطابع الفوضوي).

الشعور الوهمي بالخطر يؤدي إلى إجراءات دفاعية.. (زيادة حجم قوتها).

أمريكا وروسيا تريدان تصميم تصورهما حول العدالة.

إن الواقعية هي نظرة متطابقة مع السياسة الدولية في قرن يسوده التشاؤم.

كيسنجر يعتبر التاريخ مجرد تتابع فوضوي ويجب أن نفهم أسباب الحرب بين الأمم.

كيسنجر اقتراح زيادة الصواريخ النووية في ألمانيا لحماية الغرب.

سلطة العاجزين:

دوام الحرب عبر التاريخ البشري / هوبس: الإنسان في حالة دائمة من حرب الكل ضد الكل وخاصة المشبعين بالفكر الديني المتعصب.

إن السبب الأساسي لنشوب الحرب بين الدول هو الثيموس وليس غريزة البقاء وهو المصدر الأصلي للإمبريالية، فالإمبريالية والحرب كانتا نتيجتين تاريخيتين للمجتمعات الأرستقراطية. الليبرالية في بريطانيا أجبرت الدين على التسامح (بين الكاثوليك والبروتستانت) (مازالت الحرب قائمة بين إيرلندا وإنكلترا أي بين الكاثوليك والبروتستانت).

إن الحرب قصدت معناها الاقتصادي ـ أمريكا والعراق، وأفغانستان..

الديمقراطية الليبرالية كبلت غرائز الإنسان الطبيعية العدوانية والعنيفة وأزالت أسباب الإمبريالية (كذب وهراء ما يحدث في العراق وأفغانستان).

المصالح القومية:

نمو الدول القومية الحديثة: عدة نتائج هامة أثرت على طبيعة السياسة الدولية القومية؛ يعتبرها ظاهرة لا عقلانية بشكل تام. تحت ضغط التوجه القومي سقطت امبراطوريات متعددة الجنسيات واعتبر الصحافيون والجامعيون القومية وكأنها تعكس مطلباً سياسياً وعميقاً للطبيعة البشرية.

الصراع القومي في البلقان/ القوى الاقتصادية تريد كسر الحدود القومية بواسطة بعث سوق عالمي موحد.

نحو وحدة سلمية:

الدول ما بعد التاريخي والتي تعمل لمحور اقتصادي متعدد الأقطاب بتوحيد الأسواق والإنتاج، ستواصل العراق وليبيا غزوهما لجيرانها.. (انتهت العراق وتوقفت ليبيا عن أي تحرك عسكري) كانت يدعو إلى رابطة عالمية للدولة الديمقراطية بواسطة نظام دستوري بكتابه (السلام الدائم) (فكرة تاريخ كلي).

الأمم المتحدة، ومجلس الأمن لم يستطيعا أن يحلا مشكلة الأمن الدولية،وهما يدعوان إلى وحدة بين الدول الديمقراطية الليبرالية لإحلال السلام العالمي بالقوة.

الإنسان الأخير (في مملكة الحرية):

تقدمت الديمقراطية الليبرالية في القرن العشرين على خصمها الفاشية والشيوعية وتتحقق في الديمقراطية مبادئ المساواة والحرية (وهذا

كـذب وافـتراء) رغـم وجـود الـنظم الـسلطوية والثيوقراطيـة والقومويـة المتعصبة.

وهل ستنهار ذات يوم تحت تأثير فساد داخلي كما حصل للشيوعية؟.

لأنها تنوء بمشكلات كالبطالة والتلوث والمخدرات والجريمـة (وعـدم تكافؤ الفرص) فلـو أنهـا لا تملـك هـذه الإشـكالات لقلنـا حـسب هيجـل، وكوجيف أدركنا نهاية التاريخ ولذلك نتيجة نمو الإنـسان الأول مـا يـصوره هوبس ولوك وروسو وهيغـل لقـد حـاول المـشروع الماركـسي تطـوير شـكل متطرف من المساواة الاجتماعية على حساب الحرية وفـشل المـشروع الماركـسي لأنه جرد الناس من كل حقوقهم.

إن إفراطات الحرية (المثليي الجنسية) جرائم.

الكرامة لأنه قادر على الاختيار الأخلاقي.

إن بقاء الغير يستمر نجاحه (لا كرامة له) يدعو المـستقبل لإيجـاد بـدائل من قبل اليساريين للديمقراطية الليبرالية والرأسمالية.

أناس بدون جرأة:

الإنسان الأخير عند نيتشه هو العبد المنتصر. المسيحية كانت أيديولوجية العبد. كان نيتشه مناصراً جذرياً لفكرة عدم التـساوي بـين البـشر مـع توجـه سياسي مناوئ بشدة للديمقراطية.

كان خوف نيتشه الأعظم أن تنتصر الطريقة الأميريكية للحياة.

نهاية التاريخ تعني نهاية الحروب والثورات الدموية والتوصل إلى مجتمع ينجح فيه بإلغاء الظلـم، إن حياة الأخير هي حيـاة الأمـان الشخـصي والـوفرة المادية.

أحرار وغير متساوين:

كان نيتشه يعارض بطريقة مكشوفة الديمقراطية والعقلانية التي تقوم عليها. كان يدعو لولادة أخلاقية جديدة من شأنها أن تعزز القوي على حساب الضعيف، يرفض تدفئة يديه بالشتاء وأصيب بالجنون آخر حياته.

ومركز اهتمامه كان رغبة الاعتراف وهذه الرغبة كانت مهددة بانتشار الديمقراطية والمخرج الأول والأهم في مجتمع ديمقراطي ليبرالي هو روحية المبادرة والعمل. الدينمقراطية تجذب أصحاب الطموح ليعترف بهم أنهم الأعظم كجورج بوش الأب.

أورد فينغات: كان مهمشاً في إنكلترا ولكنه أسدى العون ليهود فلسطين في سبيل تشكيل جيش.

كوجيف قال: بدلاً من أن نرى اليابان يتغربن (يصبح غربياً) به فسوف نرى الغرب بما فيه روسيا يتبينن (يصبح يابانياً).

حقوق كاملة وواجبات ناقصة:

الحياة التعاونية للمدنية في الدولة الحديثة.. حقوق تامة وليس لهم واجبات تامة، النسبة العالية جداً من حالات الطلاق، غياب السلطة الأبوية، عتاهة الأطفال. وكان أبراهام لينكولن لا يتردد في التأكيد أن الحرية تفترض وتتطلب الاعتراف بالله، التخلي عن كل الأخلاقيات والأصوليات والتعصبات الدينية واستبدالها بالتسامح والانفتاح في مناخ ثقافي.

حروب الروح الكبرى:

مدعوون لحرب مدمرة جديدة؛ تصور هيغل السلام والازدهار المحققين في نهاية التاريخ تبقى رغبة الافتخار بإنسانيته وسينحطون من حالة

الإنـسان المـواطن إلى البرجـوازي وسـيتولد روح الـضجر التـي تـؤدي إلى الحروب.

إن الفكر الحديث لا يضع أية عقبة أمـام حـرب عدميـة مـستقبلية ضـد الديمقراطية الليبرالية. اعتبر نيتـشه المـؤمن بمـذهب القـوة والـسيطرة وأنهـا ستؤدي إلى حروب واسعة للروح ولكن المؤلف يؤكد على كـون الديمقراطيـة الليبرالية هي الحل الممكن الأفضل للمسألة الإنسانية.

الكتاب دفاع عن الديمقراطية الليبرالية وأنها نهاية تاريخ الفكر البشري ونهاية فلسفة الصراع الفكري والفلاسفة الـديالكتيك، والليـبرالي هـو تنظـير سياسي للخارجية الأمريكية بأنها هي مصدر الفكـر الـواقعي الـذي يجـب أن تصدره إلى العالم كدولة مركزية وإمبراطورية شـاملة وقويـة في اقتـصادها وفي عتادها العسكري وإمكانية الهيمنـة عـلى كـل العـام. ويحـاول الـرد عـلى كـل المقولات الفلسفية والتاريخية، وبإمكان صعود حالة أخرى أو إمكانيـة تحطـيم ما توصلت إليه الأفكار الأمريكية ويستشهد بفلاسـفة كثـيرين أمثـال هيجـل وكانت وكوجيف وغيرهم، ويدافع عن النظرة البراغماتيـة النفعيـة الذرائعيـة وأنها نقلة نوعية من الفلسفة النظرية إلى الفلسفة العلمية.

وينتقد كل الذين يظهرون مساوئ الليبرالية الأمريكية ويطلب من كـل المنظرين إظهار البدائل ويتهكم على كل من يظـن أن بإمكـان البـشرية إظهـار بديل ممكن لنهاية تاريخ الفكر الإنساني، ولا يتكلم عـن أخطـاء الديمقراطيـة التي لها عيوب كثيرة ودحضها مفكرون كثيرون في كتب وبيانـات، وخـير مـا يقال عن الكتاب ما قاله مطاع صفدي أنه أفكار صحفية بدأت مقالة وانتهـت كتاباً. ولكن الكتاب يتناسى وجود عالم عربي وإسلامي وإفريقي وأسترالي فلا

يعتبرهم موجودين على الساحة الدولية، إلا بعض كلمات تحدث بها عن العرب والمسلمين بشكل مقتضب. وأعتقد أنه عن قصد أهمل دور العرب والمسلمين واعتبرهم على هامش التاريخ المعاصر، وليس لهم أي دور فاعل في الأحداث الدولية ولم يتكلم عن حق الشعب الفلسطيني وإمكانية الحرب بين العرب والكيان الصهيوني المغتصب لأرض شعب كامل مشرد، ولا يتكلم عن الظلم الذي يعانيه الفلسطينيون في الأرض المحتلة.

كما أنه لم يتكلم عن الحلول للمشاكل التي تعاني منها الرأسمالية الليبرالية الغربية من الأخطاء الجسيمة التي ذكر بعضها ومر عليها مروراً غير مبالٍ في أهمية هذه الأخطاء والحلول لها مركزاً على فكرة نهاية التاريخ بصمود الدولة الديمقراطية الليبرالية الأمريكية والغربية بشكل عام..

صـــدام الحضـــارات

صاموئيل هينتغتون

ظهر تيار فكري في الغرب بهرته الإمبراطورية الأمريكية، التي تمكنت من الهيمنة على قرار الأمم المتحدة وعلى مجلس الأمن الدولي. وظهر مع هذا التيار شخصيات فكرية وأدبية أمثال برنارد لويس وفوكوياما وهنتغتون الذين قاموا بدراسة الحضارات. وآخر كتاب صدر عن هنتغتون هو (صدام الحضارات) (إعادة صنع النظام العالمي) ويتلخص هذا الكتاب فيما يلي:

في مقدمته وضح أسس كتابه عن مفهوم الحضارات، والعلاقة بين القوة والثقافة، ويقول: (إن صدام الحضارات هو الخطر الأكثر تهديداً للسلام العالمي، وإن نظاماً عالمياً يقوم على الحضارات هو الضمان الأكيد ضد حرب عالمية).

ويقسم كتابه إلى أجزاء:

واحتوى الفصل الأول (الحقبة الجديدة في السياسة العالمية):

ويقسم الفصل إلى أجزاء:

الجزء الأول: عالم متعدد الأقطاب متعدد الحضارات.

وقد كان الصراع يدور خارج المعسكرين في العالم الثالث في دول فقيرة تفتقر إلى الاستقلال السياسي.

وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي ظهرت حضارات اهتمت بثقافاتها ولغتها وتاريخها وقيمها ودينها.

الجزء الثاني: ميزان القوى بين الحضارات يتغير.

الجزء الثالث: نظام عالمي جديد قائم على الحضارة يخرج إلى حيز الوجود.

الجزء الرابع: مزاعم الغرب في العالمية تضعه بشكل متزايد في صراع مع الحضارات الأخرى وأخطرها مع الإسلام والصين.

الجزء الخامس: إن بقاء الغرب يتوقف على الأميريكيين بتأكيدهم على الهوية الغربية وعلى كون حضارتهم فريدة ويتحدون للحفاظ عليها.

ويؤكد هنري كيسنجر (أن الصراعات ستكون بين الشعوب التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة).

اتهم الثقافة الإسلامية وهي التي تفسر فشل قيام الديمقراطية في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي (وذلك لأن الإسلاميين ضد الديمقراطية حتى فيما بينهم وفي أحزابهم وجماعاتهم لأن الفردية صفة غالبة عليهم).

كما يهاجم الدولة الأرثوذوكسية الإسلامية بأن النجاح عندهم في حالة كئيبة ويبين بشكل دقيق أن موازين القوى العسكرية في حالة اضطراب.

ويعطي إحصائيات دقيقة حول خفض الميزانيات العسكرية في أوروبا بينما في الشرق تزداد الميزانيات العسكرية.

ويظهر أن الحروب البينية بعد 1993 بين الدول بلغت 48 حرباً داخلية مع الجوار ويؤكد ما قاله فرانسيس فوكوياما (ربما نشهد نهاية التاريخ مما هو: نقطة النهاية للتطور الأيديولوجي للبشرية وتعميم الليبرالية الديمقراطية الغربية على مستوى العالم بشكل نهائي للحكومة الإنسانية) ويؤكد على أنها حرب الأفكار، ولكن تنامي الأصولية الدينية والتطهير العرقي يوقف تقسيم العالم إلى شرق وغرب أو شمال وجنوب.

ويؤكد على العلاقة بين الدول (184 دولة) هي علاقة فوضى.

ويذكرنا بقول كريستوفر وزير خارجية الولايات المتحدة الذي يدعي (النسبية الثقافية) وتحالف الدول الإسلامية والكونفوشية الرافضة لمبدأ العالمية الأميريكية.

ويدعو إلى إيجاد خريطة للعالم المعاصر لحصار كل حضارت ومعرفة كل ما يجري فيها وإذا لم نفعل فيكون التخبط الفادح حسب قول (فرناند برودل).

الفصل الثاني: الحضارات في التاريخ واليوم:

1 ـ اكتشف العلماء عددهم في العالم وقالوا بأن هناك فروقاً بين الحضارة بمعناها المفرد والحضارات بمعناها الجمعي.

2 ـ الحضارة كيان ثقافي ولكنه يؤكد على الحضارة والثقافة معاً.

3 ـ الحضارة شاملة.

4 ـ الحضارات فانية وليست أبدية وأنها تمر بمراحل مختلفة الامتزاح، الحمل، التوسع، عصر الصراع، الإمبراطورية الكونية، التآكل، الغزو. ويرى توينبي أن الحضارة تقوم رداً على تحديات بفضل أقلية خلاقة (نخبة).

5 ـ الحضارات كيانات ثقافية وليست كيانات سياسية.

وقد اتفقوا على أن الحضارات عبر التاريخ (12) حضارة بقي منها (5) الصينية واليابانية والهندية والإسلامية والغرب.

يتهم الحضارة الأوروبية بالظلم والصراع الطبقي والكهنوت والتخلف.

الحضارة الأمريكية أرض الحرية والمساواة والفرصة والمستقبل.

كريستوفر داوسن: (الأديان الكبرى هي الأسس التي تعتمد عليها الحضارات الكبرى) توينبي يعتبر الحضارة اليهودية (حضارة معتقلة).

(صعود الغرب كان يعتمد على ممارسة القوة إلى حد كبير).

ويسيطر على العالم بسبب تفوقه في تطبيق العنف المنظم.

وتوينبي ينتقد بشدة ضيق أفق الغرب ووقاحته في الأوهام المتمركزة حول الذات بأن العالم يدور حوله وأن هناك شرقاً ثابتاً وأن التقدم ضمني.

ويخلص إلى أن القرن العشرين أثبت أن ما كان يقال عن الحضارة الغربية وهم وضيق أفق، وزعم أن الحضارة الغربية الأوروبية هي الحضارة العالمية اليوم.

الفصل الثالث: حضارة عالمية؟ التحديث والتغريب:

1 ـ البشر في كل المجتمعات يشتركون في قيم أساسية معينة ولديهم حسٌّ أخلاقي مماثل.

2 ـ الحضارة العالمية مجموعة افتراضات وقيم ومبادئ يجتمعون عليها مثل (ثقافة دافوس) ويقول هيدلي بول: هي ثقافة النخبة وليست ثقافة المجتمعات وليس بيدهم القرار.

3 ـ الفكرة تقوم على انتشار أنماط الاستهلاك الغربية.

ويرد عليهم بأن أفلام هيوليود هي التي تجعل سيطرة أمريكا على السينما العالمية والتلفزيون والفيديو تفوق سيطرتها على صناعة الطائرات ومؤسسات أمريكية وأوروبية تسيطر على جمع ونشر الأخبار على مستوى الكون. ويرد عليهم مايكل فلاهوس (التسلية لاتعادل التحول الثقافي) وقد توصل العالم إلى أن الاستعمار الثقافي صار له ردة فعل للانحياز إلى ثقافتهم المحلية ورفض الغرب مع العداء له.

ويدعو إلى أهمية اللغة لوجود لغة عالمية ودين عالمي لتشكيل الحضارة العالمية والواقع أثبت تناقض الذين يتكلمون اللغة الإنكليزية وتنامي اللغات الأخرى كالهندية والعربية والصينية.

ويقول عن الدين: (احتمال ظهور دين عالمي جديد وانتشار الإلحاد وتزايد المسيحيين ولكن محمداً في النهاية سينتصر)، ص108.

وتصل نسبة المسلمين 30٪ من سكان العالم عام (2000).

بينما يتناقص المسيحيون إلى 25٪ عام (2025).

يتهم الإسلام بأن الله فيه هو القيصر وهذا مخالف جداً لتعاليم الإسلام والسمة البارزة للحياة الأوروبية والحضارةالغربية هي فصل السلطة الدينية عن السلطة الروحية.

العدل والقانون ـ النيابة والديمقراطية الفردانية.

ويشير إلى ما قاله دانييل بيبس بأن الأصوليين المتشددين في الإسلام هم وحدهم الذين يرفضون التحديث والتغريب ويلقون بالتلفزيون في الأنهار ولكن السلطات واجهتهم بعنف مما أدى إلى اختفائهم ويربط التحديث بالتغريب كما فعل أتاتورك.

ويصل إلى مقولة خطيرة وهي: (القيم الدينية والافتراضات الأخلاقية والبنى الاجتماعية لتلك المجتمعات (غير الغربية) هي في أحسن الأحوال (غريبة وأحياناً معادية لقيم وممارسات التصنيع).

ويؤكد على مقالة (بيبس) المعيار الوحيد للإسلام هو قبول الغرب لأن الإسلام لا يقدم بديلاً للتحديث ولابد من الاعتراف بالهيمنة الغربية حتى يرتقوا.

الصين اعترفت: (المعرفة الصينية من أجل المبادئ الأساسية والمعرفة الغربية من أجل الاستخدام العلمي) ويعتبره ذكاء في المحافظة على القيم الأساسية ويعترف بأن الإنجليز أجبروا محمد علي باشا على التخلي عن معظم إصلاحاته التحديثية لأنه أراد تحديثاً تقنياً دون تغريب ثقافي زائد.

مكسيم رودنسون (لا يوجد هناك ما يدل بطريقة مقنعة على أن الدين الإسلامي منع العالم الإسلامي من التقدم على الطريق نحو الرأسمالية الحديثة) ص128.

ويقرر بأن الإسلام والتحديث لا يتصادمان والمسلمون المتدينون يحضون على العلم، والإسلام كعقيدة يرضي كافة المستويات، حتى المتطرفين يستخدمون الوسائل الفنية الحديثة مثل البريد الإلكتروني والتلفزيون والكاسيت للدفاع عن قضاياهم.

وينتهي بالقول بأن التحديث لا يعني التغريب بالضرورة.

الفصل الرابع: (اضمحلال الغرب في القوة والثقافة والعودة إلى المحلية، الغرب يواجه اضمحلالاً في نموه الاقتصادي وبطالة وعجزا ويواجه تفككاً اجتماعياً بالإضافة إلى مشكلات المخدرات والجريمة وفي عام 1990 تتدهور القوة النسبية للولايات المتحدة بمعدل متسارع وخاصة في المواد الخام وتشكل الشركات المتعددة الجنسية خطراً لانتقال هذه المؤسسات من المركز إلى المحيط الخارجي.

وقوة الغرب بالنسبة لقوة الحضارات الأخرى سوف تستمر في الاضمحلال، ص135.

الجيل الأول لليابانيين درسوا في الغرب ولم يتغربوا ثم بدأ التأصيل وتعليم الجيل الثاني في جامعات يابانية.

وكذلك محمد علي جناح وباندرانايكا المسيحية عادا إلى البوذية وإلى التأصيل بالشعور بازدراء الغرب الثقافي وتخلف مؤسساته وما به من فساد وتفسخ وبدأت أسلحة الحداثة في العالم الإسلامي.

ويقول ريجيه ديبرايليس: الدين أفيون الشعوب عند ماركس وإنما هو فيتامين الضعفاء. وليمك ماكنيل: (إن إعادة تأكيد الإسلام مهما كان شكله الطائفي يفتي برفض النفوذ الأوروبي والأمريكي على المجتمع والسياسة والقيم المحلية) هذه الصحوة ليست رفضاً للحداثة بل هي رفض للغرب والثقافة العلمانية النسبية المتفسخة المرتبطة به ورفض لما يطلق عليه (التسمم

بالغرب) وهي إعلان استقلال ثقافي عن الغرب، إعلان كلمة كبرياء يقول: (سنكون حديثين ولكننا لن نكون أنتم)، ص168.

الفصل الخامس: الاقتصاد والديموغرافيا وحضارات التحدي:

العودة إلى الأصول وإحياء الدين ظاهرة عالمية، وقد تبدت في أوضح صورها في التوكيد الثقافي وتحديات الغرب التي جاءت من آسيا ومن الإسلام، ويضعها حضارة ديناميكية في الربع الأخير من القرن العشرين ويتجلى بالتحدي الإسلامي في رفض القيم الغربية ومؤسساته الاجتماعية ويقول (نهضة ثقافة تجتاح آسيا) (ثقة متزايدة بالنفس) التأكيد على الثقافة اليابانية والثقافة الصينية.

وأكد زعيم آسيوي (الآن الآسيويون في نهاية حقبة الرهبة وبداية حقبة الرد بقوة) إن النهضة تحتاج إلى أولوية مصالح الجماعة على المصالح الفردية. ماهتير قال: (القيم الآسيوية قيم عامة.. عالمية أما القيم الأوروبية فهي قيم أوروبية)، ص180.

وأما الصحوة الإسلامية: فقد توجه الإسلاميون إلى الإسلام كمصدر للهوية والمعنى والاستقرار ورفع شعار (الإسلام هو الحل) قبول الحداثة مع رفض الثقافة الغربية والعودة إلى الالتزام بالإسلام.

قال مسؤول سعودي: (نحن السعوديون نريد أن نأخذ بالحداثة ولكن ليس بالضرورة أن نتغرب).

الصحوة الإسلامية حركة فكرية ثقافية اجتماعية سياسية عريضة منتشرة في معظم أنحاء العالم العربي والصحوة تيار عام وليست تتطرق منطلقة وليست منعزلة.

يتوقع جمود الصحوة الإسلامية وأن يذوب في التاريخ بسبب الصراع في الداخل.

الفصل السادس: (إعادة التشكيل الثقافي للسياسة الكونية).

السياسة الكونية يعاد تشكيلها الآن على امتداد الخطوط الثقافية، ويعتبر الكره شيء إنساني، ولكي تعرف النفس تحتاج إلى أعداء وهذا سيؤدي إلى إنشاء صراعات.

عدم وجود دولة إسلامية يمثل مشكلات مهمة لكل من المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية.

لم تستطع تركيا الانضمام إلى المجتمع الأوروبي رغم كل ما قامت به وكذلك روسيا والمكسيك.

وأستراليا لم تستطع الانتساب إلى دول جنوب شرقي آسيا ورفضوها واتهمها ماهتير بأنها دولة أوروبية.

الفصل السابع: (دول المركز والدوائر المتحدة المركز، والنظام الحضاري، كل دول المركز في الحضارات الرئيسة محل القوى الكبرى).

ولأن الإسلام يفتقر إلى دولة مركز فإنه يقوم بتوسيع وعيه المشترك ولكنه حتى الآن لم يحقق سوى بنية سياسية ناقصة.

تنتهي أوروبا حيث تنتهي المسيحية الغربية ويبدأ الإسلام والأرثوذكسية. إن الفرز بين الدول الكاثوليكية والأرثوذكسية واضح في الضم إلى الاتحاد الأوروبي (فصل عنصري) وعضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي/ مشكلة تطور الاقتصاد الصيني في جنوب شرق آسيا يدل على أن الصين هي مركز كبير. الدول الإسلامية تحتاج إلى دولة قوية تعتبر مركزاً للعالم الإسلامي، وتركيا هي الأهم إذا استطاعت أن تترك العلمانية وتكون هي المركز كما فعلت جنوب إفريقيا.

الفصل الثامن: الغرب والباقي قضايا تداخل حضاري من المرجح أن تنشأ أخطر الصراعات في المستقبل نتيجة تفاعل الغطرسة الغربية، والتعصب الإسلامي والتوكيد الصيني. ص293.

تعاون صيني باكستاني إيراني لتطوير الأسلحة النووية.

كلينتون قال: (لن نسمح لكوريا بصنع القنبلة النووية).

حقوق الإنسان والديمقراطية.

أكثر من ثلاثين دولة تحولت إلى أنظمة ديمقراطية.

أكبر معارضة للتحول للديمقراطية الغربية جاءت من الإسلام عبر الصحوة الإسلامية.

كان مؤتمر فيينا ضعيفاً في الدفاع عن حقوق الإنسان وحقوق التعبير والصحافة والاجتماع والعقيدة.

وبالنسبة لموضوع الهجرة فقد أوردت الإحصائيات وجود 100 مليون مهاجر إلى أوروبا وأمريكا.

قوانين جديدة للحد من الهجرة، والمكسيك أكبر مورد للهجرة في أمريكا.

الفصل التاسع: (السياسة الكونية للحضارات).

في التسعينات كان الكثير يعتبرون حرباً حضارية باردة تنمو مرة أخرى بين الإسلام والغرب.

يقول: ألف سنة كان الإسلام هو المسيطر.

الإسلام انتشر بالفتح. ص341.

المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام فهو حضارة مخالفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضآلة قوته/ الصراع بين اليابان والولايات المتحدة كحرب اقتصادية باردة.

العلاقات الكونفوشيسية والإسلامية سوف تستمر وتتسع وتتعمق.

الفصل العاشر:

أول حرب حضارات كانت حرب الخليج، الحرب السوفييتية الأفغانية هي الأولى هكذا اعتبر المؤلف.

الحروب الطائفية بين جماعات إثنية أو دينية وأعمق اختلاف بين البشر هو الاختلاف الديني وليس (اختلافاً صغيراً) والدعم يطيل عمر الصراع. الحروب بين العرب والإسرائيليين والهنود والباكستانيين والسودانيين المسلمين والمسيحيين الصراع بين الإسلام والآخرين، الصرب الأرثوذكسي مع المسلمين ضد الكاثوليك الكروات والكاثوليك في كوسوفو، الروس والشيشان حروب استقلال ميانمار بين البوذيين والمسلمين، المسلمون ضد الصينيين اقتصادياً في أندونيسيا، المسيحيون ضد الشيعة في لبنان، الأمهريون ضد المسلمين في أثيوبيا، في جنوب السودان بين المسلمين والمسيحيين.

على امتداد الإسلام يجد أن المسلمين لهم مشكلات في العيش مع جيرانهم بسلام، شارك المسلمون في 26 صراعاً من أصل 50 صراعاً بين 1991 ـ 1994 يقول جيمس يايني: (صلة بين الإسلام وسياسة الاستعداد العسكري) الميل الإسلامي للقتال والعنف من حقائق أواخر القرن العشرين الزيادات السكانية هي العامل في الصراع.

ومع نهاية القرن العشرين نجد المسلمين أكثر تورطاً في العنف في الجماعات، ويعتبر أن سبب العنف هو الميل الإسلامي تاريخياً لهذا العنف ولا يذكر أسباباً أخرى وهو الاضطهاد من قبل غير المسلمين للمسلمين.

ويعتبر أن الإسلام كان ديناً للسيف منذ البداية ويعتبرها مطبوعة في أساس الإسلام ويعتبر المؤلف محمداً ﷺ أنه كان مقاتلاً عنيفاً وقائداً عسكرياً ماهراً ولم يكن المسيح عليه السلام ولا بوذا بهذا الشكل.

وإيجاد وطن يهودي شكل عداءً عربياً يهودياً مستمراً حتى مع الغرب الذي صنع هذا الكيان.

الدول الإسلامية لها مشكلات مع الأقليات غير الإسلامية.

ويعتبر استعمار الغرب للمسلمين هو أكبر سبب أدى إلى العنف عند المسلمين ويعيد السبب في الحروب عدم وجود دولة مركز إسلامية.

ينفي نظرية المؤامرة ضد المسلمين ويؤكد على عدم وجود دولة مركزية قوية إسلامية وتزايد الشباب وضعف التنمية يزيد في العنف.

وفي العقد الثالث للقرن الواحد والعشرين قد يخفف تنامي القوة الاقتصادية من العنف الإسلامي.

الفصل الحادي عشر: (القوى المحركة لحروب خطوط التقسيم الحضاري، صعود الوعي الحضاري).

(حروب الهوية) يعتبر أن البوسنة صارت دولة دينية وتحولت من سويسرا البلقان إلى إيران البلقان.

وفي روسيا تحولت الحرب بين الأرثوذكسيين والإسلام.

الصرب يدمرون المساجد وأديرة الفرنسيسكان.

الكروات يفجرون كنائس الأرثوذكس.

المنظمات الإسلامية أيدت مسلمي البوسنة وإيران والسعودية وليبيا وباكستان وأندونيسيا، والدول والمنظمات الأرثوذكسية أيدت الصرب وعارضت الكروات والمسلمين والحكومات والنخب الغربية أيدت الكروات وعاقبت الصرب وكانت غير مبالية بالمسلمين أو خائفة منهم بشكل عام.

أمريكا كانت تعمل لصالح المسلمين لأسباب كثيرة منها لإرضاء السعودية وتركيا ولتمكينهم في البوسنة ضد إيران ولمساعدة العلمانيين البوسنيين. إن التقسيم كان صعباً وحرباً وإبادة جماعية في البلقان من قبل الكروات والصرب للمسلمين.

الفصل الثاني عشر: الغرب ـ الحضارات والحضارة:

إن الحضارة الغربية هي الحضارة النهائية لهذه الحقبة.

إن الصحوة الإسلامية والاقتصاد الآسيوي يدلان على أن الحضارات الأخرى حية وبحالة جيدة.. ويمكن أن تهدد الحضارة الغربية.

الغرب يشكل إمبراطورية كونية على شكل نظام معقد من الكونفيدراليات وهي العصر الذهبي للحضارة الغربية.

كوبجي (الحضارة الغربية الناضجة الموشكة على الانهيار (يصف الحضارة الغربية) الانهيار الأخلاقي/ الانتحار الثقافي والتفكك السياسي في الغرب.

1 ـ التفكك الأسروي ـ التدهور في الرأسمال الاجتماعي ـ ضعف أخلاقيات العمل ـ عدم الاندماج للمهاجرين سيجعل الولايات المتحدة دولة متشققة أو مصدوعة أما أوروبا فعدم الالتزام الديني سيضعفها.

الفيلسوف الياباني يتنبأ بسقوط الولايات المتحدة/ تاك أو مي هاو.

من أجل استمرار الحضارة الغربية لابد من تجديد حياتهم الأخلاقية وتقوية البناء الثقافي مع التكافل الاقتصادي بينهم.

لابد من الاستمرار بالتأكيد على الصفات الفريدة للثقافة الغربية وتقوية التكامل الاقتصادي والسياسي للغرب.

تشجيع تغريب أمريكا اللاتينية.

كبح جماح القوة العسكرية للدول الإسلامية والصين.

إنه يحذر من حرب كونية بين الصين والولايات المتحدة ويضع سيناريو خطيراً ويتكهن ببداية الحرب للدفاع عن بترول فيتنام ضد الصين.

ويقول: قد يكون هذا عملياً ولكن إذا ابتعدت الولايات المتحدة من التدخل في الصراعات بين الدول فسيكون ضماناً لعدم هذه الحروب ويحذر أمريكا من التدخل في جنوب شرق آسيا ضد الصين ثم في وضع مندوب لكل الحضارات في مجلس الأمن الدولي.

إن صدام الحضارات هو الخطر الأكثر تهديداً للسلام العالمي.

والضمان الأكيد ضد حرب عالمية هو نظام عالمي يقوم على الحضارات.

الكتاب يتألف من 521 صفحة، يحلل فيه واقع الصراع الحضاري والصراع الذي كان في نهاية القرن العشرين في البلقان وفي الشرق الأوسط وفي أفريقيا.

ويعتبر الحضارات في حالة تنافس وخوف من التشظي في الحضارة الغربية وأي انشطار بين الولايات المتحدة وأوروبا سيجعل من الحضارة الصينية (الكونفوشيسية) والإسلام في حال تعاونهما قوة هائلة ضد الحضارة الغربية.

وهو يخشى من تنامي الأصولية الإسلامية والاقتصاد الصيني والعمل على إبعاد اللقاء بين الصين وباكستان وإيران والعالم الإسلامي، ويتنبأ بأن الصين سيكون لها مستقبل مادي كبير خلال عقدين ويخشى أيضاً من الهند، ولا يضع أي وسائل للوقوف أمام صعود القوى الإسلامية إلا إذا عادت تركيا كدولة مركز للعالم الإسلامي، ولا يخشى من أندونيسيا البعيدة

ولا من السعودية أو مصر كما لا يخشى من إيران، ولكن يؤكد على إيقاف القوة النووية لأي دولة حديثة كإيران وكوريا الشمالية ونيجيريا ومصر والجزائر ويجب القضاء على أي قوة نووية قد تطورها بعض الدول. كما فعلوا بحرب الخليج على العراق حتى لا يصل إلى إنتاج القوة النووية التي تخيف إسرائيل.

الكتاب تحليل للوضع الراهن وسيناريو للمستقبل خوفاً من حرب كونية تبدأ بين أمريكا والصين وتساند اليابان الصين كما تساند روسيا أمريكا، وأوروبا تقف على الحياد.

ويؤكد على التحام أوروبا وأمريكا وضم روسيا إلى الناتو لتوسيع قدرته وتحجيم وكبح جماح الصين والعالم الإسلامي حتى لا يكون قوة رادعة قوية، كما يعمل على إبعاد الهند من أي تلاقٍ مع الصين أو العالم الإسلامي ويدعو إلى تحييد الهند.

والكتاب لا يهاجم الإسلام كدين وإنما يريد تحجيمه كقوة لها مركز يحمي بعضه البعض ويدافع عن الدول الضعيفة، كما يخشى من الصين ومن الكونفوشيسية المتواجدة في جنوب شرقي آسيا ويخشى من تعاونهم لأن اقتصاد الصين المنتشر في هذه الدول يشكل رقماً هائلاً أكبر من القوة الأمريكية والأوروبية خلال تطورها السريع خلال عقدين.

وينصح أمريكا بعدم التدخل بالصراعات بين الدول حتى لا تتطور هذه الحروب مع حضارات قوية كالهند أو الصين أو روسيا.

كما يلمح إلى العمل الدؤوب لعدم تجمع المسلمين والعرب وتشكيلهم كياناً خطيراً لأن الإسلام في نظره مبني على العداء الكامل والتاريخي للغرب

من جراء حروبه العديدة واستعماره للكثير من الدول العربية والإسلامية. وهو فكر تنظيري للغرب ليستمر بقوته والتكامل الاقتصادي ليقف أمام أي احتمال طارئ في المستقبل القريب.

الكتاب مهم جداً لكل السياسيين في العالم العربي والإسلامي.

كما يؤكد على أن الأصوليين ليسوا أخطر من الإسلام نفسه لأن الجهاد في الإسلام هو الخطر إذا تضافرت قوى المسلمين حول دولة المركز القوية التي يخشى منها وهي تركيا. أكثرمن خوفه من الصين البعيدة أو روسيا الضعيفة.

قال: (ولن تنجو أمريكا بعد زوال أيديولوجيتها وستنضم إلى الاتحاد السوفييتي على كومة نفايات التاريخ).

لم يذكر الدول العربية ولا يخشى من تجمعها وذلك لأن إسرائيل تقوم بدور كبير في استمرار التشظي في العالم العربي وإن الدول العربية المعتمدة على حماية الغرب وأمريكا هي التي تساهم في استمرار الحالة الراهنة من الضعف، وهي أيضاً تقوم بدور هام وهو تحجيم الصحوة الإسلامية وإبعادها عن القرار في بلدانها لأنهم مجمعون على أن هذه الصحوة تنمي الإرهاب ضد بلدانها، وهذا ما يجب أن يفهمه الإسلاميون بتعاونهم مع بلدانهم ليساهموا في صنع القرار، وإشعار الدول العربية والإسلامية بأن الإسلام ليس دين الإرهاب وإنما هو دين الدفاع عن الحقوق المسلوبة وضد الهيمنة الخارجية على العالم العربي والإسلامي وعدم وعي هؤلاء الدعاة يساهم في إضعافهم وإبعادهم، ويحجمهم وهذا ما يريده الغرب من العاملين في التنظير السياسي والاجتماعي والعسكري في العالم العربي والإسلامي.

المصادر والمراجع

- قصة الحضارة، ويل ديورانت 1/ 45.
- تاريخ القرن السابع عشر في أوروبا، د. نور الدين حاطوم، دار الفكر.
- الكنيسة والعلم (تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي)، جورج مينوا، ترجمة موريس جلال.
- تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم.
- بعض أوهام المادية الجدلية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر.
- تراث الإسلام 1/ 3، شاخت وبوزورث، عالم المعرفة.
- نظرية المعرفة، د. راجح الكردي.
- العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب، رون هاليبر، ترجمة جمال شحيد.
- أثر المعتزلة في الفلسفة الإلهية عند الكندي، الأهالي، دمشق، الأستاذة هناء عبده سليمان أحمد، مكتبة الثقافة الدينية.
- صدام الحضارات، صاموئيل هنتنغتون.
- نهاية التاريخ، فوكوياما.
- الحضارة في الميزان، أرنولد توينبي.
- حضارة العرب، غوستاف لوبون.
- ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، د. برهان غليون و د. سمير أمين، دار الفكر.
- البراجماتية، يعقوب فام، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- قصة الفلسفة، ويل ديورانت، مكتبة المعارف، لبنان.
- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه.
- موقف الأمة الإسلامية من القاديانية.
- الحروب الصليبية، أمين معلوف، دار الفارابي، بيروت.
- الإسلام ومستقبل الحضارة، د. صبحي الصالح، دار قتيبة، دمشق.
- فلسفة تعاليم الإسلام، ميرزا غلام أحمد، ترجمة منير إدلبي.
- العقيدة والمعرفة، زيغريد هونكه، دار قتيبة، سورية.
- عالمية الإسلام ومادية العولمة، سميح عاطف الزين، الشركة العالمية للكتاب، بيروت.
- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، أبو الوليد بن رشد، دار المعارف.
- العلمانية، سفر الحوالي، دار مكة للطباعة والنشر.
- الثورة الروحية في الإسلام، د. أبو العلا العفيفي، دار الشعب.
- تهافت التهافت، ابن رشد، المكتبة العصرية.
- مهزلة العقل البشري، د. علي الوردي.

- كانت، د. زكري إبراهيم، دار مصر للطباعة.
- ما العولمة، د. حسن حنفي، د. صادق جلال العظم، دار الفكر.
- الحضارة العربية الإسلامية، د. شوقي أبو خليل، منشورات كلية الدعوة الإسلامية.
- أصول الفلسفة الماركسية، جورج بوليترز، المكتبة العصرية.
- القاديانية والبهائية، محمد الخضر حسن.
- تفكير كارل ماركس، جان إيف كالفير، دار اليقظة.
- نقد الدين والفلسفة.
- ابن رشد تفسير ما بعد الطبيعة، ابن رشد، دار المشرق، بيروت.
- الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- مختصر دراسة للتاريخ، أرنولد توينبي، ترجمة محمد مستي.
- مهزلة العقل البشري، علي الوردي.
- القرامطة بين الدين والثورة، حسن برزون.
- تأملات ديكارت، ديكارت.
- التفكير الفلسفي الإسلامي، د. سليمان الدنيا.
- التفكير الفلسفي الإسلامي، د. إنصاف رمضان.
- الله يتحدى الملحدين، د. محمد شيخاني.
- تهافت القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن، د. منير الشواف.
- تهافت القراءة المعاصرة للدولة والمجتمع، د. منير الشواف.
- التربية الروحية بين الصوفية والسلفية، د. محمد شيخاني.
- هل في القرآن والسنة تربية روحية، د. محمد شيخاني.
- وعود الإسلام، روجيه غارودي.
- حوار الحضارات، روجيه غارودي.
- حوار الحضارات، د. حسن الباش.
- هل نحتاج إلى الله، روجيه غارودي.
- الموسوعة الفلسفية، د. عبد الرحمن بدوي.
- الفلسفة الحديثة والمعاصرة، محمد فتحي الشنقيطي.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا.
- تاريخ الفلسفة في أمريكا، بيير كاز.
- قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود.
- المؤلفات الكاملة لديكارت، طبعة آدام دتانري.
- المقال في المنهج، ديكارت.

ـ تهافت العلمانية، د. عماد الدين خليل.
ـ شروط النهضة، مالك بن نَبي.
ـ الإسلام قوة الغد العالمية، د. محمد شامية تأليف باول شمر.
ـ معجم الفرق الإسلامية، عارف تامر.
ـ البهائية والقاديانية، أسعد السحمراني، بيروت.
ـ البهائية نقد وتحليل، إحسان إلهي ظهر.
ـ إله واحد ودين واحد، نيازي عز الدين، دار الأهالي.
ـ أصول الحكم والتشريع، د. فتحي الدريني.
ـ قصة الفلسفة، نديم الجسر.
ـ اللامنتمي، كولن ولسن.
ـ قصة الإيمان، نديم الجسر.
ـ الماسونية الأخطبوط المجهول، عمر الحلبوني.
ـ فضح اللعبة الماسونية، وولتون هثه.

المحتويات